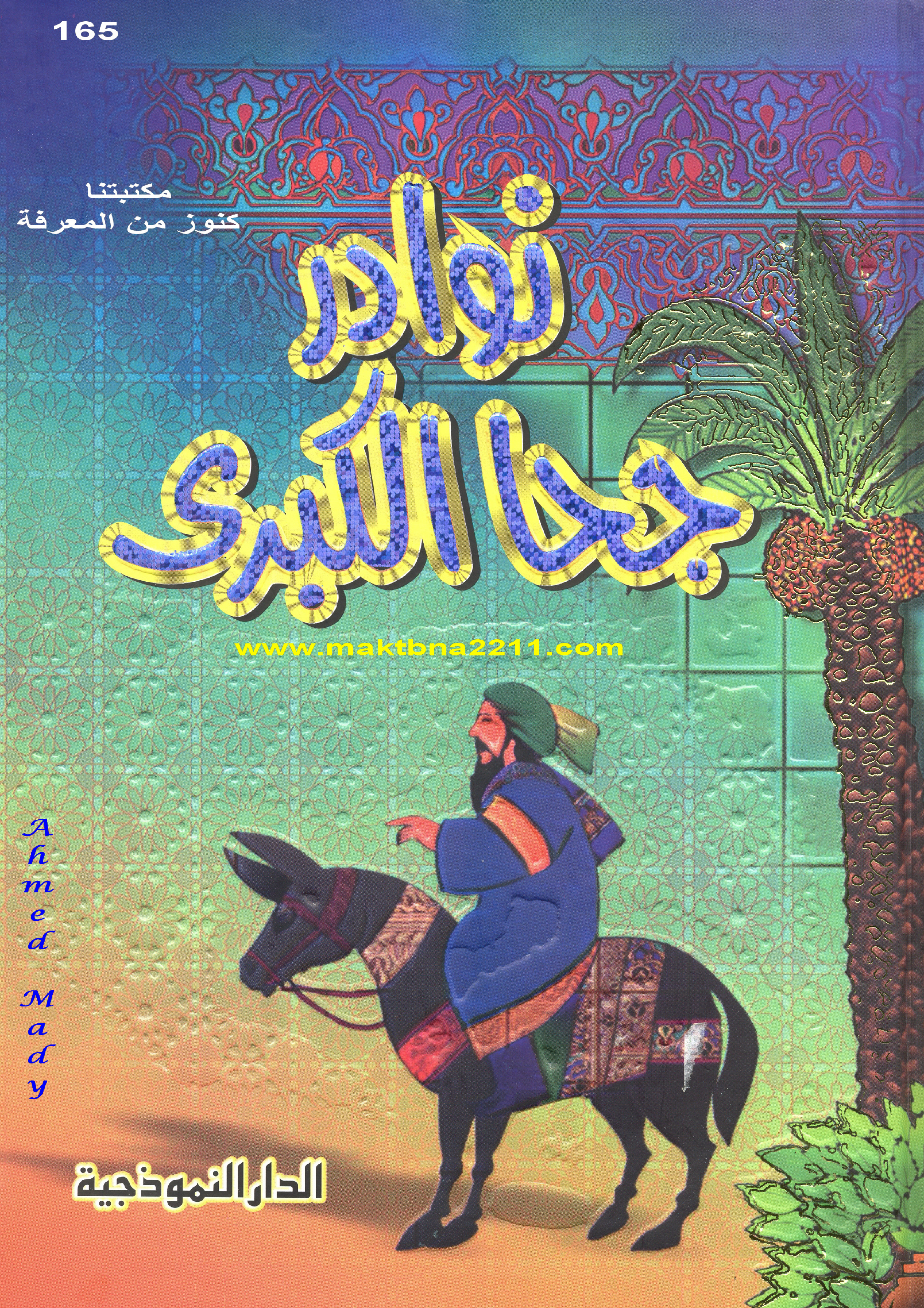

165
مكتبتنا
كنوز من المعرفة
نوادر
جحا الكبرى
www.maktbna2211.com
Ahmed Mady
الدار النموذجية

نوادر
جحا الكبرى



اعتنى به وراجعه

د. درويش جويدي

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ممّا يدلّ على أن أصل التسمية عربي ما ورد في لسان العرب ١٤/ ١٣٣، مادة «جحا» قوله: «جَحَا بالمكان يَجْحو، أقام به كجَحَا. وحيّا اللّه جَحْوتَك أي طلعتك. وجُحَا: اسم رجل، قال الأخفش: لا يصرف لأنه مثل عُمر. قال الأزهري: إذا سمّيت رجلاً بجُحَا فألحقه بباب زُفَر، وجُحَا معدول من جَحَا يَجْحو إذا خطا».

والرأي عندي

أنه ما من أمّة تمرّ بظروف متشابهة لما تمرّ بها أمم أخرى إلّا وظهر شخص يتمتّع بمواصفات جُحا الهزلية الهازئة الضاحكة الذكية؛ في حال تعرّضها لنكبات سياسية؛ كتولّي الإمارة حاكم ظالم، أو مستعمر غاشم لا يرحم، فهنا نرى أمثال هذا النوع من الرجال يلجأ إلى الحيلة، معبراً عن أحاسيس الأمة، حيث يتطلّب الظرف الدهاء وحسن التصرّف، والحنكة أمام أمثال هؤلاء المتسلطين السفّاكين.

لذا فظروف العالم الإسلام، منذ مطلع الدولة الأموية حتى أيامنا هذه، خصبة بالأحداث الجسام، والنكسات العظام المتوالية، من كلّ نوع، تحتّم ظهور النقد الممزوج بإحساس المرارة والابتسامة اللاهية، متمثلة بأمثال جحا أو غيره. ولهذا فالأدب الجحاوي أدب تراكمي لم يصدر عن شخص واحد، أو عصر واحد، وإنّما تنمو شخصية جحا بمرور الزمن، وتوالي الأحداث الشيّقة، حيث البسمة والدمعة تتلازمان في ضمير الأمة. وعليه فهناك أكثر من شخصية، ظهرت في محيطنا العربي الإسلامي، تتزيا بالصفات نفسها، وتنشر عبير النكتة في مختلف أرجاء عالمنا.

ولقد اهتم الدكتور محمد رجب النجار بتلك النماذج: فنشرت له سلسلة عالم المعرفة العدد العاشر كتابه بعنوان «جحا العربي».

ومن هو جحا العربي؟ إنه: أبو الغصن، صاحب النوادر، يضرب به المثل في الحمق والغفلة. كانت أمه خادمة لوالدة الصحابي الجليل أنس بن مالك ـ رضي اللّه تعالى عنه ـ عربي النسب: فزاري القبيلة، كوفي المنبت، شهد ثورة أبي مسلم الخراساني على الأمويين، وأدخله عليه مولاه يقطين، فقال: يا يقطين أيّكما

أبو مسلم؟ وعلى هامش مخطوطتين من «المستقصى» للزمخشري: حيث يقول عمر بن ربيعة:

«دلَّهتِ عقلي، وتلعبت بي   حتى كأني من جنون جحا»

فإن صحّت نسبة البيت إلى ابن أبي ربيعة، دلّت على اشتهار جحا قبل أيام أبي مسلم بأكثر من أربعين سنة. وسمّاه الجوهري في صحاحه «جحا»، فتعقّبه صاحب القاموس المحيط بأن «جحا» لقبه وأن اسمه «دجين بن ثابت». وأورد ابن حجر العسقلاني في «لسان الميزان» ترجمة لمحدّث من أهل البصرة، اسمه «دجين بن ثابت اليربوعي» وكنيته «أبو الغصن» ونفى رواية من قال: إنه هو جحا. وقال شارل بلّا: إن الجاحظ كان أول مؤلف عربي ذكر جحا في مؤلفاته، ذكره في رسالة عن علي والحكمين، وذكره في كتاب «البغال». وفي فهرست ابن النديم، من الكتب المصنفة في أخبار المغفلين «نوادر جحا». وهذا حتماً غير كتاب «نوادر جحا» المطبوع بمصر وبيروت المترجم عن التركية، المنسوبة أخباره إلى جحا الرومي المعروف بخوجه نصر الدين، وقد دخلت فيه حكايات من نوادر جحا (العربي) في جملة ما ترجم إلى التركية من كتب العرب. قال الزمخشري: والحكايات عنه لا تضبط كثرة. وفي ديوان أبي العتاهية (المتوفى سنة ٢١١ هـ) قوله:

دلّهني حبّها وصيّرني   مثل جحا شهرةً ومَشْخَلَهْ

وفي مخطوطة حديثة سُمّيت «قطعة من تراجم أعيان الدنيا الحسان» في المكتبة الشرقيّة اليسوعية ببيروت: كان أبو الغصن جحا البغدادي صاحب مداعبة ومزاح ونوادر، توفي في خلافة المهدي العباسي.

انظر ترجمته في: المستقصى، للزمخشري ـ خ ـ والتاج ١٠/٦٨، مجمع الأمثال ٢/ ١٥٠، الفهرست لابن النديم طبعة فلوجل: ٣١٣، الصحاح للجوهري ٢/ ٤٥٥، ديوان أبي العتاهية، تحقيق الدكتور شكري فيصل: ٤٨٨، لسان الميزان ٢/ ٤٢٨، عبد الوهاب عزام في مجلة الرسالة: السنة الأولى، العدد ٢٠، قلت: أما الخوجة نصر الدين المذكور في نهاية الترجمة، فقد نحله الترك أخبار جحا وزادوا فيها أضعاف أضعافها. ويُظنّ أنه صاحب الضريح الكبير في بلدة «آقَ شَهْرْ»، وقد مَرّ به مؤلف رحلة الشتاء والصيف. ونعته بصاحب التفسير، وأرخ وفاته سنة ٣٨٦ كما في مخطوطتي منه، ولم أراجع المطبوعة، ولعلّ الصواب ٦٨٣، وقال: والعامة تزعم أنه جحا الذي يضرب به المثل في الغفلة، وليس هو. ثم تحدّث عن جحا الكوفي الفزاري أبي الغصن، وقال: «ورأيت في بعض التعاليق أنه كان فاضلاً ماجناً، وقد عمل الناس على لسانه كثيراً من النوادر كما عملوا على

لسان المجنون. ولابن أبي اليمن الغفاري مؤلَّف في ذلك، يشتمل على الألف ورقة» وانظر كتاب «جحا في ليبيا» لعلي مصطفى المصراتي. والتراتيب الإدارية ٢/ ٢٦١، ومحاضرة شارل بلّا في جريدة الحياة البيروتية ٢١/ ٣/ ٦٥، قلت: ونشأ عن اختلاط حكايات جحا العربي بجحا الرومي أن ذهب بعض الكتاب إلى أن «جحا» أسطورة خيالية، اقرأ مقال محمد فريد أبي حديد في مجلة «العربي» العدد ٤١ ص٦٦، ونقلت جريدة الحياة (بيروت ٩/ ١/ ١٩٧١) عن إحدى الصحف الأجنبية أن بعض الشعوب عرفت جحا (أو نصر الدين جحا) بأسماء متشابهة فهو في آسيا الوسطى «هودجا» وفي مالطة «جيهان» وفي بلاد السكسون «جوكا».
انظر: الأعلام للزركلي ٢/ ١١٢ ـ ١١٣.

جـــحـــا
ترجمته وبعض ما قيل فيه

الشيخ نصر الدين جحا الرومي. تركي الأصل من أهل الأناضول. مولده في مدينة «سيورى حصار» ووفاته في مدينة «آقَ شَهْرْ».

تلقى علوم الدين في آقَ شَهْرْ وقونيةَ، ووليَ القضاء في بعض النواحي المتاخِمةِ[1] لآقَ شَهْرْ، ثم ولي الخطابة في «سيوري حصار» ونُصِّبَ مدرساً وإماماً في بعض المدنْ، وساح في ولايات «قُونيةَ» و«أَنقرةَ» و«بروسةَ» وملحقاتِها.

كان واعظاً مرشداً صالحاً، يأتي بالمواعظ في قالب النوادر، وله جرأة على الأمراء والقضاة والحكام، وكثيراً ما كانت الحكومة تستقدمه من «آقَ شَهْرْ إلى العاصمةِ يومَئذٍ «قونية»»، وكان عفيفاً زاهِداً يحرثُ أرضه، ويحتطِبُ بيديه، وكانت دارُهُ محطّاً للواردينَ من الغرباء والفلاحين، ويذكر أن وساطتَهُ أنقذت بلدته من تيمورَ الجبارِ الطاغيةِ.

أما زمنه، فالراجحُ أنه كان في عهد السلطان أُورخانَ، وظلَّ حتى عهد السلطانِ ييلديرم، أي في أوائل القرن السابع للهجرة، وعاش إلى سنة ٦٧٣هـ، وتوفي عن نحو ستين عاماً.

قال الكاتب الهزليُّ الشهير «جايلاق توفيق بك، صاحب جريدة «حنبغر اقلي تاتار» في مقدمة كتابه «لطائف نصر الدين» كان الشيخُ من رجالِ السلطان ييلديرمَ بيازيدخان، وقدِم الآستانةَ أحدُ سلالتِهِ في أيام السلطان مراد الثالث، لمراجعة الأوقاف الهمايونيةِ، ببعض مُرتباتٍ منتقلةٍ إلى هذه السلالة، وعندما أراد تقديم العريضة إلى الحضرة السلطانية، ربط دابته في طبل كبير، كان هناك، للنوبة السلطانية، فجفلت الدابة منه وأخذت تجرّه، وكلما تدحرج الطبل على الأرض، ازداد صوته دوياً وازدادت الدابّة خوفاً واضطراباً، واتّفق أن كانت هناك، بغال الصرة فجفِلت، وقامت قيامتُها وعلت الضجّة، فسأل رجال الحضرة السلطانية، عن الأمر، فعرفوا السبب، وبحثوا عن رابط الدابة بالطبل، فقيل لهم: إنه رجل من

(١) المتاخمة: المحاذية.

سلالة الشيخ نصر الدين، فأجيب إلى سؤاله فوراً، واعتبروا عمله هذا، حجة كافية لإثبات كونه من سلالة المرحوم!

وقال «ضيابك» أحد كتاب الترك في كتاب له، سمّاه: «سياحة في قونية»: زرت ضريحَ الشيخ في مقبرة «آقَ شَهْرْ» الكبرى فقرأت على حجر الضريح ما يأتي بالحرف الواحد:

هذه التربة للمرحوم
المغفور المحتاج إلى رحمة ربه الغفور
نصر الدين أفندي روضة فاتحة ٣٨٦

قال: فاستغربت هذا التاريخ، لأن الشيخ توفي بعد سنة ٣٨٦ وأخيراً، عرفت أن التاريخ، جاء مقلوباً، وصوابه (٦٨٣) فما أدري أكان ذلك جهلاً من ناقشه، أم تجاهلاً أراد به النكتة!

ثم قال: وكان الشيخ من أولئك الرجال الذين عُنُوا بتهذيب النفوس، بضروب النوادر والأمثال، كالشيخ «شسترى» مخترع لعبة خيال الظل (قَرَهْ كُوزْ) و«حاجيواد» في عهد السلطان أورخان وغيرهما.

وجُدِّدَ ضريحُهُ في العهد الأخير. وهو في قبة على أربعة أعمدة، وعلى رأسه «قاووق» عظيم، وعلى الجدران، كثير من الكتابات، نظماً ونثراً، وعلى العوارض والأخشاب، خرق ربطها الناس، استشفاء من الحمى، والتماساً للبركة.

ولأهل تلك البلاد، اعتقاد بكرامات الشيخ، وهم يكثرون من الضحك عند قبره، ويزعمون أن من زاره، ولم يضحك، لم يسلم من نائبة تصيبه!

ومن عادات أهل «آقَ شَهْرْ» في زواجهم أن يبدأ العريسان بزيارة ضريح الشيخ نصر الدين، ويدعواه إلى حفلة الزفاف، ويقولا له: «شرفنا مع تلاميذك»، ويعتقدون بأن مَن تزوج، ولم يقم بهذا الواجب، لم يوفّق في زواجه.

نوادره وأخباره

١

مَنْ يعلَمُ يُعْلِمُ مَنْ لا يَعْلَم

جلس الشيخ نصر الدين أفندي، يوماً على منصة الوعظ في أحد جوامع «آقَ شَهْرَ» وقال:

ـ أيُّها المؤمنون، هل تعلمون ما سأقوله لكم؟

فأجابه السامعون: كلا، لا نعلم.

قال: إذا كنتم لا تعلمون، فما الفائدة من التكلم، ثم نزل. وعاد في يوم آخرَ فألقى عليهم نفس السؤال، فأجابوه، هذه المرة:

١ ـ أجل إنّا نعلم. فقال: ما دُمْتُم تعلمون ما سأقولُهُ فما الفائدة من الكلام؟ فحار الحاضرون في أمرهم واتَّفقوا فيما بينهم، على أن تكونَ الإجابةُ في المرةِ القادمةِ متناقِضةً، قسم يجيب: لا، وقسم يجيب نعم، ولما أتاهم المرة الثالثة، وألقى عليهم سؤاله الأول، اختلفت أصواتهم بين: لا ونعم فقال: حسن جداً مَنْ يَعْلَمُ يُعْلِمُ مَنْ لا يَعْلَمُ.





لو كان للجمال أجنحة

قامَ في أحد الأيام، واعظاً وقال: أيُّها المسلمون، احمدوا اللَّه الذي لم يخلق للجمال أجنحة، إذ أنها لوِ آستطاعت الطيران لهبطت على سطوح بيوتكم، فخرّبتها على رؤوسكم.



٣

نجومنا كنجومكم

قال يوماً في أثناء وعظه: أيُّها المسلمون، إن هواء هذه البلدة كهواء بلدتنا تماماً، فقالوا له: وكيف استدللت على ذلك؟ قال:

ـ إن عدد النجوم الموجودة في سمائكم، وشكلها مطابق، تمام المطابقة، لعدد وشكل، ونجوم سماء آقَ شَهْرْ، فهواؤنا إذاً كهوائكم.



٤

حمّام فوق المأذنة

دخل الحمّام يوماً، وكان السكون فيه سائداً، فأنشأ يتغنى، فأعجبه صوته، فحدثته نفسه، بأنه لا يجوز أن يبخل بنعمة صوته البديع، على إخوانه المسلمين. فما أسرع ما خرج من الحمام قاصداً الجامع حيث صعد إلى المأذنة وبدأ ينشد بعض التسابيح في ساعة أذان الظهر، فاستغرب المارة هذا الأمر، وكان صوته خشناً مزعجاً، فناداه أحدهم قائلاً:

«ويحك يا أحمق! ما لك تزعج الناس بهذا الإنشاد، بصوتك المزعج، وفي مثل هذه الساعة؟» فأجابه من أعلى المأذنة:

ـ يا أخي لو أن محسناً، يتبرع لي ببناء حمّام، فوق هذه المأذنة، لأسمعتك من حُسن صوتي، ما يُنسيك تغريد البلابل!

☆ ☆ ☆

٥

هاتها تسعة ولا تزعل

رأى في منامه، أن شخصاً أعطاه تسعة دراهم، بدلاً من عشرة، كان يطلبُها منه فاختلفا، وتنازعا، ولما احتدم بينهما الجدال، انتبه من نومه مذعوراً، فلم يرَ في يده شيئاً، فتكدّر، ولامَ نفسه على طمعها، ولكنه عاد فاستلقى في الفراش، وأنزل رأسه تحت اللحاف، ومدّ يده إلى خصمه الموهوم، قائلاً: هاتها تسعة ولا تزعل!

٦

خرجتُ من القبر للفسحة
(جحا في القبر)

كان يتمشى يوماً خارج البلد، أمام مقبرة، فرأى جماعة من الفرسان، قادمين نحوه، فأوجس منهم خيفة، ولكن قبراً قديماً رآهُ مفتوحاً أمامه، أوحى إليه فكرة الاختفاء فيه، فخلع ثيابه العليا، ونزل فيه، فلما اقترب منه الفرسان، ورأوه في القبر، عاري نصف الجسم، استغربوا حالته فسألوه:

ـ ماذا تعمل في القبر يا هذا؟.

فحارَ في الجواب، ولكنه استدرك وقال: أنا من أهل القبور، وقد سئمت طول المكث، فاستأذنت ربي أن أخرج قليلاً، للفسحة فأذن لي. فضحك الفرسان، وتركوه وشأنه.





وأنا أفكر في هذا أيضاً

دخل يوماً إلى بستان، أثناء غياب صاحبه، وراح يقطف، ما يقع تحت يده من الأثمار، والخُضَر حتى ملأ حقيبة كانت معه، ولما همّ بالخروج رأى البستاني عائداً، فتلبك، وخاف، فقال له البستاني: ما الذي تفعله هنا؟ فقال مرتبكاً: لقد حملتني العاصفة التي هبطت مساء أمس، فألقتني هنا غصباً عني، فقال: حسن ومن الذي قطف ما في حقيبتك؟ فقال: كان الهواء الشديد يتلاعب بي ويلقي بي هنا وهناك فأتمسك بما يقع تحت يدي من الخُضَر، والأثمار، فتقلع، وتظل في يدي.. قال البستاني: وهذا أحسن، ولكن مَنْ الذي وضع ذلك في الحقيبة حتى ملأها؟

فلم يجرِ جحا على هذا جواباً، ولكنه قال: وأنا أفكر في هذا أيضاً، ولكنني أصدقك القول بأني أبحث منذ رأيتك عن جواب فلم أجده.



٨

أكل الحلوى جبراً

ذهب إلى قُونيةَ يوماً ودخل دكان حلواني، يعرض أطباق الحلوى فتقرّب من أحدها وقال: «بسم اللّه» ثم بدأ يلتهم ما في الطبق، قطعة قطعة، فاعترضه الحلواني، وقال له: بأي حق تأكل مال الناس، بهذه الجرأة؟ فلم يلتفت جحا إلى كلامه بل ظل مواظباً على الأكل.

فلم يكن من بائع الحلوى إلا أن أخذ عصا وراح يضربه بها، ولكن ذلك لم يمنع جحا عن متابعة الأكل بسرعة زائدة قائلاً: بارك اللّه فيكم، يا أهالي قُونيةَ، إنكم تطعمون زائريكم الحلوى، بالجبر والضرب.

☆☆☆

٩

شهر رمضان على حساب الجرّة

خطر له في شهر رمضانَ، أن يشتري جرّة، وأن يضع عن كل يوم يمضي من هذا الشهر، حصاة في الجرّة، كي لا يغلط بحساب الأيام، ولا يتكل في أيام صومه على حساب الناس، فلم تمض بضعة أيام حتى لاحظت ابنته الصغيرة ما يفعله والدها، فدفعها حب التقليد أن تخفف عن والدها هذا العمل فأتت من الحصى بما يملأ يدها، وألقت بها في الجرّة، فجاء يوم اختلف فيه بعض زائريه على عدد الأيام الماضية من الشهر المبارك فقال: انتظروا إني سوف آتيكم بالقول الفصل.

ثم قصد داره، وأفرغ ما في الجرّة، فبلغت الحصى مائة وعشرين، فاستعظم العدد وقال: لو صدقتهم عن العدد لحسبوني أبله، ولكني أقسم العدد إلى قسمين، ثم خرج وقال لهم: هذا هو اليوم الستون من الشهر. فضحكوا، وقالوا: ومتى كان الشهر يزيد على الثلاثين؟ قال: أفِ[1] لكم لقد أنصفتكم، فما بالكم تهزأون، لو كنت قلت لكم الحقيقة على حساب الجرّة لكان هذا اليوم، اليوم المائة وعشرين من الشهر، فاقنعوا بما قلت، فإنه خير لكم.

☆☆☆

(١) أفِ: اسم فعل مضارع بمعنى أتضجّر.

١٠

أصل النجوم

سأله بعضهم يوماً: إذا دخل القمر الجديد، فأين يكون القديم؟ قال: إنهم يقطعونه، ويصنعونه نجوماً.

☆☆☆

١١

مكسب جحا بالبيض

خطر على باله، أن يتعاطى التجارة يوماً، فاشترى بيضاً على حساب كل تسع بيضات بقرش، وأخذ يبيعها كل عشرة بقرش، فقال أحدهم متهكماً: ما هذه التجارة الرابحة؟ فقال: ومتى كان الربح من شروط التجارة، ألا يكفيني أن يقول عني أصحابي: أني تاجر، أبيع، وأشتري.



١٢

كل شيء بحسابه

كان جالساً على شاطىء نهر، فجاء إلى الشاطىء الثاني، عشرة عميان، فاتَّفقوا وإيَّاهُ على أن ينقلهم، على ظهره، واحداً واحداً، لاجتياز النهر، ثم يدفعون له عن كل منهم درهماً، فنقل منهم تسعة إلى الشاطىء الآخر، ولما جاء دور العاشر شعر صاحبنا بالتعب الشديد، فحمله، وهو منهك القوى، حتى وصل إلى نصف النهر، ولم يعد في إمكانه اجتياز النصف الثاني، بحمله الثقيل، فرمى به في النهر، فجرّه التيار، وقام رفاقه، يصرخون، ويعولون فقال لهم: ولماذا هذا الصراخ والعويل؟ كل شيء بحسابه ادفعوا لي تسعة دراهم، واللّه يعوّض عليّ.

☆☆☆

١٣

اللفت المحشوُّ بالجزر

جاءه رجل وفي يده بيضة، وقال له: إذا حزرت ما بيدي أعمل لك منه أكلة

عجّة، فأجابه جحا: صف شكله ولونه. قال: هو بيضاوي الشكل، خارجه أبيض، وداخله أصفر. قال: حزرت إنه لفت فرّغوا داخله وحشوه جزراً.



(١٤)

أنا لست تاجر أيام وشهور

سأله أحدهم: في أي يوم من الشهر نحن؟ قال: ومتى كنت تاجر أيام وشهور حتى أجيبك على سؤالك.



(١٥)

بائع سلالم

قصد أحد البساتين المقفلة، يحمل سلّماً، فأسند السلّم إلى السياج، وتسلقها، حتى إذا وصل إلى أعلى السياج، سحبه، وأنزله من الداخل، ثم نزل عليه، فرأى البستاني ينتظره عند أسفل السلّم، ويقول له: مَن أنت، وماذا تعمل هنا؟ قال: أنا بائع سلالم. فقال البستاني: ومتى كانت السلالم تُباع هنا؟ فأجابه الشيخ: ما شاء اللّه ألا تدري أن السلالم، تُباع في كل مكان؟



(١٦)

البقرة تعرف ذنبها

دخلت إلى مزرعته بقرة، فتناول عصاه، ولحق بها، ففرّت أمامه، ولكنه صادفها بعد أسبوع، تجرّ عربة نقل أحد الفلاحين، فلم يصبر عن الهجوم عليها، وضربها بعصاه، ولما انتهره صاحبها، مستغرباً منه هذا العمل، سائلاً إياه عن ذنب البقرة أجابه:

ـ لا تتدخل أيُها الرجلُ الجاهلُ، فيما لا يعنيك، فالبقرة تعرف ذنبها!

☆ ☆ ☆

١٧

ادفنوني في قبر قديم

أوصى أهله أن يدفنوه، يوم موته في قبر قديم، قالوا: ولماذا؟ فأجابهم، إذا جاءني ملكا الموت ليسألاني، أجيبهما، أني قديم العهد في هذا القبر، وأني سئلت، ومتى نظرا إلى قبري، رأيا فيه مصداقاً لقولي فيتركاني وشأني، وهكذا أتخلص من شديد سؤالهما على أهون سبيل.



١٨

خذ وضوءك ورد حذائي

توضأ يوماً على ضفاف نهر، ولما انتهى، وأراد لبس نعليه، وقع أحدهما في النهر، وجرى مع الماء، فأدار ظهره للنهر، وأخرج صوتاً.. يشبه الرعد، ثم التفت إلى النهر وقال له: خذ وضوءك، ورد لي حذائي.



١٩

حداداً على والد ابني

لبس يوماً ثياباً سوداء، فتقدم إليه بعض معارفه، وسأله عمّا إذا كانت أصابته مصيبة، ألبسته السواد. فقال: نعم، لقد أُصِبْتُ بوفاة والد إبني.



٢٠

الخازوق في أسفل الأنبوب

اشتد في بعض أيام الصيف عطشه، وكان عائداً من بلد بعيد، فصادف على قارعة الطريق، أنبوباً مسدوداً بخشبة فاقتلع الخشبة، وسالَ الماء بشدة من الأنبوب، حتى تبلّلَ من رأسه إلى قدمه، فنظر إلى الأنبوب، وقال: لو لم تكن مجنوناً، لما وضعوا هذا الخازوق في أسفلك.

٢١

لم يصبها شيء

خرج يوماً للاحتطاب في الجبل، وأخذ معه بضع بطيخات، يروي بها عطشه، في ذلك الجبل الذي لا ماء فيه، فكان كلما أصابه العطش، يكسر بطيخة، فيأكل منها قطعة ثم يرميها على مزبلة كانت هناك بحجة أنها غير ناضجة حتى أتى على جميع ما معه من البطيخ على هذه الصورة يأكل قسماً قليلاً ويرمي بالباقي على المزبلة.

ولما اشتدت حرارة الشمس، نصف النهار، أحس بعطش شديد، فلم يرَ بداً من الركون إلى بقايا البطيخ المطروحة بين الأقذار فتناولها قطعةً قطعةً، وهو يقول: هذه ما زالت نظيفة، وهذه لم يصبها شيء، إلى أن أتى عليها جميعاً.



٢٢

ماذا تنفع الثياب في يوم الحشر

كان يربي لمؤونة الشتاء خروفاً جميلاً، وكان يحبه ويبني عليه صروح الآمال فأراد أصحابه أن يلعبوا عليه، ويسلبوه خروفه، فلم ينجحوا، فاتَّفقوا على أن يحتالوا عليه، فجاءه أحدهم فقال له؛ ماذا أنت صانع بخروفك هذا؟ وستقوم القيامة غداً أو بعد غد، هاتِهِ لنذبحه، ونطعمك منه. فلم يعبأ الشيخ بقول صاحبه، ولكن أصحابه أَتَوْهُ واحداً واحداً، يرددون عليه نفس النغمة حتى ضاق صدره، فوعدهم بأن يذبحه في اليوم التالي ويدعوهم لأكله في مأدبة فاخرة في البرية، وهكذا ذبح الخروف، وأُضْرِمَتِ النارُ، فأخذ جحا يشويه عليها، وبينما هو قائم بهذه المَهمةِ، تركه رفاقه، وراحوا يلعبون ويتنزهون بعيداً عنه، بعد أن تركوا أمامه قسماً من ثيابهم يحرسها، فاستاء من عملهم هذا، لأنهم تركوه وحدَهُ، دون أن يعرض عليه أحدهم مساعدته، فما كان منه إلَّا أن جمعَ ثيابهم، وألقاها في النار فالتهمتها، ولما عادوا إليه، ووجدوا ثيابهم رماداً في النار، هجموا عليه هجمةً واحدةً، فلما رأى منهم هذه الحملة، التفت إليهم قائلاً: وما الفائدة من هذه الثياب إذا كنتم تُصِرُّون على اعتقادكم بأن يوم القيامة واقع اليوم أو غداً لا محالة؟



٢٣

ألم ننتقل إلى هذا الدار

دخل لص دار جحا، وأخذ يحمل ما يقع تحت يده، وكان جحا نائماً في غرفته، فأحس بحركة السارق، ولم يكن منه إلّا أن جمع، ما في غرفة نومه من الأثاث، ولحق بالسارق عند خروجه إلى أن وصل إلى دار السارق فدخلها على أثره، فالتفت إليه السارق، وقال له: ما الذي تفعل هنا يا شيخ؟ قال: أوَ لَمْ ننتقل إلى هذه الدار؟



٢٤

كلّ من يلد يموت

استعار من أحد جيرانه دستاً ثم أعاده إليه، بعد أيام، وفي وسطه قدر (طنجرة) فاستغرب جاره وجود القدر، وسط الدست، فسأله: وما هذا؟ فأجابه جحا بأن الدست قد ولّد، فانسرّ الجار، وأخذ الدست والقدر، ثم عاد جحا بعد أيام، فاستعار الدست مرة ثانية، فأبقاها عنده مدة طويلة دون أن يعيده إلى صاحبه، فجاء الرجل إلى جحا يطالبه بدسته، فأجابه جحا: العوض بسلامتكم إن الدست قد مات، رحمه اللّه. فحار الرجل في أمره، وقال له بحنق: ومتى كانت الدسوت تحيا وتموت؟ فأجابه جحا: ولكن كيف تصدق، أن الدست يلد، ولا تصدق أنه يموت؟



٢٥

الحريقة في جوف جحا

كان جحا جائعاً فطلب طعاماً فجاؤوه بحساء (شوربا) ساخن، فلم يصبر عليه، حتى تهمد حرارته بل تناول الملعقة الأولى، بسرعة، ولهف، فاحترق فمه، وأحس كأن النار تلتهب بين معدته وفمه، فقام هائماً على وجهه، يهرول في الأسواق، وينادي: لا تقربوا فإن في جوفي حريقة.



٢٦

إن فاتك البط فعليك بمرقه

رأى يوماً سرباً من البط، قريباً من شاطىء بحيرة، فحاول أن يلتقط من هذه الطيور شيئاً، فلم يستطع، لأنها أسرعت بالفرار من أمامه. وكان معه قطعة خبز، فراح يغمسها بالماء، ويأكلها، فمرّ به أحدهم، وقال له: هنيئاً لك ما تأكل فما هذا؟ قال: هو حساء البط، فإذا فاتك البط فاستفد من مرقه.



٢٧

الدقيق المنشور على الحبل

طلب إليه جاره أن يعيره حبلاً، فدخل إلى داره، ثم عاد فقال له: إن الحبل مشغول، لأن أهل البيت، نشروا عليه دقيقاً. فقال الرجل: وهل يُنشر الدقيق على الحبل؟

فأجابه جحا: سبحانَ اللّهِ إذا كنت لا أريد إعارة الحبل أقول: نُشِرَ عليه الدقيقُ.



٢٨

ظننت أنك أنا

اجتمع يوماً بشخص، لم تسبق له به معرفة، فأخذ يُحادِثُهُ جحا، كأنهما صديقان قديمان. ولما همَّ الرجل بالانصراف سأله جحا: عفواً يا سيِّدي إني لم أعرف حضرتك، فمن أنت؟ قال الرجل: وكيف تُحدِّثُني بدون تكلُّفٍ كأنَّ بيننا معرفةً سابقةً؟ قال الشيخ: أُعذرْني فقد رأيت عِمامَتَك كَعِمامتي وقُفطانَك[1] كقُفطاني. فخُيِّلَ لي أنك أنا.

☆ ☆ ☆

---

(١) قفطانك: ثوبك، ضرب من اللباس.

٢٩

نفد رمانك فامش

أشكلت بعض المسائل العلمية، على أحد الطلاب، فسأل عنها بعض العارفين، فقال له: إن الشخص الوحيد، الذي يُمكِنُه الجوابُ على أسئلتِك هذه، إنما هو الشيخ نصر الدين الموجود في مدينة آقَ شَهْرْ.

فقصد الطالب هذه المدينة، ولما اقترب منها، وجد في مزرعة، شيخاً مُعمَّماً. وعليه جبةٌ يحرثُ الأرض، فأتى إليه، يحادثه دون أن يعرف، أنه شيخه المقصود، ولما رأى في حديث الشيخ، ما يدلّ على فضل وأدب، أخذ يسأله عمَّا كان أشكل عليه، فنظر جحا إلى منديل فيه رمان، كان يحمله الطالب، وقال: أعطني رمانة عن كل سؤال حتى أجيبك.

وهٰكذا جعل الطالب يسأل، وجحا يأخذ الرمان، ويجيب حتى أتى على جميع ما في المِنديل، فقال الطالب: بقيَ لي سؤال واحد. قال الشيخ: لقد نفد رمانُك فَآمشِ. ثم عاد إلى حرث أرضه. فقال الطالب: إذا كان فلاحو هذا البلد، على هذه المقدرة، فكيف يكون علماؤها؟ وعاد من حيث أتى.





الديك لا يعرف الطريق

وضع دجاجاً له في قفص، وسار بها من مدينة، إلى مدينة أخرى، لِيبيعَها، وبينما هو في الطريق، وقد ثَقُلَ عليه حملُ القفص، قال في نفسه: تكاد هذه الحيوانات تموت من الحرّ والجصر فوق بعضها، فما لي لا أطلق سراحها وأدعها تسير إلى المحل المقصود، وهٰكذا فتح باب القفص وأخلى سبيل الدجاج، فطارت كل واحدة إلى جهة، وتفرقت هنا وهناك، فحمل عصاه، ولحق بالديك يُطارِدُهُ ويقول له: قاتلَك اللّهُ إنَّك تعرف وقت الصبحِ من منتصفِ الليل، ولا تعرف طريقَك وقتَ الظهر!

☆☆☆



٣١

البغال في الآخرة

كان يتمشّى يوماً في مقبرة فزلّتْ رِجلُهُ في قبر قديم، فوقع، ولما كان في داخل القبر، خطر له أن يجرِّبَ فيما إذا كان يأتيه الملكان، منكر ونكير، لو صادفاه في القبر أم لا. ولم يمضِ عليه إلّا برهةٌ حتى سمع قرقعةَ أجراسٍ وضوضاءَ شديدةً، تقتربُ من القبر الذي هو فيه، فظن أن القيامة قد قامت، فخرج من القبر يُريدُ الفرار، ولكن البغالَ التي هي سبب هذه الجلبة[1] الكبيرة، كانت قدِ اقتربت منه، ولما رأتْهُ عارياً مهرولاً، أجفلت وتضاربت ببعضها، فتكسرَتْ أحمالها الزجاجية الثمينة، فهجم عليه أصحابها، مستغربين هيئته، وحالته وقالوا له: من أنت وما تفعل هنا؟

قال: أنا من أهل الآخرة، أَتيْتُ لِأَتفرَّجَ على الدنيا. قالوا: قِفْ إذاً لِنُريَك كيف تكونُ النزهة. ثم حملوا عليه ضَرْباً ولَكْماً حتى شَجُّوا رأسه وأدْمَوْا وجهَهُ وجسمه، وتركوه على هذه الحالة، لا يعي من الدنيا على رأي. ولما عاد إليهِ صوابُهُ[2] في منتصف اللَّيل، قام يجرُّ نفسه إلى بيته، فقالت له امرأته: من أين أنت آتٍ في هذه الساعة؟ وعلى هذه الحالة؟ قال: إني وقعت في قبر، واجتمعت بالأموات. قالت: وماذا رأيت هناك؟ قال: لا شيء في الآخرة إذا لم تخفْ منك البِغالُ.

☆☆☆



٣٢

لا دجاج بلا ديك

دعاه يوماً بعض شبان مدينة (آقَ شَهْرْ) إلى الحمّام، واتَّفقوا على أن يأخذَ كل واحد منهم معه بيضة، حتى إذا خلعوا ثيابهم، ودخلوا عُراةً، وجحا معهم، قالوا لبعضهم: تعالَوْا نبيض كل واحد منّا بيضة ومن لا يبيض يدفع أجرة الحمّام، فجلسوا بأجمعهم وصاروا يقلّدون صوت الدجاجة عندما تبيض وما هي إلا برهة حتى رفع كل منهم بيده بيضة.

---

(١) الجلبة: الضجة.

(٢) صوابه: رشده.

فلما رآهم جحا على هذه الحالة، وأدرك ما دَبَّروهُ له من المكيدةِ، قام بينهم يصيح كما يصيح الديك، فقال الشبان: وماذا تفعل؟ قال: أنا ديككم، وهل رأيتم عمركم دجاجاً بلا ديك؟

☆☆☆

٣٣

الأكراد يجهلون التركية

أُرسِل يوماً إلى أحد الأكراد مندوباً، فاحتفل به أهل البلد، احتفالاً عظيماً، وكانت هيئته الخارجية تدل على جلال ووقار وهيبة، وكان يصحبه تلميذ له. فأقاموا له وليمة عظيمة، وكان الطعام الذي قُدِّمَ إليه مما يُهيِّجُ ٱلغازاتِ ٱلداخليةَ، فأفلت منه من حيث لا يُريدُ صوتٌ رنَّتْ له جوانبُ ٱلغرفةِ، فَصَمَتَ ٱلحاضرون خَجَلاً منه.

أما هو فلم يبالِ بشيء، ولما عاد إلى منزلِهِ تقدَّمَ إليه تلميذه، وقال بحياء: إن ما أفلته سيدي في تلك الجلسة المَهيبة لم يكن لائِقاً بأدبِهِ وفضلِه. قال: ويحك من أبلَه أَوَ لا تعلم أن القوم أكرادٌ وأني أفلَتُّ باللغة التركية التي لا يفهمونها.



٣٤

القمر في بلادنا

ذهب يوماً إلى مدينة «سيوري حصار» فرأى الناس تتجمَّعُ في محلٍ عالٍ لرؤية الهلال في أول شهر الصوم، فأنشأ يهزأُ بهم، ويقول لهم: عَجَباً يا أهلَ هذا البلد، إن أهالي بلدتي يرون القمر كدولاب العربة ولا يعبأون به وأنتم تُضيِّعون أوقاتكم في البحث عن الهلال، وهو أرق من الخيط.



٣٥

كلي يا فروتي

دُعِي يوماً إلى وليمة، فذهب إلى الدعوة بثياب خَلَقَةٍ[١] فلم يحسن أصحاب

(١) ثياب خلقة: ثيابٍ قديمة ممزّقة.

الدعوة استقباله، ولم يُعِيرُوهُ ٱلتفاتاً[1] فٱنسحب حالاً من بين المدعوين، وأسرع إلى داره، ولبس أحسن ثيابه، وزاد عليها فروة جميلة، ثم عاد إلى بيت الدعوة. فلما رَأَوْهُ على هٰذه الحالة، قاموا له وقوفاً، واستقبلوه بالتبجيل، والتعظيم، وأَعْطَوْهُ صدر المائدة، ثم راحوا يُقدِّمون له أحسن الأطعمة، وأنفسَها. فلم يكن منه إلا أن أخذ بفروتِهِ، وقال لها: كُلِي يا صاحبةَ ٱلفخرِ وَٱلقَدْر. قالوا: وماذا تصنع أيُها الأستاذُ؟ قال: إنَّ فروتي تعرِفُ ما لا تعرفون، وهي أولى مني بالطعامِ، لأن كل الإكرام موجَّهٌ إليها.

☆☆☆

٣٦

يا ليت كل يوم عيد

ذهب في إحدى سني القحط[2] إلى قرية فرأى الأهالي في بحبوحة من العيش والرفاهية يقدمون له أفخر الحلوى، وأطيب المأكول، فقال: ما بالُ أهل هذه القرية في سَعةٍ من العيش؟ وسكان بلدي يتضوّرون[3] جوعاً؟

فأجابه أحد السامعين: ألا تعلمُ أننا في يوم عيد، وأن كل إنسان يُعِدُّ لهذا اليوم المبارك من الطعام والحلوى ما لا يحلم به في بقية أيام السنة. ففكّر جحا قليلاً، وقال: يا ليت كلَّ يوم عيدٌ حتى تخلُصَ بلدُنا من هذا الضيق.

☆☆☆

٣٧

الحمل بين البنات والبقر

ذهب يوماً إلى السوق، يريد بيع بقرة له، فلم يتقدَّمْ لِشرائها أحدٌ، فرآه أحد أصحابه وسأله: ألم تَبِعْ إلى الآن بقرتَك؟ قال: لا، لِأنِّي ما زلت أسحبها من الصباح إلى الآنَ، وقد وصفتها بأجمل الصفات، فلم أجِدْ لها راغِباً. قال صديقه: هاتِ بقرتَك وألحقني فأخذَها هذا، ودارَ بينَ الناس يقول: بقرة حامل في شهرِها

(١) فلم يعيروه التفاتاً: لم يهتموا لأمره، ولم يلتفتوا لشأنه.

(٢) القحط: الجدب والجفاف.

(٣) يتضوّرون جوعاً: يتألّمون من قلّة الطعام.

السادس، فاْجتمعَتْ عليها الزبائنُ وَاْشتراها أحدُهم بزيادة عن السعر، الذي كان يأملُهُ جحا، فشكر شيخُنا صديقَه وحملَ دراهمه، وعاد إلى بيته مسروراً.

ولم تمضِ أيامٌ قليلة حتى جاءَهُ بعض الخاطبات يخطُبْنَ اْبنتَهُ فطلبَتْ إليهِ اْمرأتُهُ أنْ يتغيَّبَ قليلاً حتى تستقبلَ السيداتِ وتُريهُنَّ اْبنتهَا وتعدِّدَ لَهُنَّ محاسنَها فلعلَّها تروقُ لَدَيهِنَّ فيخطبونها فقال: إيَّاك أنْ تفتحي فاكِ بكلمةٍ، فقد عرفْتُ طريقةً جديدةً لِتُصَرِّفَ الكاسدَ، ولسوف أُطبِّقُها على إبنتِنا فتُزوَّجُ ويتهافَتُ عليها الخاطِبون. قالَتْ في نفسِها لعلَّ الشيخ تعلَّم شيئاً جديداً حسناً.

وبعد أنِ اْستقبلَتِ اْلخاطِباتِ بالإكرامِ وجاءَتِ اْبنتُها تحتفي بهنَّ وتُقبِّلُ أَيديهِنَّ قالَتْ لَهُنَّ: إنِّي أرغب إلى زائراتي الكريماتِ أَنْ يتستَّرْنَ قليلاً، فإنَّ لوالدِ الفتاةِ كلماتٍ يُريدُ أن يقولَها بنفسِه، لكُنَّ؛ ثم أُذِنَ للشيخ أَنْ يدخلَ، فدخل وقال: أيَّتُها السيداتُ لم يكنِ الإكثارُ مِنَ الكلام لِيُفيدَ شيئاً في هذا السبيل، إنِّي أختصرُ لكنَّ صِفاتِ اْبنتي ببضعِ كلماتٍ: إنها فتاة أصيلة حامِلٌ في شهرِها اْلسادسِ وكفى. فنظرتِ الخاطباتُ إلى بعضِهِنَّ خِلْسةً[1] واْنصرفْنَ من البيتِ مُسرعاتٍ دون أدنى جواب.



٣٨

ماذا يعنيك أنت؟

أتاهُ رجل في السوق، وقال له: أُبشِّرُك بمولود ذكر. قال: إذا وُلِدَ لي مولودٌ ذكر، فإنِّي أَحمدُ اللَّه، ولكنْ ماذا يعنيك أنت؟



٣٩

لم يرضَ الحمار

جاءَهُ رجلٌ يطلُبُ إليهِ إعارتَهُ حمارَهُ فقال: إنِّي ذاهب لِلْحمارِ أستشيرُهُ[2]

---

(١) خلسة: سِرّاً.

(٢) أستشيره: آخذ رأيه في أمر ما.

فعساهُ يقبل. ثم دخل إلى الاصطبل[١]، وعاد فقال لجاره: استشرْتُ الحمار فلم يرض لأنَّهُ يزعمُ أنك سوف تضربه، ضرباً مبرحاً[٢]، وتشتمُهُ هو وصاحبه.

☆☆☆

٤٠

تأثير النشادر في الحيوان والإنسان

كان حمارُهُ لا يصعدُ الجبل إلّا بصعوبةٍ، رغماً عن كل ضرباتِ ٱلعصا، فٱستشارَ أحد أصحابِهِ، في دواء هذا الحمار الكسول، فأشار عليه أَنْ يضعَ قليلاً مِنَ النشادرِ في أسفل الحمار، فما أسرعَ ما علم جحا بهذه النصيحة، فأخذ الحمارُ ينهبُ الأرضَ[٣] نَهْباً حتى لا يكادُ صاحبُهُ يلحق به.

ولمَّا دخل إلى محل الاحتطاب، واحتطب، وأراد العودة إلى داره، أحسَّ بتعب شديد، فتذكر دواءَ الحمار، وأخذ منه كميةً وافرةً وفعلَ بنفسِه ما كانَ فعلَ بحمارِهِ فكادَ أسفلُهُ يلتهِبُ، وراح راكضاً كالمجنون إلى بيته سابقاً الحمار بمسافة طويلة، فلما رأتْهُ امرأته على هذه الحالة وكان يركض حول الدار لا يقِرُّ له قرارٌ قالَتْ له: وَيْلاهُ وماذا أصابك؟ قال: لا شيءَ ولكنَّكِ إذا أردْتِ ٱللحاقَ بي فضعي في أسفلِكِ شيئاً من النشادر.

☆☆☆

٤١

لو كنت حياً لأريتكم

سأل ٱمرأتَهُ يوماً: ما الفرقُ بين الميتِ والحيِّ؟ قالت: إذا ماتَ المرءُ بردَتْ يداهُ ورجلاه.. فخرج يوماً إلى الجبلِ يحتطِبُ في فصل الشتاءِ فشعرَ ببردٍ في يديهِ ورِجليهِ وخطرَ على باله، ما قالت له امرأته فقال: لقد مِتُّ.

ثمَّ ٱستلقى على ظهرِهِ تحتَ شجرةٍ وترك حمارَهُ سارِحاً في الفلاةِ[٤] فأتتِ

(١) الإصطبل: الحظيرة وبيت كل من الحصان والحمار.
(٢) ضرباً مبرحاً: ضرباً عنيفاً شديداً.
(٣) ينهب الأرض نهباً: يقطع المسافات الشاسعة بسرعة رهيبة.
(٤) الفلاة: الخلاء.

الذئابُ وفتكت بالحمار، وهو يرى ويسمع، ولم يكُنْ منه إلَّا أنه رفع رأسه قليلاً، وقال للذئاب: ويحكم أيُّها الجبناءُ أتفتكون بحمار مات صاحبه؟ ولا مَن يدافع عنه؟ لو كُنتُ حيّاً لأريْتُكم.

☆ ☆ ☆

٤٢

تصدق الحمار ولا تصدق هذه اللحية

طلبَ منه جارُهُ أن يُعِيرهُ حمارَه فقال: إنَّ الحمارَ في السوق. وما كاد يُتِمُّ جحا هذه العبارة، حتى بدأ الحمار، ينهق بصوت منكر من داخل الاصطبل، فقال جارُه: يا شيخُ هذا الحمار يملأ الدنيا نهيقاً، وأنت لا تعترِفُ بوجودِه. فهزّ جحا رأسَه وقال: ما أغربَك من رجل تُصدِّقُ الحمارَ ولا تُصدِّقُ هذه اللحية الشائبة؟!



٤٣

الذنب موجود

احتاجَ إلى دراهم فأرادَ بيعَ حمارِهِ في السوق، ولَمَّا كانَ في الطريق رأى ذنب الحمارِ ملوَّثاً فٱستقبحَ هٰذا ٱلمنظرَ، ولم يكن منه إلَّا أن أخذَ سكيناً وقطع الذنب، ووضعه في الخرج. ولما دخل السوق ٱجتمعَ عليه المُشترون، ولكنهم أحجموا[1] عنِ ٱلشراءِ لمَّا رَأَوْا ما في الحمار من عيبٍ فقال لهم: فلْنتفِقْ أولاً على السعر، والذنبُ موجود في محل قريب.



٤٤

مكافأة الضفادع

كان عائداً من مكان راكباً حماره، فوصل في طريقه إلى بحيرة وكان الحمار قد عطش عطشاً، لا مزيد عليه، فركض نحو البحيرة، يريد إرواء ظمإِه، ولكن

(١) احجموا، توقفوا وامتنعوا.

الجهة التي داسَها الحمار في إسراعه كانت مستنقعة زلِقَتْ فيها رِجلاه ويداهُ، وكاد يرمي صاحبه في البحيرة.

وبينما كان جحا وحماره في هذا الموقف الخطر، إذا بالضفادع تنق نقيقاً شديداً، فجفل الحمار، ورجع إلى الوراء خائفاً وجلاً[١]، وكانت هذه الصدفة الغريبة سبباً لنجاة الحمار وصاحبه، فسرّ جحا من الضفادع سروراً، لا مزيد عليه، فخطر على باله أن يكافئها فمدّ يده إلى جيبه، وأخرج قبضة من الدراهم، فرماها في البحيرة، وقال يخاطب الضفادع: إليكُنَّ هذه الدراهم فاشترِينَ بها حلوى، وكُلْنَها هنيئاً مريئاً.



٤٥

تفضل أيها البطل

كان يوماً ماراً في مقبرة فرأى كَلْباً يبوِّلُ على أحد القبور، فأخذ عصاه وهجمَ عليهِ يُريدُ ضربَهُ فكَشَّرَ الكلبُ عن أنيابِهِ، وأخذ ينبحُ ويهجمُ على الشيخ، كأنه الذئب الكاسر. فخاف جحا وتقهقر إلى الوراء[٢]، وقال يخاطب الكلب: تفضل أيها البطل الشجاع.



٤٦

من يعطي الكثير لا يبخل بالقليل

كان من عادة الشيخ أن يدعوَ اللَّهَ في وقت السحَر، ويطلب إليه أن يُعطِيَهُ ألفاً ذهباً، وأنه لا يقبلها إذا كانت تسعمائة وتسعاً وتسعين، وكان له جار يهودي، يسمع في كلِّ يوم هذا الدُّعاءَ، فأراد أن يجرِّبَ جحا، فأخذ ٩٩٩ ذهباً فوضعها في كيس ولما جاء وقتُ السَحَر، وسمع جحا يدعو حسب العادة، رمى إليه بالكيس من المدخنة، وراح ينظر، ما يفعله الشيخ.

فما كان من هذا إلا أَنْ حَمِدَ اللَّه، وشكره على تلبيةِ دعائِهِ، وحمل الكيسَ

(١) وجلاً: خائفاً.

(٢) تقهقر إلى الوراء: رجع إلى الوراء.

بِكُلِّ خشوعٍ ووقارٍ وبدأ يعدُّ ما فيه فوجدَهُ مطلوبَهُ إلا ذهباً واحداً فلم يبالِ بالنقص، وقال: إن الذي أنزل عليّ ٩٩٩ ذهباً لا يبخل عليّ بذهبٍ واحد. ثم أخذ الكيس وخبَّأَهُ فلما رأى اليهوديُّ هذه الحالة، أسرع إلى دار جحا ضاحِكاً وقال له: رُدَّ لي ذهبي، فقد أردْتُ تجربَتَك ومُداعَبَتَك، لأعرف صدقَ ما تدَّعيهِ في طلبِكَ إلى اللَّه. فقال جحا مستغرباً: أيَّ دراهِمَ تُريدُ مني؟ فهل سبق لك أَنْ أعرْتني شيئاً؟ قال اليهوديُّ: يا سيِّدي الشيخَ إنَّ الدراهم هي غيرُ مطلوبِك، وإنَّها دراهمي أَلقَيْتُ بها إليك مِنَ المدخنة. قال: إنَّك ولا ريبَ مجنونٌ وهذه قصة لا يُصَدِّقُها أحدٌ فهل سمعت في زمانك أنَّ يهودياً يُخاطِرُ بمثلِ هذه الدراهم؟ ويرمي بها من المِدخنة؟ فإنَّ ما نزل عليّ هو جوابُ دُعائي من خزائنِ اللَّه الواسعة. ودام الجِدال بينهما على هذه الحالةِ وجحا لا يتزحزحُ عَنْ قولِه، ولما رأى اليهوديُّ إصرارَ الشيخ على قولِهِ ودعواهُ، عَلِمَ أنه لا يُمْكِنُ حسمُ هذا الخلافِ إلا في المحكمة، فقال له هيّا بنا إلى القاضي. قال جحا: كما تُريدُ ولكنني رجل شيخ لا أستطيعُ الذهابَ إلى دائرة القاضي لأنها بعيدةٌ والطقسُ بارِدٌ، وليس عندي مِنَ الثيابِ ما يردُّ عني شدَّةَ البرد. قال: أنا آتيك ببغلةٍ وفروة. وهكذا سار اليهوديُّ على رجليهِ وركب جحا الدابة وارتدى الفروة، وذهبا إلى المحكمة فدخلا على القاضي.

فبدأ اليهوديُّ بقصتِهِ ودعواه، ولمَّا انتهى، قال القاضي للشيخ: وأنت ماذا تقول؟ قال جحا: سَلْهُ عمَّا إذا كان أعطاني دِرْهماً بيدي يوماً من الأيام، وقد أقام عليّ هذه الدعوة، لأنَّه سمعني أعدُّ الدراهم، والحقيقةُ أني طلبْتُ إلى اللَّه ذهباً، وهو سبحانَه كريمٌ قادرٌ على إعطائي الكثير والقليل، وأما هذا اليهوديُّ الذي يدَّعي عليَّ بالباطل، فقد عُرِفَ عنه لو رأى شخصاً، يموتُ جوعاً، لَمَا جادَ عليه بقطعةٍ من الخبز، فكيف تُصَدِّقُ أنَّهُ يُعطيني هذه القيمةَ الكبيرة إنَّما هو يُريدُ أن يَمْكُرَ عليَّ، ويأخذَ مني مالي ولوِ استطاعَ أَنْ يَدَّعِيَ عليَّ ببغلتي الموجودة في الخارج لما تأخَّرَ. فَدُهِشَ اليهوديُّ من هذه القصةِ الجديدةِ فخافَ أنْ تلحقَ البغلةُ بالدراهِم. فقال أوَ تُنْكِرُ عليَّ بغلتي أيضاً، وقد أتيْتُكَ بها لِتركَبَها، لأنك ادَّعَيْتَ أنَّكَ شيخٌ عجوزٌ لا تَستطِيعُ المجيءَ إلى المحكمة ماشياً على قدميك. قال جحا: أنصفْ يا سيِّدي القاضي واسمعَ هذه الدعوى الباطلة فإنِّي لستُ آمناً بعدَ اليومِ على كُلِّ ما تملِكُهُ يداي، وحتى على ما أرتديه من ملابسَ، ولعلَّهُ يقول: إنَ هذه الفروةَ التي ألبسها له أيضاً. فارتبَكَ اليهوديُّ، وقال: أوَ لَيْسَتْ هذه الفروةُ فروتي أيضاً؟

فنهض عندئذٍ القاضي، ووضع حدّاً لهذا الجدال بين الخصمين، وقال

لليهودي: أخرُجْ من هنا لقد ظهرَ لي بطلانُ دعوتِك، وفهِمْتُ حِيَلَكَ وأكاذيبكَ إذهبْ فإنَّك تُريدُ سَلْبَ[1] هذا الشيخ المسكين.

فخرج اليهوديُّ باكِياً شاكِياً، ثم ركب جحا البغلةَ، وعاد إلى دارِهِ مطمئِناً، فلما وصلَها أرسل يطلبُ جارَهُ اليهوديَّ فجاءَهُ هذا باكِياً مستغيثاً، فدفع إليه جحا دراهِمَهُ بتمامِها وقال له: إيَّاكَ بعد اليوم أن تتدخَّلَ بين الخالقِ والمخلوقِ، وأنْ تُزعِجَ عِبادَ اللَّهِ تعالى. فكان هذا الدرسُ العمليُّ أعظمَ واعظٍ لصاحِبنا اليهوديِّ لأنَّهُ كانَ يظُنُّ جحا مغفلاً، وما كان ينتظِرُ منه هٰذه الأريحية الغريبة بعدَ ذلك العذابِ الطويل فتابَ على يدي الشيخ وطلَبَ إليه أنْ يُهدِيَهُ إلى الإسلام وهكذا أسلمَ اليهوديُّ على يدي الأستاذ.

☆☆☆



٤٧

العالم في حمار جحا

كان ثلاثة من الرهبان يسيحون في أطراف البلاد ويتباحثون مع عُلماءِ كلِّ بلدةٍ يمرُّون بها. ولمَّا وصلُوا إلى بلاد الروم، أرادوا الاجتماع بمشاهير علمائهم، فأشار بعضهم على السلطان، أَنْ يستدعِيَ جحا لمناقشتِهم، لأنه كان من أهل الظُرف والرِّقة.

فأقام السلطان مأدبَةً[2] في ساحة قصرهِ، ودعا إليها الشيخَ والرهبان. ولما جاءَتِ الدعوةُ إلىٰ جحا امتطى صهوةَ حمارِهِ، وسار إلى المكانِ المعين، ولمَّا أطلعوه على غاية الرهبان، قال: هاتُوا أسئلتكم. فقام الراهب الأول، وقال: أين هو يا سيدي وسط الدنيا؟

فأشار الشيخ بعصاه إلى حيث وضع حمارُهُ يدَهُ اليمنى وقال: إنَّ وسطَ الدنيا هي في المكان الذي وضع فيه الحمارُ يدَهُ اليمنى تماماً.

قال الرهبان: والدليلُ على ذلك. قال: إذا لم تُصَدِّقوا فعليكم بِالكيلِ، فإنْ بدا لكم ما يُخالِفُ قولي من زيادة أو نقصانٍ فكذبوني.

ثم قام الراهب الثاني، وقال: كم عدد النجوم؟ فأجاب جحا فوراً: عدد شعر حماري. قال أحد الرهبان: وكيف تعرف ذلك؟ قال: إذا لم تَكُنْ تصدِّقُ قولي

---

(١) سلب: سرقة.

(٢) مأدبة: وليمة.

فعدَّها فإن كانت أكثرَ واحدةً أو أقلَّ واحدةً فَلَك الحقُّ بِالكلام. قال السائل: وهلْ يعدُّ شعرُ الحمارِ؟ قال جحا: أوَ تُعَدُّ نجومُ السماء؟

ثم قام الثالث، وسأله: كم شعرةً في لِحيتي هٰذه؟ فقال جحا بدون تردد: بقدر ما في ذنبِ حماري مِنَ ٱلشعر. قال الراهب: وكيف تُثْبِتُ ذلك؟ قال: بأن تقلعَ شعرةً من لِحيتِك وأُخرى من ذنبِ ٱلحمارِ فإنِ ٱتَّفَقَ ٱلمجموعانِ كانَ الحقُّ بيدي وإلا فالحقُّ بيدِك. فضحِكَ الرهبانُ من هذه الأجوبةِ اللطيفةِ السريعةِ وفُتِنُوا بِرقةِ جحا ودماثةِ[١] أخلاقه.



٤٨

لولا نصيحة الصديق لقام الشمندر على رأسي

أقام تيمورلنك السفاحُ بعدَ أَنْ وقعَتْ بينَهُ وبين السلطان ييلديرم بايزيدخان وقعة أنقرةَ المشهورةُ مدةً في مدينة آقَ شَهْرَ، وكان لجحا عندَ تيمورلنك مقامٌ وحظوةٌ، ولهذا السبب سَلِمَتِ المدينةُ منَ النهْبِ والسَّلْبِ، وقتلِ الأنفُسِ، وجميع المظالم التي عُرِفَ بها تيمورلنك، حيثما وَطِئَتْ[٢] قدماه.

ومن بعض نوادر الشيخ مع ذلك الظالم، أنه أراد أنْ يُهْدِيَهُ يوماً ثلاثةَ إِجاصاتٍ، في غير أوانِها[٣] فوضعها في صينية، وحملها قاصداً مقر تيمورلنك. ولما كان في طريقه كانت الإجاصاتُ تتدحرج على الصينية، فقال لها الشيخ: اهدإي مكانَكِ وإلَّا أكلْتُكِ. ولكنَّ الإجاصاتِ كانَتْ تُتابِعُ دحرجَتَها على الصينيةِ كلَّما خطا جحا خطوةً، فلم يَكُنْ منه إلَّا أنْ أكلَ ٱثنتينِ انتقاماً، وأبقى على الثالثة التي سُرَّ بها تيمورلنك سروراً عظيماً، وأعطاهُ لِقاءَ ذلك جائزةً كبيرة.

ولم تمضِ أيامٌ حتى قادَهُ ٱلطمعُ بِٱلجائزةِ أنْ يحمِلَ لتيمور سَلَّةَ شمندر (بنجر) وبينما هو في الطريق لاقى صديقاً له فنصحَهُ بأنْ يستبدِلَ الشمندرَ (البنجر) بتين لأنه ألطفُ وأليَق، فراقَتْ هذه الفكرةُ لدى صاحِبنا وأسرعَ إلى السوق فٱشترى سَلَّةً من أجمل أنواعِ التين وقدَّمَهُ إلى تيمور، ولكن الهدية لم تَرُق في عينِ ٱلظالمِ وخُيِّلَ لَهُ

(١) دماثة: لين ورقة أخلاقه.
(٢) وطئت قدماه: داست.
(٣) أوانها: وقت نضجها، وحين قطافها.

أن جحا يهزأُ بِهِ فأمرَ غِلمانَهُ أنْ يُلصِقُوا التينَ على رأسِهِ ضَرْباً وعلى وجهِهِ فصدعوا[١] لأمر سيدهم.

ولكنَّ جحا كان كلما أصابته تينة يقول بصوت خافت: «الحمد للَّه والشكر للَّه على لطفِهِ وإحسانِه» فسمعَهُ تيمور فقال له: وعلام تحمدُ اللَّه، وأنت تتلقَّى هذه الضربات؟ قال: أحمدُهُ على رفقِهِ بي ورحمتِهِ لأني كنْتُ آتياً بسلةٍ مِنَ الشمندرِ (البنجر) ولكن أحد أصدقائي أشارَ عليَّ أن أرجِعَ بِهِ وأقدِّمَ عِوَضاً عنه سلةً من التين فإنَّ هذه الفاكهةَ أنسبُ وأطيبُ ففعلتُ، ولو لم أسمع نصيحة ذلك الصديق لقامَ الشمندر على رأسي مقامَ التينِ فشجَّه[٢]، وعلى عيني ففقأها وعلى أنفي فكسره فكيف لا أحمد اللَّه على هذا التوفيق الغريب.

☆☆☆



الرعب يأتي بالعجائب

طبخ يوماً أُوزةً وحملها لِيهديَها إلى تيمورلنك، ولما كان في الطريق تغلَّبَتْ عليهِ شهوتُهُ فأكلَ منها فَخذاً ولَمَّا رأى السلطان أنها ناقصة قال للشيخ: وأين رجلُها؟ فقال الشيخ: إن جميع أُوز المدينة برجلٍ واحدة (وفي هذا تلميح إلى ما كان عليه تيمور من العرج) وإذا لم تَكُنْ تُصدِّقُني فانظرْ إلى الأوز الموجود على ضفة البحيرة أمامَك، وكان الأوز عندئذ واقفاً في الشمس ورافعاً إحدى رجليه ومخبِّئاً رأسه في صدره كما هي عادته. فرأى السلطان ذلك وتظاهر بالقناعة، ولكنه أصدر أمره خِفيةً إلى الموسيقى السلطانية بأنْ تقترِبَ من البحرية، وتضرِبَ ضَرْباً شديداً، وما هي إلا برهةٌ[٣] حتى صدحتِ الآلاتُ الموسيقية[٤] ودقّتِ الطبولُ فجفل[٥] الأوزُّ من هذه الضوضاءِ[٦] المزعجةِ وأخذ يتراكض يميناً وشمالاً خائفاً مذعوراً.

---

(١) صدعوا: أطاعوا ووافقوا.
(٢) شجّه: فلعه، فشخه.
(٣) برهة: لحظة.
(٤) صدحت الآلات الموسيقية: عزفت ألحانها.
(٥) جفل: ارتعب.
(٦) الضوضاء: الضجّة.

فالتفت تيمور إلى الشيخ وقال له: كيف تكذب عليَّ؟ أما ترى أن الأوز يمشي على رجلين؟ فقال جحا: ولكنك يا مولاي نسيت أن الرعب يأتي بالعجائب، ولو أصابك أنت من الرعب ما أصاب الحيوانات الضعيفة لرحت تمشي على أربع أرجل.

☆☆☆

٥٠

الحكم عن خبرة

تولى القضاءَ، فجاءَهُ يوماً رجلٌ يدَّعي على آخرَ أنَّهُ عضَّهُ في أُذنِهِ، فدافع المُدَّعى عليه قائلاً بأنه هو الذي عَضَّ أُذنَ نفسِه. قال جحا: إصبرا قليلاً حتى أعودَ إليكما فأَحكمَ بينكما. ثم دخل إلى دارِهِ وأخذ يُجَرِّبُ بِأَنْ يعضَّ أُذُنَ نفسِه، ويقرب أُذُنه من فمِه، وبينما هو يشدُّ أذنه وقع على الأرض فشجَّ رأسه[1]، فربط موضِعَ الشجة، وخرج إلى المحكمة.

فتقدم إليه المدَّعي وقال له: أنصفْنا يا مولايَ هل ترى في الإمكان أَنْ يعضَّ الإنسانُ أُذُنَ نفسِه؟ قال جحا: نعم يا ولدي يعضُّ الإنسانُ أُذُنَ نفسِه، ويقع على الأرض فيشجُّ رأسَهُ أيضاً.

☆☆☆

٥١

ذهب اللِّحاف وانتهى الخلاف

سمعَ ذاتَ ليلةٍ ضوضاءَ أمامَ دارِهِ، فأرادَ أنْ يعرفَ سببَها، وكان الليل قدِ ٱنتصفَ، فقالَتْ لَهُ امرأتُه: نَمْ في فِراشِكَ فما يَعنيك مِمَّا يجري خارجاً في هذه الساعة؟ فلم يعبأْ بقولِها بلِ ٱلتفَّ بِلِحافِهِ خشيةَ البردِ ٱلقارسِ وخرج.

وبينما هو يسيرُ بينَ الناس المجتمعين لِيفهَم سبب ٱلضوضاءِ إذا برجلٍ مجهولٍ اغتنمَ فرصةَ ٱلظلام ٱلحالكِ فسحبَ عنه ٱللحافَ وراحَ يعدو هارباً، فالتفتَ الشيخُ عنْ يمينهِ وعن يسارِهِ فلم يرَ من شدّةِ الظلام أحداً، فبينما هو كذلك إذا بالمتجمهرين يتفرَّقون حتى لم يبقَ أحدٌ فأحسَّ ببردٍ شديدٍ وصار يرتجفُ فركض

(١) شجّ رأسه: شدخ.

إلى دارِه، فلاقتْهُ امرأتُه في الباب وسألته عن سببِ ٱلضوضاءِ فقال: ذهب اللحافُ وانتهى الخلاف.

☆ ☆ ☆



في إحدى الليالي المقمرة

خُيِّلَ له، وهو ينظرُ إلى الجنينةِ أنَّ جثةً عظيمةً ملقاةً في أرضها، فأيقظ امرأته، وقال لها: هاتي القوس والنشابَ حالاً، فأحضرتْهما له فأخذَهُما وأحكم النشابَ في القوس ورمى الجثة في بطنِها فأصابَها، فاطمأنَّ بالُهُ وعادَ إلى فراشِه.

ولما أصبَحَ الصباحُ خرجَ إلى الجنينةِ يبحثُ عن الجثةِ فلم يرَ إلا قفطانَهُ وقد خرقَهُ النشابُ في مكانِ السُّرّةِ تماماً فما تمالَكَ أنْ خرَّ ساجِداً لِلَّهِ يشكرُ اللَّهَ على لطفِهِ ونعمِهِ.

فقالَتْ لَهُ امرأته: وما شأنُك؟ وعَلَامَ هذا الحمدُ، ومثلُ هذا الخشوعِ؟ فقال لها: ويحكِ أيَّتُها المرأةُ البلهاءُ ألا ترينَ الضربةَ كيف أصابَتِ السرَّةَ تماماً وخرقَتِ القفطان[1]، ولو كنت لابسَهَ ماذا كان جرى لي؟ ثم انزوى منقبضَ الوجهِ وٱنحنى وأخذَ يُمسِكُ بطنَه بيديه، ويجهرُ بالحمد للَّه تعالى.

☆ ☆ ☆



عندما كنت حياً

خرج يَوْماً لِيختَطِبَ، فصعِدَ شجرة ليقطع غصناً منها فوقف على الجانب الذي يقطعه، فقال له أحدهم: يا رجلُ ماذا تصنع؟ الآن تقع.

فلم يُعِرْهُ أُذُناً صاغيةً[2]. ولما انتهى من قطع الغصن سقط به على الأرض وارتضَّ جسمُهُ[3]، وشجّ رأسه[4]، فتحمل آلامه، وأسرع إلى ذلك الرجل، قائلاً:

---

(١) القفطان: ضرب من اللباس. ثوب.

(٢) فلم يعره أذناً صاغية: لم يستمع إليه.

(٣) ارتضّ جسمه: أصيب بالرضوض.

(٤) شجّ رأسه: شدخ.

يا ولدي، الآن علمت بأنك من أهل الكشف، لأنك أخبرتني أني سأقع، فأخبرني عن زمان موتي، وتعلَّقَ بأذيالِهِ راجياً، ولم يدعْهُ يذهب في سبيله. فلما أعيَتِ الرجل الحيلةُ، ولم يجد سبيلاً للخلاص من هذه الورطة[1] قال له: متى حملت حمارك حطباً، ونهق النهقة الأولى، خرج نصف روحك، فإذا نهق الثانية، خرجت كلها. . واستأنف الرجل السير في طريقه.

وسار جحا بحماره، فمرّ بقافلة فيها حمير، فنهق حماره، فقال جحا: هذه أول سكرات الموت، وبعد قليل نهق الحمار ثانية، فانتفض جحا، وقال: أَيْ واللَّهِ لقد مِتُّ. وانطرحَ على الأرض كالأموات، فمرَّ به بعضُ أهل القرى القريبة، فظنُّوهُ ميتاً فأَحضروا تابوتاً، ووضعوه فيه، وذهبوا إلى البلدة، فاعترضهم في طريقهم، مستنقع عسر المرور، فوقفوا يتشاورون، كيف يجتازون تلك الوحول، من هنا، أم من هناك، وأي الطرق أقرب وأسهل. وبينما هم كذلك أخرج جحا رأسه من التابوت، وقال لهم مشيراً إلى إحدى الجهات: لما كنت حياً كنت أمر من هناك، ومع ذلك فأنتم مخيّرون.

☆☆☆

٥٤

ليته يجد شيئاً

دخل لص إلى دار جحا، فقالت له امرأته بلهفة: ألا ترى اللص يدور في البيت؟

فأجابها الأستاذ بكل تأنٍ: لا تهتمي به فيا لَيْتَهُ يجدُ شيئاً فيهونَ علينا أخذُهُ من يدِه.

☆☆☆

٥٥

أَتُريدُ أَنْ أبعدَ أكثر؟

قالت له امرأتُهُ ذاتَ ليلة: ابتعِدْ عنّي قليلاً فأسرعَ إلى حذائِهِ وأخذَهُ ومشى مسافةَ ساعتين إلى أن لَقِيَ أحدَ معارفِهِ فقال له: إذا صادفْتَ امرأتي، فقلْ لها أَتُريدُ أَنْ أبعدَ أكثرَ مِمَّا بعدْت؟

☆☆☆

---

(١) الورطة: الهلكة.

٥٦

المعلاق والفأس

كان كلَّما يأتي بمعلاقٍ إلى دارِهِ تطبخُهُ امرأتُه وتُطعِمُهُ لِصديقاتِها؛ وعندَ ٱلمساءِ لا تضعُ أمامَهُ إِلَّا الخبز. فقال لها ذاتَ يوم: أيَّتُها المرأةُ إني كلَّمَا أتيْتُ بمعلاقٍ لا يحصلُ لي نصيبٌ من أكلِه، فأين تذهبينَ به؟

فقالت: كلَّمَا طبخْتُ معلاقاً جاء الهرُّ فيأكلُهُ.

وما أتمَّتْ كلامَها حتى قامَ وأخذَ فأْسَهُ المعلَّقَ وخبَّأَهُ في الصندوقِ وقفلَ عليه.

فقالَتْ لَه ٱمرأتُهُ: ومِمَّنْ تخبئ الفأسَ؟ قال: من الهر!

فقالَتْ متعجبةً: وماذا يصنعُ الهِرُّ بالفأس؟ فأجابَها: إنَّ الذي يأخذُ مُعْلاقاً بقرشين ألا يطمعُ بفأْسٍ قيمتُهُ أربعون قرشاً.



٥٧

الغراب أحوج منّا

ذهب وامرأتَهُ لِغسلِ أمتعتِهِما على شاطئِ بحُيرةٍ، فلَّما وصلا ووضعا الأمتعة وجعلا عليها الصابون، انقضّ غرابٌ فٱختطفَ لوح الصابون، وذهب به طائراً في الفضاء. فصاحتِ ٱمرأةُ جحا: قُمْ إلحق، الغراب سرق الصابون. وجعلتْ تُكثِرُ من الصياحِ فأجابَها بكلِّ برودٍ: لماذا تضطربين؟ أليسَتْ ثيابُ الغرابِ أوسخَ من ثيابِنا فهو أحَوجُ مِنَّا إلى الصابون.

☆☆☆

٥٨

ابن أبيه

سأل بعضهم ابناً لجحا: ما هو الباذنجان؟ فقال: هو فرخ الجاموس الذي لم يفتحْ عينيهِ بعدُ، فسمِعَهُ أبوه فقال متعجباً: هو ابن أبيه، فواللّهِ لم يُعَلِّمْهُ ذلك أحدٌ.



٥٩

نصف الرأس

حلق يوماً عند المزين (الحلاق) وأعطاه درهماً، وعاد في الأسبوع الثاني فحلق عنده، ووقف المزين أمامه على العادة لِيقبضَ أجرتَه، فقال له جحا: يا صاحبي أنت تعلم، أني أقرعُ وشعرُ رأسي يُعادِلُ نصف رأسٍ، فهلا تجعل لي الحلاقتين، هذه وتلك بدرهم واحد؟



٦٠

زوِّجُوا مَنْ أَكَلُوا الهريسة

أُقِيمَتْ وليمةُ عرسٍ لجحا فحضرها أصحابه وأهله، وأخذوا يأكلون الطعام المهيَّأ لهم، وكان مِنَ الهريسةِ، وجحا يُحِبُّها كثيراً، لكنهم نَسَوْا أنْ يُنادُوهُ لِيأكلَ معهم، فاْغتاظَ منهم وخرج. وسألوا عنه بعد ساعة، فلم يَجِدوه، فأرسلوا مَنْ يبحثُ عنه، وأخيرا وجدوه عند أحد أقربائه، فأحضروه، وقالوا له: كيف غِبْتَ والليلةَ زفافُك؟

فقال: لا حاجة لي بالزواج، زوِّجُوا مَنْ أكلوا الهريسة.



٦١

البغلة عسراوية

كان مسافراً مَعَ جماعةٍ، ونزلوا للراحةِ في مكان، ثُمَّ أرادوا اْستئنافَ السفر، فطلبَ بغلتَهُ فأُحْضِرَتْ لَهُ، فوضعَ رجلَهُ اليمنى في الركاب وقفز فجاءَ ركوبُهُ مقلوباً، فضحِكَ مَنْ رآه، فقال لهم: أنا لم أركب بالمقلوب ولكنَّ البغلةَ عسراوية.



٦٢

نقطة من عرق حماد

رَأَوْا على ثيابِ جحا نقطة حبر سوداءَ فسألوه عنها فقال: لا أدري، ولكن أتذكر أن تلميذي حمَّاداً الحبشي جاءَني أمسِ عرقاناً فقبّل يدي وأظنُّها نقطةً من عرقه.



٦٣

لا تسموا أولادكم أيوب

طلع على المنبر يوماً وقال: أيُّها المسلمون، لا أُريدُ أَنْ أعِظَكم بشيء.. إيَّاكم أنْ تُسمُّوا أبناءَكم باسم أيوبَ، لأنه بتكراره يصير «إيب»، ـ ومعنى إيب بالتركية حبل.



٦٤

رجلي اليسرى غير متوضئة

توضأَ ذاتَ يوم، وكان الماءُ قليلاً فبقِيَتْ رجلُهُ اليسرى بغيرِ غسل، فلمَّا وقفَ لِلصلاة رفعَها كما يرفَعُ الأوزُّ رجلَه، فقالوا له: ماذا تصنع؟ فقال: رجلي اليسرى غيرُ متوضئة!..



٦٥

كيف أعرف جانبي الأيمن؟

جاءه ضيفٌ ونامَ عندَهُ، فلمَّا كانَ منتصفُ الليلِ أفاقَ الضيفُ ونادى جحا قائلاً: ناولْني يا سيدي الشمعةَ الموضوعةَ على يمينِك.. فاستغربَ جحا طلبَهُ وقال له: أنت مجنون!. كيف أعرفُ جانبي الأيمنَ في هذا الظلامِ الدامس؟



٦٦

برج التيس

سَأَلوهُ يوماً: ما هو طالِعُك؟ فقال: برجُ التيس، قالوا: ليس في علم النجوم برجٌ اسمُهُ برجُ تيس. فقال: لَمَّا كُنتُ طِفلاً فتحَتْ لي والدتي طالعي، فقالوا لها: إنَّهُ في برج الجدي. والآن قد مضى على ذلك أربعون عاماً فلا شَكَّ أنَّ الجدي من ذلك الوقت قد صار الآن تيساً وزيادة!

☆☆☆

٦٧

نادوا غيري يُلَقِّنُهُ[١]

مات حاكم «سيوري حصار» وكانت بينه وبين جحا خصومةٌ فلما أرادوا دفنَهُ طلبوا جحا ورَجَوْا منه أنْ يُلَقِّنَهُ بعد الدفن. فأجابهم: لا، ابحثوا عن رجلٍ غيري يُلَقِّنُهُ فإنَّهُ لا يُصْغِي لِكلامي لِمَا بينَنا مِنَ المشاجرةِ[٢] التي تعرفونها.

☆☆☆

٦٨

على القاضي

أحدثَ[٣] كلبٌ في شارع بين بيتين، فاختلف صاحبا البيتين فيمن يجب عليه أن يرفع الروث، وتنازعا؛ وانتهى أمرهما إلى القاضي فدخلا عليه، وجحا عنده.

فلما حدَّثاه بخبرهما، أراد القاضي أنْ يُداعِبَ جحا، قال له: افصلْ أنت هذه الدعوى بينَهما. . فالتفتَ جحا إلى الرجلينِ بلا تردُّدٍ، وقال: المسألة واضحة، فإن الروث قد وقع في الشارع العام، وليس على أحدكما أنْ يرفعَهُ، وإنما هو على مولانا القاضي.

☆☆☆

(١) يلقنه: يعلمه الشهادتين قبل دفنه.
(٢) المشاجرة: المشاحنة.
(٣) أحدث: راث، تغوّط.

٦٩

البقرة المذنبة

اختطفَ عجلٌ له حزمَةً مِنَ ٱلكلأ (الحشيش) وأخذَ يركضُ بها هنا وهناك، فغضب جحا، وأسرع إلى البقرة، فانهالَ عليها ضَرْباً بِعصاهُ الغليظةِ، فرآهُ جارُهُ فقال له: لماذا تضرِبُها. هل أتَتْ ذنباً؟

فقال: نعمْ، يا سيدي، هي المذنبة لا ابنُها لأنَّها هي التي ربَّتْهُ وعلَّمَتْهُ هذه الأعمال...



٧٠

القمر القديم

كان جحا ماراً ذاتَ يوم بالقربِ من أحد الأوديةِ، فاعترضَهُ راعٍ وسأله: هل أنت فقيهٌ يا سيدي؟ فقال: نَعم. فقال الراعي: انظرْ إلى هذا الواديَ وإلى هؤلاء المطروحين فيه، فإنني قتلْتُهُم جميعاً لِتظاهُرِهِمْ بالعلم ولعِجزهِم عَنْ جوابٍ واحدٍ سألْتُهُمْ إيَّاهُ. فقال: وما سُؤَالُك؟ قال: إنَّ القمرَ حينما يكون هِلالاً نراهُ صغيراً ثم يكبرُ، ويصيرُ بحجمِ الدولابِ، ويعود فيصغرُ إلى أنْ يغِيبَ، ويطلَع غيرُهُ فماذا يصنعون بِالقديمِ؟

فتنحنَحَ جحا وقال: أَسَفاً على هؤلاء الجهلاء أما فيهم مَنْ كانَ يعرِفُ أَنَّ الأقمارَ القديمةَ تُخَبَّأُ للشتاءِ، ثُمَّ يُعْمَلُ منها البرق.. فٱنطرحَ ٱلراعي على يدي ٱلشيخ يقبّلُهُما ويقول: واللّهِ هٰذا الذي كانَ يخطرُ لي.



٧١

مرق مرق الأرنب

أهداهُ فلاحٌ أرنباً فأكرمَهُ جحا كثيراً إلى أنِ ٱنصرفَ وعادَ في الأسبوعِ الثاني فلم يعرفهُ جحا فسألَهُ مَنْ حضرتُهُ. فقال: أنا يا سيدي الذي أحضرْتُ الأرنَبَ منذُ أسبوعٍ فأحسنَ مقابلتَهُ.

وبعَد بضعةِ أيامٍ جاءَهُ أربعةٌ مِنَ ٱلفلاحين فسألهم مَنْ أنتم؟ فقالوا: نحن جيران صاحبِ الأرنبِ. فرحَّبَ بهم وأكرمَهُم. وبعدَ أُسبوعٍ جاءَهُ عددٌ آخرُ مِنَ ٱلفلاحينَ وأخبروه أنهم جيرانُ جيرانِ صاحبِ الأرنبِ، فنهضَ الشيخُ في الحالِ وأحضرَ لهم ماعوناً فيه ماءٌ ساخن. وقال: تفضَّلُوا فلمَّا أرادوا أنْ يأكلُوا ٱستغربوا ما وجدوا فقالوا: ما هذا يا سيدنا الشيخ؟ فقال: هذا مرقُ مرقِ الأَرنبِ يا جيرانَ جيرانِ صاحبهِ!

☆☆☆



ولماذا أنزلتني أنت؟

كان في الغرفة العُلْيا من منزلِه، فطُرِقَ بابُهُ، فَأطَلَّ من النافذة فرأى رجلاً، فقال: ماذا تريد؟ قال: انزِلْ إلى تحت لِأُكلِّمَكَ. فنزلَ، فقال الرجل: أنا فقير الحال أُريدُ حسنةً يا سيدي.

فٱغتاظ[1] جحا منه ولكنه كَظَمَ غيظَهُ[2] وقال له: اتبعْني. وصَعِدَ إلى أعلى البيت، والرجل يتبعُه، فلمَّا وصلَ إلى الطابقِ العُلْوي التفَتَ إِلى ٱلسائل وقال له: اللّه يعطيك!

فأجابَهُ الفقير: ولِماذا لم تقلْ لي ذلك ونحنُ تحت؟

فقال: وأنت لِماذا أنزلْتني ولم تقلْ لي وأنا فوق؟





أعطني جبتي وخذ بردعتك

نزل يوماً عن حماره لقضاء حاجة في مكان خال، ووضع جُبَّتَهُ على ظهر الحمار. فمرّ به سارقٌ فسرقَ ٱلجبَّة. وعادَ جحا فلما لم يجدِ ٱلجبّة أهوى بعصاهُ على الحمار وجعل يضربه ويسأله أَين الجبَّة؟

---

(١) اغتاظ: استشاط غضباً.

(٢) كظم غيظه: تمالك نفسه.

وأخيراً أعيَتْهُ الحيلةُ لِأَنَّ الحمارَ لم يُخبرْهُ، فأخذ بردَعَتهُ ووضعَها على ظهرِهِ وجرَّه قائلاً: أعطني جُبَّتي لِأعطيَك بردعتَك.

☆☆☆

٧٤

طريق في الشجرة

كان مع جماعةٍ مِنَ ٱلشبَّانِ في نزهةٍ فاتَّفقوا فيما بينهم على أنْ يسرِقوا حذاءَهُ فقالوا: مَن يقدرُ على صعودِ هذه الشجرة؟ فقال جحا: أنا أصعدُها. فقالوا: لا تقدر. فَٱغتاظَ منهم وجمع أطراف ثيابِهِ وخلعَ حذاءَهُ ثم وضعَهُ في عُبِّهِ جيداً، وقال: انظروا كيف أصعد. فسألوه: لماذا تجعلُ حِذاءَكَ في عُبِّكَ وأيِّ حاجةٍ إليه في ٱلشجرة؟

فقال: مِنْ أينَ تعرفون يا أولادي؟ فربَّما أجِدُ طريقاً في الشجرةِ إلى البيت فَأذهبَ منه.

☆☆☆

٧٥

كان يسابق الطير

دعاه تيمور لنك لركوب دابته، والدخول في ميدان السباق، ولعب الجريد، فذهب إلى الاصطبل، وركب ثوراً هرماً، وجاءَ به، فلما رآه الناس ضَحِكُوا وضجُّوا.

فسأله تيمور لنك: كيف تدخل ميدان السباق، وأنت راكب الثور؟ فأجابه الشيخ: إنني جرَّبْتُ هذا الثورَ منذُ عشر سنوات فكان يُسابِقُ ٱلطيرَ في ركضِهِ فكيف يكون الآن؟

☆☆☆

٧٦

ركوبي مقلوباً أَولَى

ذهبَ لإِلقاءِ الدرسِ في الجامع، ومعَه مُريدُوهُ وتلاميذُهُ فركِبَ حمارَه مقلوباً. فتعجَّبوا منه، وقالَ له أحدُهم: لماذا تركب هٰكذا يا سيدي؟

فقال: وماذا أصنع؟ إنني إذا ركبت مستقيماً تَبْقُونَ خلْفَ ظهري، وإذا مَشَيْتُم أمامي أبقى خلفَكم، فركوبي مقلوباً أَولَى.

☆☆☆



صعود البقر لم يخطرْ ببالي

أراد جحا تخبِئَةَ نقودٍ كانَتْ معَه فحفر حفرةً في دائرةٍ، ودفنها، ورجعَ قليلاً فتأمَّلَ بها فلم يُعْجِبْهُ مكانُها، فأخرجَها ووضعَها في مكانٍ آخرَ، ثمَّ خطرَ لَهُ أنَّ هذه المواضِعَ كُلَّهَا خطرةٌ وأطلَّ من نافذةِ بيتِهِ فرأى تلةً عاليةً فأسرعَ بِٱلنزولِ إلى بستانه، وقطعَ عموداً من شجرةٍ وجعل الدراهم في صرةٍ وربطَها في رأس العمودِ وحملَهُ إلى أعلى التل فغرسَه في قمتِها ونزل، فنظر إلى الصرّة وأعجبه مكانُها وقال: لو كان الإنسان طائراً لَمَا أمكنه الصعودُ إلى رأس هذا العمود. وذهب إلى بيته مرتاحَ النفس مطمئنَ البال.

وكان قريباً منه لصٌّ يُراقِبُهُ فلمَّا ٱنصرفَ الشيخُ جاءَ اللصُّ وٱقتلعَ ٱلعمودَ وأخذَ الدراهم، وأعاده بعدَ أنْ لَطَّخَهُ بروث البقر.

وعاد الشيخُ يُرِيدُ بعضَ ٱلدراهم فلم يجدِ الصرّة ورأى روث البقر، فتأمَّلَ طويلاً وقال: سبحانَ اللّه كُنا نخشى البشرَ فصِرْنا نخافُ البقر. واللّهِ ما كنتُ أظنُّ البقرَ يستطيع الصعود.





لو كان عندي

رأى في طريقِهِ جماعةً من طلبة العلم فدعاهم إلى تناولِ الحساءِ (الشورباء) معه، فأجابوا الدعوة وتبعُوه إلى بيتِه. فدخل على زوجتِهِ وأمرَها بتهيئةِ الحساء. فقالت: وأين السمنُ والأرزُ؟ فتذكرَ جحا أنْ ليس عندَه ما يُطبخُ بِهِ الحساءُ فحمل الوعاءَ فارِغاً وأقبلَ على الطلبةِ ٱلمدعوِّين وقال لهم: كانَتْ نيتي لو كان عندي سمن وأرز أَنْ أقدِّم لكم ٱلحساءَ بهذا الوعاء، وتركهم وعاد.

☆☆☆

٧٩

لو خلعْتَ ثيابَك لَمَا تبلَّلْتَ

ذهبَ يوماً معَ تيمور لنك للصيد، وقد أركبوه جواداً بطِيءَ ٱلحركة، فهَطَلَتْ[١] أمطار غزيرة فأسرع السلطان وحاشيتُه بالرجوع وٱنقطع جحا في البرية، فلما رأى نفسَه منفرداً خلعَ ثيابَهُ ووضعَها تحتهُ وسار على جواده إلى أنِ ٱنقطعتِ ٱلأمطارُ فلبس ثيابَه وواصل السير إلى أن دخل على تيمور لنك فنظر إليه هذا متعجباً وقال له: كيف لم تبتلَّ ثيابُك؟

فقال: الفضل للجوادِ يا مولاي. فظنَّ السلطان أَنَّ الجوادَ أسرعَ بهِ وأوصلَهُ قبلَ أن تبتلَّ ثيابُهُ. فأمرَ بأنْ يُجعلَ ٱلجوادُ في عِدادِ خيلِهِ الخاصَّة.

ولمَّا كان اليوم الثاني خرج السلطان للصيد على عادتِهِ وركب ذلك الجوادَ فٱتَّفَقَ نزولُ ٱلأمطارِ وَٱبتلَّتْ ثيابُ السلطان فلمَّا وصلَ إلى المقرّ طلَبَ جحا، ووبَّخَهُ على كذبه، فأجابه الشيخ: لِماذا تسخطُ[٢] عليَّ، وأنت لو خلعت ثيابَك عند نزول الأمطار كما فعلْتُ أنا لما كان أصابها شيء من البلل.

☆☆☆

٨٠

إذا رأى الجوز يخرج

كانت زوجته حامِلاً، ولما جاء وقت الوضع عَسُرَ عليها الطلق فٱرتفعَ ضجيجُ النساء وجِئْنَ إليه يقلْنَ له: أُدعُ لها أَنْ يَسْهُلَ عليها الوضعُ وإلَّا ماتَتْ أو اختنقَ المولودُ، فهز رأسَه وخرج مسرعاً إلى السوق، فاشترى مِقداراً مِنَ ٱلجوزِ وعادَ فٱقتربَ من الكرسي الجالسة عليه امرأته، ووضع ما مَعه من الجوز تحت الكرسي، وقال: لعلَّ الولد إذا رأى الجوز يخرجُ لِيلعبَ به.

☆☆☆

---

(١) هطلت: انهمرت.

(٢) تسخط: تغضب.

٨١

أبكي على المرحومة أمِّك

جلس مع زوجته لتناول الطعام فأخذت قبلَه ملعقةً من الشورباء وكانت حارّة جداً فدمَعَتْ عيناها، فسألها عن سببِ بكائِها، فقالت: تذكَّرْتُ المرحومةَ أمي فإنها كانت تُحِبُّ هذا النوعَ مِنَ الشورباءِ.

ولكنْ جحا ما كاد يبتلعُ ما في ملعقتِهِ حتى سالَتْ دموعُهُ بكثرةٍ: فسألتهُ: ولماذا أنت تبكي الآن أيضاً؟ فقال: على المرحومة أمك التي ماتتْ وتركَتْكِ لي.

☆☆☆

٨٢

من شوقي نسيت ثيابي

سمع صباحَ يومٍ حركةَ عربةٍ، وكان نائماً في الفراش. فسأل، فعلِمَ أنَّ العربةَ ذاهِبةٌ إلى وطنِهِ «سيوري حصار» فنهض في الحال، ولحق العربة فتعلَّق بها عارِياً.

وركب، وهي سائرةٌ، حتى وصل إلى القرية ورآهُ أهلُها فتعجَّبوا من عُريِهِ وقالوا له: ما هذا يا سيدنا؟

فقال: شوقي إليكم أنساني ثيابي في البيت.





٨٣

نِلْتُ مرادي

كان عندَ جحا ثورٌ عظيمُ القرنينِ حتى كأنَّهُما قوسانِ، وبينما الثور راقدٌ تأمَّلَ فيه وتمنَّى لو يجلسُ ساعةً بين قرنيه، فتقدَّمَ متأنياً وقفزَ إلى رأس الثور فركبَهُ وأمسَكَ القرنين وذُعِرَ الثورُ فنهضَ قائماً وانتفضَ فسقط الشيخُ على الأرض مغمًى عليه فأسرعَتْ إليهِ زوجتُه وظنَّتْهُ قد ماتَ فأخذَتْ بالصياحِ فأفاقَ من غشيتِهِ وقال: لا تبكي لا تبكي يا عزيزتي، فأنا وإن أصابتني هذه الأوجاعَ، فقد نِلْتُ مرادي.

☆☆☆

٨٤

أظنُّكَ لم تسمعْ كلامي وأغضبْتَ أمَّك

ابتاع(١) جحا حماراً من السوق وأتى به يجرُّه خلفَه فرآه اثنانِ من العيّارينَ(٢) فاتّفقا عليه، وتقدّم أحدُهما فخلَع الرسَنَ مِنْ رأسِ الحمارِ بخفةٍ، وربط رأسَهُ بالرسن، ومشى خلف الشيخ، وعاد الثاني بالحمار.

ولما وصل الشيخ إلى البيت التفت إلى الحمار، فرأى الرجل، والمقودُ في رأسِهِ فعَجِبَ من أمره وقال له: مَن أنت؟

فوقفَ ٱلعيّارُ باكِياً يمسحُ دموعَهُ وقال: يا سيدي، أنا رجل جاهل أغضبْتُ أُمّي فدعَتْ عليَّ أنْ يمسخَني اللّهُ حماراً فاستُجيبَ دعاؤُها وباعوني لك في السوق. وببركَتِكَ ويُمْنِك قد رجعْتُ الآن إنساناً. وٱنطرحَ على يديّ الشيخ يُقبلُهما داعِياً شاكراً. فصدَّقَهُ الشيخُ وأطلقَهُ بعدَ أنْ نصحَهُ بأَنْ يُطيعَ أمَّه ويُرضيها.

وفي اليوم الثاني نزل جحا إلى السوق لشراء حمار آخرَ فرأى الحمارَ نفسَهُ فعرفَهُ فتقدَّم منه فَوْراً(٣)، وهمسَ(٤) في أذنه قائلاً: أظنُّك لم تسمعْ كلامي وأغضبْتَ أمَّك يا قليلَ الأدب، واللّهِ لن أشتريك.



٨٥

لعل للدار بابين

دعا بعضَ الطلبةِ إلى دارهِ ودخلَ يُفْسِحُ(٥) لهمُ الطريقَ، فلما رأى زوجتهُ قال لها: في البابِ ضيوفٌ أرى أنْ تصرفِيهم بحكمتِك.

فأقبلَتْ عليهم زوجتُهُ وقالت مِنْ وراءِ الباب: ماذا تُريدون؟ فقالوا: نُريد الشيخ. قالت: ليس هنا.

---

(١) ابتاع: اشترى.

(٢) العيارين: قطاع الطرق، اللصوص.

(٣) فوراً: بالحال.

(٤) همس: كلم بصوت منخفض.

(٥) يفسح: يوسّع ويفتح.

فاستغربوا وقالوا: الآنَ دخلَ، وقد حضرَ مَعنا، وهو الذي دعانا. فأصرَّتْ على كلامِها، واحتدمَ[1] الجدالُ[2] بينَها وبينَهم فتضايق جحا، وأطلَّ مِنَ النافذةِ، وقال لهم: لماذا تُجادلون المِسكينةَ فلعلَّ للدارِ بابينِ، وقد خرجَ من أحدِهما.

☆☆☆

٨٦

بلبل عادي

دخل بستاناً وصعِدَ شجرة مشمش، ثم وقف يأكل منها فجاء صاحب البستان، فلما رآه صاح به: ماذا تفعل هنا؟ فقال: أنا بلبل أغرد.

فقال البستاني: غرِّدْ لِنسمعَ. فأخذ الشيخ يصفّر مقلّداً البلبل، فضحك الرجل وقال: أهكذا تغرد البلابل؟ فأجابه الشيخ: البلبل العادي لا يغرِّدُ أفضلَ مِمَّا سمِعْتَ...



٨٧

ازرع الجانب الآخر كتّاناً

حَلَقَ له مُزيّنٌ بليدٌ فجرحَهُ عِدَّةَ جِراحٍ ووضعَ عليها قُطْناً فشعرَ جحا بذلك ونهض قائماً، فقال له: اصبرْ حتى تنتهِيَ. فأجابه: كفى فقد زرعت نصف رأسي قطناً وأريد أن أزرع النصف الآخر كِتاناً.



٨٨

جحا أكبر أم ابنه

قال له ابنه يوماً: يا والدي أنا أتذكرُ يوم ولادتِك، فشتمَتْهُ أمُّه وأسْكَتَتْهُ، فنظرَ إليها جحا وقال: لماذا تشتمينه فربَّما كان يتذكَّر ذلك منذ صغرِهِ.

---

(١) احتدم: اشتدّ.

(٢) الجدال: النقاش والحوار.

٨٩

الحمدُ للَّهِ أخرجْتُ المِسكينَ من البئر

نظر ليلةً إلى البئر فرأى خيال القمر في الماء فقال: مسكينٌ هذا القمرُ كيف سقطَ في البئر. وحاول إخراجَهُ فجعلَ يحرِّكُ الدلو في الماء لِيصعَد القمرُ به، فعَلِق جانبُ الدلو بحجرٍ فشدَّهُ جحا واعتقدَ أن ثِقَلَ القمرِ هو الذي عاقَه[1] عن الارتفاع، وبينما هو يشدُّ بكل قوَّتِهِ انحرفَ الدلو عن الحجر فسقطَ الشيخ على ظهرِهِ فرأى القمرَ في السماءِ فقال: الحمدُ للَّه، لقد تكسَّرَتْ أضلاعي ولكنِّي أنقذْتُ هذا المسكين. . .



٩٠

اختبأْتُ خَجَلاً منك

شعر جحا بوجودِ لِصٍّ في دارِه ليلاً، فقام إلى خزانة الفراش، واختبأَ بها، وبحث اللصُّ عن شيءٍ يسرقُهُ فلم يجِدْ، فرأى الخزانة فقال: لعلَّ فيها شيئاً، ففتحَها وإذا بالشيخ فيها، فاختلج[2] اللصُّ ولكنَّه تشجَّع[3] وقال: ماذا تفعلُ هنا يا شيخ؟

فقال: لا تُؤاخِذْني يا سيِّدي فإنِّي عارفٌ بأنك لن تجِدَ ما تسرِقُهُ، ولهذا استحَيْتُ واختبأْتُ خَجَلاً منك.



٩١

لعله خرج

أضاع جحا خاتمَه في داخلِ بيتِهِ فبحث عنه فلم يجده فخرج من البيت، وجعل ينظر أمام الباب، فسأله جاره: ماذا تصنع؟ فقال: أضعْتُ خاتمي في البيت، فقال: ولماذا لا تفتشُ عليه في البيت؟ فأجابه: الظلامُ حالِكٌ في الداخل فلعلَّهُ قد خرج.

☆☆☆

(١) عاقه: أخرّه.
(٢) اختلج: اهتزّ نفسياً.
(٣) تشجع: تقوّى متحاملاً على نفسه.

٩٢

الشاهد من نوع القضية

تولى جحا القضاء في أحد البلاد فجاءهُ ذاتَ يوم رجل يصيح بصوت عالٍ: يا سيدي القاضي، لقد سُرِقَتْ طنبورتي ووجدتها في السوق معَ فلانٍ، فخُذْها لي منه. فهدَّأ القاضي (جحا) خاطرَه، ونادى المُحْضرَ وأمرَهُ أن يذهَبَ إلى السوقِ ويأتِيَ بالرجلِ ولَمَّا جاءَ بِهِ سألَهُ جحا عن دعوى المدَّعِي. فأجاب: إن الطنبورةَ هي مِلْكي، وقد اشتَرَيْتُها من بلدةٍ ثانية.

فسأله جحا: هل عندك شهود؟ فقال: نعم. وأحضرَ في الحالِ شاهدينِ. فسألَهما جحا عن شهادتِهما، فقالا: نشهدُ أنَّ هذه الطنبورةَ لهٰذا الرجلِ، وعلامتُها أنها مكسورةٌ من أعلاها، ومفاتيحُها رخوةٌ، وفي أسفلِها شريطٌ.

وكانت كذلك طبعاً. فأراد جحا أنْ يحكمَ لِلْمُدَّعى عليه، فَٱعترضَه المُدَّعي قائلاً: أُريدُ تزكيةَ الشاهدينِ قبلَ ٱلحكمِ في القضية، وإنِّي أَجرحُ شهادَتَهُما بكونِ أحدِهِما بائعَ خمرٍ والثاني خليع.

فتأمَّلَ الشيخُ قليلاً، ثُمَّ رفعَ رأسَهُ قائلاً: وهلْ يحتاجُ مثلُ هذينِ ٱلشاهدينِ إلى تزكيةٍ أعظمَ ممَّا تقولُ، وأيُّ شاهدين أحسنُ منهما لدعوى طنبورة؟



٩٣

خُذْ منه الجزاء، فأنا مستعجل

كان جحا مارّاً في السوق يوماً فجاءَهُ رجل من خلفِه، وصفعَهُ صفعةً شديدةً فالتفَتَ إليهِ وقال: ما هٰذا؟

فاعتذرَ لَهُ الصافِعُ بقولهِ: عفواً يا سيدي الشيخ، ظننتُكَ أحدَ أصدقائي الذين لا تكليفَ بيني وبينَهم.

فلم يتركهُ الشيخُ وساقَهُ إلى المحكمةِ، حيث رَفَعَ الأمرَ إلى القاضي، واتَّفَقَ أنَّ الرجلَ كان من أصدقاءِ القاضي فلمَّا رآهُ مَعَ جُحا وسمع دعواهما، حكم على جحا بأَنْ يصفعَ الرجل كما صفعَه، فلم يرضَ جحا بذلك.

فقال القاضي: ما دمتَ غيرَ راضٍ عن هذا الحكم، فإنَّني أحكمُ بِأَنْ يدفعَ لك عشرة قروش جزاءًا نقدياً. وقال للرجل: اذهبْ واحضرْ لنا الدراهمَ ليأخذَها الشيخ.

وهكذا فسحَ القاضي ٱلمجالَ لفِرارِ ٱلرجل فٱنتظرَ جحا عِدَّة ساعاتٍ على غير فائدة. . وأدرك عند ذلك أن القاضي خدعَهُ وصَرفَ الرجل. فنظرَ إلى القاضي فرآهُ غائِصاً في أشغالِهِ فتقدَّمَ حتى قاربَهُ وصفعَهُ صفعةً دوّى لها المكانُ وقال: يا مولايَ القاضي أنا مشغول جِداً، وليس عندي وقتٌ لِلانتظارِ فأرجو أنْ تأخذَ الدراهمَ متى جاءَ بها الرجل. . وخرج!



٩٤

نعوذ بالله

سأله تيمور لنك يوماً قائلاً: تعلم يا نصر الدين أنَّ خُلفاءَ بني العباس، كان لكل منهم لقبٌ ٱختصَّ به فمنهم «الموفّق بالله» و«المتوكل على الله» و«المعتصم بالله» وما شابَهَ ذلك، فلو كنتُ أنا واحداً منهم فماذا كان يجبُ أن أختار من الألقاب؟

فأجابه الأستاذُ على الفور: يا صاحبَ الجلالةِ لا شكَّ بأنَّك كنت تُدعى بلقبِ «نعوذُ بالله». . . !



٩٥

ما الذي أضاعته؟

قال له يوماً أحد أصحابِهِ: إنَّ ٱمرأتك قد أضاعَتْ عقلَها. فنظرَ إليه جحا، ثم وضع يده على جبهته، وجعل يفتكر، وأطال، فقال له صديقُه: بماذا تفكر؟

فأجابه: تقول: إنَّ امرأتي أضاعَتْ عقلها، وأنا على يقينٍ بأنها لا عقلَ لها، فدعْني أفتكرُ في ما هو الذي أضاعته يا تُرَى.



٩٦

لم أسامرها في حديث

ذهب يوماً إلى المحكمة، وأخبر القاضي بأنَّهُ عازِمٌ على تطليقِ ٱمرأتِهِ.

فقال القاضي: اسألُوه ما ٱسمُ امرأتِهِ وما ٱسمُ والدِها؟

فقال جحا: لا أعلم!

فقال القاضي: منذُ كَمْ سنةً تزوجتَ؟

قال: منذُ بضعِ سنين. ولكنَّني لم أسامرها في حديثٍ ولم تَكُنْ بيني وبينها ساعةُ صداقةٍ لأسألَها عن ٱسمِها أو ٱسمِ أبيها.

☆☆☆

٩٧

المسمار يقوم مقام الرماد

أوصتْهُ امرأتُهُ بأَنْ يأتِيها بدقيقِ فحم لِصبغ الخطوطِ، وأعطَتْهُ كِيْساً لذلك، ولَمَّا لم يَجِدْ دقيقَ فحم ذَهَبَ إلى مكان ٱلحريقِ، ووضعَ شيئاً مِنَ المساميرِ في الكيسِ وعادَ إلى البيت فأعطاها إلى امرأته فلما رأت المسامير تعجبت وقالت: ما هذا؟

فأجابها: أيَّتُها المرأةُ إنَّك لا تعلمين أنَّ عند مَن يقرأُ حكمَ الكلِّ والأكثرِ سواءٌ فالمِسمارُ يقوم مقامَ الرمادِ (لأن لفظه أكثرُ وأكسرُ، وكلٌّ متجانِسَةٌ بِالتركيةِ، ومعنى أكثرِ مسمار، وكل رماد).

☆☆☆

٩٨

اسأليني وٱسألي الخروف

سمع وقعَ أقدامٍ لصوصٍ، ذاتَ ليلةٍ، هو وامرأتُهُ فصمَتَ قليلاً، وفي تلك البرهةِ ثغا خروفُ الشيخِ، فقال أحد اللصوص لِرفاقِهِ: إنْ لم نحصُل على شيءٍ في هذه الليلة، فَلندخُل هذا البيتَ ونقتل الشيخ ونذبح خروفَه ونأكلُهُ ونخطفِ امرأتَه.

فأخذ الشيخُ حينئذٍ بالسُّعال المتوالي بجلبةٍ وضوضاءَ، ففرَّ اللصوص، فقالَتْ لَهُ امرأته: كأنَّك خِفْتَ فسعلْتَ وعمِلْتَ هذه ٱلجلبة.

فأجابها فوراً: طبعاً إذْ لا شيءَ يُهِمُّكِ. إنَّما اسأليني وَٱسأَلي الخروف.

☆☆☆

٩٩

وهنا مِرْحاض

جاء ببنَّاءٍ ليبني له داراً، فأخذ الرجل يشير عليه ويقول له: نبني هنا غرفة، وهنا إيواناً، وهناك بيت مؤونة، وأخذ يطلع وينزل من الطابق العلوي إلى السفلي، وفيما هو كذلك خرج منه ريح فقال له الشيخ: وهنا نبني مرحاضاً.

☆☆☆

١٠٠

إذا كان له جار عمرُهُ ٢٠

سأله بعضهم: هل يلدُ لرجل عمرُهُ مائة سنة ولدٌ؟

فأجاب: نعم إذا كان له جارٌ عمرُهُ ٢٠.

☆☆☆

١٠١

أعرفه منذ كانت طاسة ترابة

سُرِقَ لِجاره حلةٌ (دست) فوجدَها مع بعضِهِم فأحضرَ الشيخَ شاهِداً فسألَهُ القاضي: هل تعلم أنَّ هذه الحلّةَ لهذا الرجل المسلم؟

فأجابه الشيخ: أجل أعرِفُها منذُ كانَتْ طاسَةً للترابةِ[1] وقد كبرَتْ بيدِ هذا.

☆☆☆

١٠٢

لا تتكبر فالماء هو هذا

غطسَ في البحر لِأخذِ جرعةٍ منه لِتسكين عطشِهِ فالتَهبَتْ مَعِدتُهُ مِنَ ٱلملوحة واختلطتْ واختبطَتْ، فتقدَّم قليلاً، فوجدَ ماءًا عَذْباً فأخذ يشرب منه حتى ارتوى، ثم أخذ وعاءًا وملأه ماءًا وأخذَهُ إلى البحر وصَبَّهُ فيه قائلاً: لا تتكبرْ ولا تعملْ على الناس عظمةً فارغةً، فالماء الذي يُقالُ له: ماء هو هذا.

---

(١) الترابة هي التي يُغتسل بها وتُمزج بالعطور أيضاً يستعملها الشرقيون.

١٠٣

لا تكنْ في التابوتِ وامشِ حيث شِئْتَ

سأله أحدُهم يوماً: إذا كان الإنسان ماشياً مع جنازةٍ، هل يمشي وراءَها أم أمامَها؟

فأجابَه: لا تَكُنْ في التابوتِ وامشِ حيثُ شِئتَ!.

☆☆☆

١٠٤

عار عليك أنْ لا تكونَ كابنك

جاء إلى مدينةِ بروسةَ في شغلٍ واجتهد كثيراً في الدوائر المتعلقة بها أشغالُهُ، فلم يتمَّ شغلُه، فقال له بعضهم: إذا صلَّيت الصبحَ أربعينَ صباحاً في الجامع الكبير حذاء[1] المحرابِ ودعَوْتَ ففي اليوم الحادي والأربعينَ يتمُّ شغلك، ففعل، ولم ينلْ مُرادَه، وفي صباحِ يومٍ ذهبَ إلى الجامعِ الصغيرِ وصلَّى ودعا بصدقٍ وإنابةٍ[2] فتمَّ شغلُهُ، فلِلحالِ هَرَعَ[3] إلى الجامعِ الكبيرِ ودخلَ الباب رافعاً عقيرتَهُ[4] قائلاً: عارٌ أنْ لا تكون كابنِك!.

☆☆☆

١٠٥

أنظروا كيف يركض قبل أن نضع زفتاً

جاء يوماً إلى مكان تصليح السفن وكانوا قد أشعلوا النار لعمل الزفت وتصليحِها فسألهم: ماذا تصنعون؟

فقالوا: نصنع السفينة ثم نَطليها بالزفت فتسير بسرعة.

فحضر في الحال إلى داره وربط حماره بالسلاسل وأشعلَ النارَ يُريدُ أَنْ

---

(١) حذاء: جانب.

(٢) إنابة: رجوع إلى الله بالتوبة.

(٣) هرع: أسرع.

(٤) عقيرته: صوته إذا غنَّى أو قرأ أو بكى.

يُصْلِحَ حوافِرَهُ ويطليّها بالزفتِ كما يصنعون بالسفن، فما رأى الحمار ذلك، حتى قطعَ السلاسلَ وفرَّ يُسابقُ الريح عدواً.

فصاح الشيخ: يا ناسُ أنظروا كيف يركضُ قبل أَنْ نضعَ الزفتَ والقطران.

☆☆☆

(١٠٦)

هذا الرجل أنا فمن أنا؟

سافر سفرةً طويلةً فعلَّقَ على جسمه يقطينة قائلاً: أُعَلِّقُ هذه حتى لا أضيعَ. وسار، فحطّ في بعض المنازل، فجاءَ رجل وأخذ تلك اليقطينة وعلّقها على نفسه.

ففي اليوم التالي رآهُ الشيخُ فحارَ في أمرِه، وقال: هذا الرجل أنا، فعجباً مَنْ أنا؟

☆☆☆

(١٠٧)

العين كالضرس

سألُوهُ يوماً عَنْ دواءٍ للعين المريضة فقال: أمس وجعني ضرسي فلم أجد وسيلةً إلا بقلعِهِ.

☆☆☆

(١٠٨)

مسافة تسعة أشهر بخمسة أيام

وُلِدَ له مولودٌ في اليوم الخامس مِنْ زواجهِ، ففي اليوم التالي أحضرَ جزءَ ألف باء وأدواتِ الكتابةِ، ووضعَ هٰذه الأشياء عند رأس الطفلِ حِذاء اللفافة. فقالوا: ما هذا؟

فأجابهم: إنّ مَنْ يقطعُ مسافة تسعةِ أشهرٍ بخمسةِ أيامٍ يُداوِمُ بعد أيامٍ في المدرسةِ طبعاً لذلك أحضرْتُ له ما يلزم.

☆☆☆

١٠٩

والعياذُ باللّهِ لو كنْتُ لابسَه

كان قميصُه منشوراً على الحبل فهبَّتِ الريحُ وألقَتْهُ. فقال لنفسه: يلزمُنا أَنْ نذبَحَ قُرباناً[١]. فسألتْهُ امرأتُهُ؟ ولماذا؟

فقال: والعياذ باللّه لو كنت لابسه!.

☆☆☆

١١٠

لو ساروا كلهم لجهة واحدة لوقعت الأرض

قالوا له يوماً: نرى الناس في الصباح منهم مَنْ يسيرُ هنا ومنهم مَنْ يسيرُ هناك فلِماذا؟

فأجابهم: لو ذهبوا كلُّهم إلى جهة واحدة لاختلّت موازنة الأرض ووقعت.

☆☆☆

١١١

الخبز بالثلج

قال يوماً: قد اخترعت أكل الخبز بالثلج، ولكنه لم يَرُقْ لي أنا أيضاً.

☆☆☆

١١٢

ازرعوني فأُخرج ثمراً

رأى يوماً مزارعين يزرعون كَرْماً فسألهم؟ ماذا تصنعون؟

فقالوا: نزرع كرمةً تحملُ عنباً، عناقيدَ عناقيدَ. فتأمَّلَ الشيخُ قليلاً، وقال: ازرعوني أيضاً فإني أُعطي أثماراً متنوعة.

---

(١) قُرباناً، بضم القاف: أضحيَّة.

فقال المزارعون: أجلْ، وطمروه في التراب إلى وسطه وجلسوا تحتَ ظلِّ إحدى الأشجار. وبما أن الزمن كان ربيعاً برد الشيخ برداً شديداً وجاع فهزَّ نفسَهُ وخلعَ جسمَه بكلِّ صُعُوبةٍ وتقدَّمَ إلى المزارعين، فقالوا له: لماذا لم تبقَ مكانَك؟

فأجابهم: واللّهِ أيُّها الإخوانُ إذا كُنْتُمْ تَريدون القولَ الصحيح فإِني لم أُحِبَّ مكاني فلم أَحمِلْ ثَمَراً، لذلك خرجْتُ وأتَيْتُ إليكم.

☆☆☆

١١٣

إصدار الأمر هيّن

جيء بفارسٍ من عساكر تيمورلنك، وكان الشيخ حاضراً فأمر تيمورلنك بضربهِ ثمانين عصا.

فتبسَّم الشيخ. فغضِبَ تيمورلنك وقال: اضربوه خمسماية عصا.

فأخذ الشيخ يضحكُ قهقهةً، فغضِبَ تيمورلنك غضباً شديداً وتطايرَ الشررُ من عينيه وقال: اضربوه ثمانمائةِ عصا.

فتراخَتْ أعضاءُ الشيخ خوفاً وأمسَكَ بخواصره من شدَّة الضحك، فنهضَ تيمورلنك وقال: يا خائنَ الشرعِ أنت تستخفُّ بالحدِّ الشَّرعيِّ الذي أُقِيمُهُ، وعِمامَتُكَ بقدرِ حجرِ الطاحون، معَ أنك تعلم أنَّك أمام جبارٍ ترتجِفُ له الأرضُ.

فأجابه الشيخ: تقولُ صواباً، وأنا أعلمُ أهميةَ المسألةِ، وأعرِفُ أنك سفَّاكٌ لا مَثيل له، إلا أني حائِرٌ في فكرةٍ، فإمَّا أنَّكَ لا تعلَمُ الأرقام أو أنك لسْتَ مِثْلنا من المخلوقاتِ، فأين الثمانون عصا مِنَ الثمانمائةِ؟ الأمرُ باللسانِ هيِّنٌ، ولكن تنفيذَ الأمرِ هو الصعب، مَنْ يطيق الثمانمائة عصا؟

☆☆☆

١١٤

هو أخبرني بموته

بينما كان في خارج البلدة توهَّم أنَّهُ مات. فأنتظر مدةً فلم يأتِ أحدٌ يرفعُ

جثمانَهُ[١]، ودَبَّ فيه الجوعُ. فذهب إلى دارِهِ، وأخبرَ امرأتَهُ بذهابِهِ، وأنَّهُ مات وأين كانَتْ وفاتُهُ. ثُمَّ رجعَ إلى محل وفاتِهِ الموهومة.

فنشرت امرأتُهُ شعرها وبكَتْ بكاءً مراً فحضر الجيران وسألُوها فأخبرَتْهم بأنَّ الشيخَ توفي في البرية وبقي جثمانُهُ مطروحاً هناك، فحزن عليه الجيران حزناً عظيماً وسألوها متى مات؟ وأين مات؟ ومَن نعاهُ؟ فأجابَتْهُم امرأتُهُ: من للشيخِ الغريبِ يُخْبِرُ عنه، فهو الذي مات، وهو الذي حضرَ وأخبرني بموته، ثم عادَ إلى محلِ وفاتِهِ.

☆☆☆

(١١٥)

ذلك ذنب أذني الطويلة

كان حمزة المدَّعي أنَّهُ عارف كاملٌ وسالِكٌ واصِلٌ، مِنَ الدراويشِ، فسألَ جحا قائلاً: أيُّها الشيخُ أما لك صنعةٌ في هٰذا الكونِ سوى الهذر والمُزاحِ؟ فإنْ كانَ لديك معرفة أبرزْها، وإنْ كان لديك شيءٌ مِنَ الكمال فأفِدْ واَسْتَفِدْ.

فقال الشيخ: ما هي كمالاتُكَ أنت، وأيُّ فضيلةٍ تنفعُ بها سالِكَ سبيلِكَ لِنسلُكَهُ؟

فأجابه المدَّعي: عندي مِنَ المعارف والعوارف شيءٌ كثيرٌ ولا نهايةَ لِكَمَالَاتي العظيمة، فإنِّي في كلِّ ليلةٍ أصعدُ إلى العالمِ العُلْويِّ وأطيرُ حتى السماءِ الأُولى وأتبخترُ[٢] في منازلِ السماءِ[٣] ناظِراً في عجائبِ الملكوتِ.

فأجابه الشيخ: أما أحسسْتَ بشيءٍ ناعم كالمروحةِ مسَّ وجهك؟

فقال المدّعي من قبيل السفسطة: أجلْ أيُّها الشيخُ!

فأجابَهُ جحا: ذلك ذَنَبُ أُذُني الطويلةِ.

☆☆☆

(١١٦)

لا علاقة لي مع الخلق

خلعَ قميصَهُ وجلسَ بين المقابر يتفلّى، فاتَّفقَ أنْ هبَّت ريحٌ شديدةٌ وخطفَتِ

---

(١) جثمانه: جثته.

(٢) أتبختر: أمشي الخيلاء.

(٣) منازل السماء: طبقات الجوّ العليا.

القميصَ وأطارَتْهُ فأخذ يجري وراءَهُ عارِياً، تارةً يركضُ وطَوْراً يقعُ؛ وإذا بِفرسانٍ طلعوا من صدر البريةِ، فخافوا مِنْ هذا الشخص العجيبِ، الذي رأَوْهُ يقفِزُ في المقبرةِ مِنْ حجرٍ إلى حجرٍ وجفلَتْ خيولُهم فأرادوا أن ينتقِموا منه على ما نالَهُم مِنَ الفزعِ وهجموا عليه وقالوا له: ماذا تصنعُ أيُّها الرجلُ هنا؟

فأجابَهُم: أنا من أهلِ القبور يا أولادي، وقد تركْتُ لكمُ الدنيا بَتاتاً[1] وخرجْتُ من قبري لِنقضِ وُضوئي، ولا ألبَثُ أن أعودَ إليهِ، إذ لا علاقةَ لي مع الخَلْق.

☆☆☆

١١٧

قسمة اللّه أم قسمة العبد

كان الأستاذ يميلُ إلى مسرةِ الأطفالِ وتفريحِهِم، وكثيراً ما كانَ يجتمِعُ أطفالُ آقَ شَهْرْ حولهُ فيضحِكُهُمْ، ويُلاعِبُهُم، ويُدْخِلُ عليهم السرور، وإذا حَدَثَ لهم مُشْكِلٌ يُهرعون[2] إلى الشيخ. ففي ذات يوم اختلفوا على قسمةِ بضعِ جوزاتٍ، وجاؤوا إليه، فقالوا له: اقسمْ هذه الجوزاتِ بيْننا.

فقال لهم: تريدون قسمةَ اللّهِ أمْ قِسمةَ العبد؟

فأجابه الأطفال بصفاء نفس: نُريدُ قسمة اللّهِ تعالى.

فأخذ يقسمُ الجوزَ فكان يُعْطِي هٰذا حفنةً، وآخرَ حفنتين وذاك بضعَ جوزاتٍ، وآخر جوزةً واحدةً، وأهملَ بضعة أطفالٍ لم يُعْطِهِمْ شيئاً فلمْ يفهمِ الأطفالُ معنى هذه القسمةِ العجيبةِ، فقالوا له: ما هذا؟

فأجابَهُمْ: يا أولادي لا يجبُ أنْ نذهَبَ بعيداً بَلْ لننظرِ المسألة بيننا، فوالدُ بديع الدين أفندي مُثْرى[3] للغايةِ، ومِنْ أهم وجهاءِ البلدة وهو سعيدٌ من جهةِ عائلتِهِ، وله أولادٌ وعائلةٌ كبيرةٌ وكلُّهم مِنْ ذوي الكمال والجمالِ. أمَّا سِنانُ الدين هذا الصغيرُ، فهو فقيرٌ لِلْغايةِ وذو عائلةٍ مضطربةٍ، وهو عليل[4] لا يُمْكِنُهُ الشغلُ كثيراً وامرأتُهُ مريضةٌ ويمضغُ جيداً. وعائلةُ حسام الدينِ غيرُ ذلك، وكلُّ واحدٍ لا توافقُ حالتُهُ حالةَ الآخرِ، وأمَّا حالُ شيخِكُمْ، فهو بخلافِ الجميعِ، فهٰكذا قسمةُ اللّهِ تعالى يا أعزَّائي.

---

(١) بتاتاً: قطعاً.

(٢) يهرعون: يسرعون.

(٣) مثرى: غني.

(٤) عليل: مريض.

١١٨

وأنا كنت ضمنها

سأله جاره القريب قائلاً: لقدِ اشتغل بالي حَيْثُ سمعتُ ضوضاءَ، وجلبةً، وصياحاً في دارِكم، وكأني بخصومةٍ حصلَتْ، وشيء عظيم تدحرجَ على السلّم، فماذا جرى؟

فأجابه الشيخ منقبضاً: لقد تخاصمْتُ معَ امرأتي ولكَمَتْ جبّتي، فتدهورَتْ بالسلم، وحصل لها قرقعةٌ وجَلَبة[١].

فأجابه جاره: وهل للجبة قرقعةٌ، إذا تدهورَتْ على السلّم؟

فأجابه الشيخ: اصمُتْ[٢]، يا أخي، فلماذا تُشدِّدُ عليَّ لقد كنت أنا أيضاً ضمنها.

☆☆☆

١١٩

جِئْتُ إنْ شاءَ اللّه

كان يتسامرُ معَ امرأتِهِ، ذاتَ ليلة، فقال لها: سأذهب صباحَ غدٍ للاحتطابِ، وإذا كان الجوُّ رائقاً، أروحِ للمزرعة.

فقالت له امرأته: قلْ: إنْ شاءَ اللّه.

فأجابها: وماذا يلزم، فطبعاً لا تخلو المسألة من النوعين أعمل أحدَهما. ونام.

وفي الصباح، خرج من البلدة، فصادف سرية منَ الفرسان، فنادوه: يا عمّ، من أين الطريق إلى القرية الفلانية؟

فأجابَهم الشيخ، بدون مبالاة: لا أعلم.

فنقِموا عليه، وأخذوا يسبّونه، وصفعوه عِدَّةَ صفعات، قائلين له: امشِ أمامَنا وخذْنا إلى القرية، فما أوصلَهم إليها، حتى سال المطر، من رأسه إلى قدميه، حيثُ كان يهطلُ بغزارة، وعاد في منتصف الليل، مريضاً مجروحاً تعباً إلى داره، وطرق الباب، فقالتِ امرأته: مَن؟ فأجابها: أنا يا عزيزتي إفتحي الباب، إن شاء اللّه.

☆☆☆

---

(١) جلبة: ضجّة.

(٢) اصمت: اسكت.

١٢٠

أفتش على نومي

خرج في منتصف الليل يدور في الشوارع، فصادفه رئيس الحراس، وسأله: على أيِّ شيء تفتش في الشوارع بنصف الليل؟

فأجابه: هرب نومي وأنا أُفتِّشُ عليه.

☆☆☆

١٢١

أعطيك ما شِئْتَ منَ الوعدة

طلب إليه أحد أصدقائه نقوداً بالدَين لوعدة.

فأجابه: لا أُعطي دراهمي قرضاً[(١)]، وإنَّما أُعطيك، يا صديقي، ما شئت منَ الوعدة.

☆☆☆

١٢٢

قطعت سعر الفوطة

دخل، يوماً، هو وتيمورلنك إلى الحمّام، فسأله تيمورلنك: لو كنْتُ عبداً فكم كنت أُساوي؟

فقال له: خمسين درهماً.

فصاح تيمورلنك بوجهه: يا قليل الإنصاف إن الفوطة التي بوسطي تساوي هذه القيمة.

فأجابه الشيخ بسكون: وإنِّي قطعْتُ سعراً للفوطة أيضاً.

☆☆☆

---

(١) قرضاً: ديناً.

١٢٣

الذي أعطى الدراهم تصفّرُ صفارته

أوصاهُ أطفال الحارة وهو ذاهب إلى السوق أن يبتاعَ[١] لهم صفاراتٍ فهزَّ رأسهُ ووعدَهم. وتقدَّم واحد منهم، وقال له: احضرْ لي واحدةً، وهذا ثمنُها، فتناول منه الدراهم، وذهب.

وانتظروه مساءً في الطريق إلى أن حضر فاحتاطوا به، وكل منهم يقول: أين ما أوصيتُك به؟

فالتفت الشيخ إلى الذي أعطاه الثمن، وناوله الصفارة، وقال: الذي أعطى الدراهم تصفّر صفارتُه.

☆☆☆

١٢٤

أعطوني هِمياني[٢] أو أُرِيكُم ماذا افعل

كان الشيخ ضيفاً في إحدى القرى، فضاع هِميانُهُ «خرجه»، فقال لأهل القرية: إما أنْ تجِدوا لي خرجي، أو أنّي أعرف ماذا أصنع.

ولما كان الفلاحون يعرفون أن الشيخ، من أعيان البلد، حاروا في أمرهم، وأخذوا يُفتِّشون على الخرج، حتى وجدوه، وردوه إليه. وتقدَّمَ أحدُهم منَ الشيخ، قائلاً: لو لم نجد الخرج فماذا كنْتَ تصنع؟

فأجابه الشيخ بكلِّ سكون: عندي بساطٌ قديمٌ كنْتُ أجعله خرجاً.

☆☆☆

١٢٥

ليفهم الناس مِقدار ما أتعذب

أخذ حماره إلى السوق، يريد بيعَه، فجاء أحدُهم، ومدّ يده إلى فِمه ليعرف

---

(١) يبتاع: يشتري.

(٢) همياني، بكسر الهاء: كيس نقودي، محفظتي وأما (الخرج) فهو وعاء معروف يوضع على ظهر الدابة. وقد اختلط المعنى في النص بين الهيمان (كيس النقود) والخرج (الذي ورد تفسيره آنفاً).

عمره، حسب العادة، فعضه الحمارُ عضةً بالغة، فأخذ في الشتم، والسب، وذهب، ثم ظهر مشترٍ آخرُ، فجاء وأراد أنْ يُمسِكَ ذنبَه، فلبطه لبطةً شديدةً، تدهورَ بها الرجل على الأرض، فأخذ يسبُّ، ويلعن، وذهب. فجاءَ الدلّالُ إلى الشيخ، وقال له: إنَّ هذا الحمار لا يبتاعُهُ[1] أحدٌ فهو يعضُّ، ويلبط. فقال الشيخ: وأنا لم أُحضِرْهُ للبيع، إنما جئتُ به ليعلمَ المسلمون ماذا يُصيبني منه..

☆☆☆

١٢٦

الورقة معي!

ابتاع يوماً مُعلاقاً، وفيما هو ذاهب، صادفه أحد أصدقائه، فسأله: كيف تطبخ هذا المُعلاق؟ فأجابه: حسب العادة.

فقال: كلّا، إنَّما له طبخةٌ أحسنُ أعلِّمُك إيَّاها.

فقال الشيخ: ربَّما لا أحفظُ التعريفة، فأرجو أنْ تكتَبها لي بورقة، فأقرأُها وأعملُ بموجِبها. فكتب له الرجل الورقة، واستأنفَ جحا السير إلى بيته، غارقاً في بحر الأفكار، بعامل الاشتهاءِ كيف يطبُخُه، وإذا ببازي[2] أنقضَّ[3] وخطفَ منه المِعلاق، وطارَ به في الفضاء، فلم يُظهرِ الشيخُ حيرةً، بل أخذ الورقةَ ومدَّها للبازي قائلاً: لا فائدة لك منه فلا تقدِرُ على أكلِه، لأن الورقة معي.

☆☆☆

١٢٧

متى تقوم الساعة؟

سألوه: متى تقوم القيامة؟

فقال: وأيّة قيامةٍ تعنون؟

فأجابوه: وهلِ القيامة مُتعدِّدة؟

---

(١) يبتاعه: يشتريه.

(٢) البازي: ضرب من الطيور الكاسرة.

(٣) انقضّ: هوى هابطاً من الجوّ إلى الأرض بسرعة فائقة.

فأجابهم: نعم إذا ماتتِ آمرأتي، فتلك القيامة الصغرى، وإذا متُّ أنا، فتلك القيامةُ الكبرى.

☆☆☆

١٢٨

لو لم يكن ابني

قالتْ لهُ آمرأته: خُذْ هذا الطفل، وشاغله قليلاً، لأعملَ أشغالي فحمله، وأخذَ يدور به، ويُسلِّيه، فبالَ عليه الطفل، فغضِبَ الشيخُ، وبال على الطفل، من رأسه إلى قدميه، فجاءتِ امرأتُهُ، وهي غضبى، وقالت: ماذا فعلْت؟

فأجابها بحدَّةٍ: امرأتي، امرأتي، احمدي اللّه تعالى، فلو لم يكنِ آبني لكنتُ فعلْتُ معَه أكثرَ من ذلك.

☆☆☆

١٢٩

لماذا أنقل أصابعي؟

كان في مجلسٍ، فأعطوهُ عوداً، ليعزِفَ عليه، وقالوا أسمِعْنا. فأخذَ العود، وبدأ يضربُ عليه منَ الأسفل إلى الأعلى، بصوت مزعج.

فقالوا له: ما هٰكذا يدقُّ بالعود، فيلزم أنْ تلعبَ أصابعُك على الأوتار، حسَبَ الأُصول.

فأجابهم: إذا لم توجدِ النغمةُ، فلماذا أُتْعِبُ نفسي بإيجادِها، وأنقل أصابعي من أجلِها؟

☆☆☆

١٣٠

لو كنت راكباً عليه لَضِعْتُ

ضاع حماره، فأخذ يُفتِّشُ عليه، ويحمد اللّه شاكراً، فسألوه: ولِماذا تشكرُ اللّه؟

فقال: أشكرُهُ لأنّي لم أكن راكباً على الحمار، وإلا فلو كنت راكباً، لضعت معه.

(١٣١)

لذة وجود المفقود

أضاع حماره يوماً، فأخذ ينادي في السوق: مَن وجدَهُ، فإني أعطيه إيَّاهُ مع بردعتِهِ ومقوده. فقالوا له: ما الفائدةُ من وجودِهِ، إذا كنت تريد أن تعطيه بطقمِهِ؟

فأجابهم: إنكم لا تعرفون لذَّةَ وجود المفقود.

☆☆☆

(١٣٢)

إذا لم أجدْهُ يسمع صوتي

وأضاع حماره يوماً، فأخذ يفتِّش عليه، ويغني، فقالوا له: هل مَنْ أضاعَ حمارَهُ يغني، أم يبتئس؟

فأجابهم: لعلَّهُ وراءَ هذا الجبل، فإذا لم أجدْهُ فلا بُدَّ مِنْ أَنْ يسمعَ صوتي، فيعلم أنِّي غيرُ مهتمٍّ له فيأتي.

☆☆☆

(١٣٣)

عندها نتساوى

ذهب يوماً إلى إحدى البلاد، للوعظ، ونزل عند بعض الوجهاء، ففي الصباح دعاه ذلك الوجيه، فأقرأهُ شيئاً، وقرأ هو مثله، وكتب له شيئاً فكتب نظيره.

ثم قال له الرجل: إنِّي قرأتُ ما قرأتَهُ، وكتبْتُ ما كتبته، فلا فرق بيني وبينك، ولا حاجة لي بك.

فأجابه الشيخ: كلَّا بيني وبينك فرقٌ عظيم، لأنِّي حضرْتُ ماشِياً من مسافةِ ثلاثةِ أيام وتحمّلْتُ مشقةً عظيمةً، فلو بلغَ بك الفقرُ، ما بلغَ بِي، وذهبْتَ إلى بلدي، ورددْتُكَ مثلما رددْتَني خائباً، ورجعْتَ بخُفي حُنينٍ خاسِراً، فعندَها أتساوى أنا وأنت.

☆☆☆

١٣٤

خلٌّ اَبنُ أربعينَ سنةً

سأله جاره يوماً: هل عندَك خلٌّ اَبنُ أربعينَ سنةٍ؟

فقال: نعمْ عندي.

فقال له: أعطني قليلاً منه.

فأجابه: لا أقدِرُ أنَّ أعطيك.

فقال: ولماذا؟

فأجابه: لو أجبْتُكَ إلى طلبكَ، وأجبْتُ غيرك، فهل يبقى خلٌّ ابنُ أربعين سنة؟

☆☆☆

١٣٥

مَنْ قُطِعَتْ رجلُهُ لا تُقْطَعُ رأسهُ

أصابَ ظالماً من امرأتِهِ غدرٌ شنيعٌ، فأضمرَ[1] الظالمُ عداوةَ النساءِ عامَّة، وكان يُحضِرُ العلماءَ والعارفين، ويهمسُ في آذانِهم شيئاً، فإذا أجابه أحدُهم بغير ما يرضى يقطع رأسه، فعجزوا عن حيلةٍ لمنع ظلمهِ الفادح[2]، فأشاروا إلى الشيخ، فأحضروه وهمس في أذنه: أنت متأهِّلٌ أم عازب؟

فأجابه الشيخ: وهل مَن يَصِلُ إلى عمر كعمري يبقى عزباً؟

فقال الظالم: وأنت مثل هؤلاء، اضربوا عنقه.

ففهِمَ الشيخُ عندَها المسألة، فأسرع قائلاً: لا تتعجلْ، بلِ اَسألني هلْ طلقتها وأعدْتَها؟ وهل ماتَتْ وتزوَّجْتَ؟ أو كانت عندي وتأهَّلْتُ بثانية أو أكثرَ؟ وهلْ وقعتُ بمثل هذه الورطة ثانيةً، وأخطأت؟ ففي المثل المشهور «الحيوان الذي تقطعُ رجلُهُ، لا تقطعُ رأسَه».

☆☆☆

(١) أضمر: أخفى.

(٢) ظلمه الفادح: ظلمه القاتل المدمّر.

(١٣٦)

نتطهَّرُ ثم ننقض الوضوء

قالت له امرأته: إنَّ إبريقَ الوضوءِ قد ثُقِبَ من أسفله، وأصبح الماءُ لا يمكُثُ فيه طويلاً، فماذا نصنع؟

فأجاب الشيخ: هذا لا طريقةَ له أبداً، إلّا أننا كُنّا ننقضُ وضوءَنا ونتطهّر، والآن نملأُ الإبريق، ونتطهَّرُ ثم ننقضُ وضوءنا.

☆☆☆

(١٣٧)

ماذا يعنيني وما يعنيك؟

قال له أحد الفُضوليّين[١]: منذُ برهةٍ رأيْتُ في الطريق دجاجة هنديةً مطبوخةً، في صحن، واثْنينِ ذاهبينِ بها.

فأجابه الشيخ: وماذا يعنيني؟

فقال لهُ الفضوليُّ: ذاهبينِ بها إليك.

فأجابه: وما يعنيك؟

☆☆☆

(١٣٨)

لو كانت دوارةً لحضرَتْ إلى بيتِنا

قالوا له يوماً: إن امرأتك تدور كثيراً!

فأجابهم: لو كان ذلك صحيحاً، لكانت حضرَتْ إلى بيتِنا!

☆☆☆

(١) الفضوليين: محبّي البحث عن المعرفة.

١٣٩

أجرةُ اليومِ لتلك وأجرةُ تلك اليومَ

ذهب يوماً إلى الحمّام، فأعطوه مناشِفَ قديمة، ولم يقوموا بالرعاية الواجبة، فعندما خرج، وضع على المرآة، عشرة قروش، فعجِبَ الحمّاميون، وفرحوا طبعاً.

ثم بعدَ أُسبوعٍ حضرَ إلى الحمّام، فقابله الحماميون بالرعاية والإكرام، فوق العادة، وقدموا له المناشف المزركشَة والفوَط الحريريَّة، فلم يقلِ الشيخُ شيئاً، ولكنَّهُ عندما خرج، وضع على المرآةِ قرشاً واحداً، فعجِبوا من قلةِ الأجرةِ، وغضبوا، وقالوا له: ما هذه المعاملة؟

فأجابهم: لا شيءَ فوق العادة، وإنَّما الأجرةُ التي أعطيْتُها اليومَ هي عن تلك المرة، وأجرة تلك عن هذه.



١٤٠

لا وقت لي أن أذهب إلى بغداد

جاءهُ أحدُ أصدقائِهِ، وقالَ له: أرجو أنْ تكتُبَ لي مكتوباً إلى أحَدِ أصدقائي في بغداد.

فقال له الشيخ: أسألُك باللّهِ أنْ تتركَني، فلا وقتَ عندي الآن، لأذهبَ إلى بغدادَ.

فجرى الرجل وراءَهُ وأمسكَ بهِ قائلاً: لماذا تذهبُ إلى بغدادَ، إذا كتبْتَ لي مكتوباً إليها؟

فقال له الشيخ: إنَّ خطِّي لا يقرأُهُ أحدٌ غيري، فإذا كتبْتُ مكتوباً يجبُ أنْ أقرأَهُ أنا حتى يفهمَ ما حواه.

☆ ☆ ☆

١٤١

أنا من الخارج وأنتِ من الداخل

أخذ حماره إلى السوق، وأعطاهُ إلى الدلال ليبيعه، فأخذَ الدلال يدور به،

ويُنادي: هذا حمارٌ فارهٌ واسعُ الخطى «اشكين»، هادئ يمكنُ أنْ تشربَ فنجان القهوة على ظهره، ليّنُ الرأس، فتيٌّ، قويٌّ، لا عيب فيه. فأخذ الناس يتزايدون عليه نظراً لهذه الأوصافِ والثناءِ الطويل.

فلما سمع الشيخ هذه الأوصاف قال لنفسه: أيكون الحمارُ حائزاً كلَّ هذه المزايا ولا أشتريه، فأخذ يزيدُ مع المُزايدينَ فيه، وبالنهاية وقع عليه المزاد، فعدَّ الدراهم تماماً وأعطاها إلى الدلال، وانصرف إلى البيت فرِحاً بحمارِه.

وفي الليل أفهم امرأته المسألة، وكانتِ امرأتُهُ لا تقلُّ عنه دُعابةً وظَرْفاً، فأجابتْهُ: وأنا حَدَثَ لي أمرٌ عجيبٌ بهذا اليوم فقد مَرَّ أمامَ البيت بائعُ القيمقِ «القشطة»، فناديْتُه، وأخذ يزنُ لي القيمق، فلِكَي يرجح الميزانُ غافلتُه، ووضعْتُ إسواري الذهبَ في كفَّةِ «الأواق» وأخذْتُ طبق القيمق، ودخلْتُ فماذا تقول؟

فقال لها الشيخ: باركَ اللّهُ فيك. أنا منَ الخارجِ، وأنتِ من الداخل، والبيت يعمر!

☆☆☆

١٤٢

الساقط من السطح يعرف الحالة

هذه النادرة وجدْناها نظْماً فعرَّبناها نظْماً وقاربْنا ما أمكن:

[الرمل]

كانَ نَصْرُ ٱلدِّينِ يَوْماً في ٱلسُّطوحْ ... بِٱشْتِغالٍ جائِياً ثُمَّ يَرُوحْ
زَلِقَتْ رِجْلاهُ حِيناً فَوَقَعْ ... فَأتَى ٱلأَحْبابُ قالُوا ما وَقَعْ
ما هُوَ ٱلحالُ وماذا قَدْ جَرَى؟ ... فَأَجابَ ٱلقولُ وَٱلدَّمْعُ جَرَى
لا تَسَلْ عَنْ حالِ مَنْ تَنْظُرُهُ ... يَعْرِفُ ٱلسَّاقِطُ ما مَخْبَرُهُ

☆☆☆

١٤٣

كفى عِناداً ضعي للحمار عليقه

أنف ذات يوم من إعطاء العليق للحمار، فقال لٱمرأتِه: ضعي أنتِ عليقَ ٱلحمار. فلم ترضَ ٱلمرأة بذلك وتنازعا، وأخيراً ٱنتهَتِ الحادثةُ بالسكوت، وشرطا أنَّ أولَ مَنْ يتكلمُ، فهو يقوم بتقديم العلف للحمار.

فأنزوى الشيخ في جانب من غرفة البيت، وظلَّ ساعاتٍ متوالية ساكِتاً لا ينبِسُ ببنت شفةٍ[١]، وضاق ذرع المرأة، فخرجت، وذهبَت إلى الجيران، وظلَّتْ حتى الغروب، وقد قصّتِ ٱلقصةَ على جارتِها، وقالت أنا أعلم أنَّهُ عنيدٌ، وربَّما ماتَ جوعاً فيا ليتنا نرسلُ إليهِ شيئاً منَ الحساءِ (الشوربا)، فأعطوا ٱبن الجيرانِ وعاءً فيه شوربا، وبعثوه إلى بيت الشيخ.

واتَّفَقَ أنْ دخلَ لِصٌ إلى بيت الشيخ، وجمع كل ما يُمكِنُهُ حملُهُ حتى إنَّه دخل الغرفة التي يقيم فيها الشيخ، فوجدَهُ جالِساً في إحدى زواياها، ولم يهتمَّ لكلِّ ما في البيت من الجلبة[٢]، ومع أن اللِّص حار في أول الأمر، إلا أنه حسِبَهُ مفلوجاً لعدمِ حركتِهِ فجمع ما رآه نافعاً، حتى تناول القاووق عن رأس الشيخ، ليرى إنْ كان يرفعَ صوته، أو يتكلم، أم هو خائف مذعور، ثم أخذ القاووق والأشياء، وهرب والشيخ صامت.

عندها دخل ٱبنُ الجيران فرآه كالصنم جامداً لا يتحرَّكُ. فقال له: قد أرسلوا إليك طبق شوربا، فأفهم الغلامَ بإشارةٍ عن سرقةِ البيتِ وقاووقِهِ، مشيراً إلى رأسه عن القاووق بإدارة يدِهِ ثلاث مرات حول رأسه كدائرة، وأن تحضرَ امرأتُهُ. ففهم الغلام أَنْ خُذْ طبقَ الشوربا وأَدِرْهُ على رأسي ثلاث مرات، وصُبَّهُ عليه، ففعل، ونزلتِ المرقةُ وبقايا الشوربا على وجهه وذقنه وغسلته تغسيلاً.

فلم يتكلمْ وأعاد الإشارةَ، ففهم الغلام، وذهب وأفهم المرأة عن سرقةِ الدار، وكيف أنها أصبحت خالية خاوية، وعن القاووق، وطبق الشوربا، وحال الشيخ، وسكوته، فعلِمَتِ المرأة أهميةَ المسألةِ، وأسرعَتْ فرأت شيئاً مضحِكاً مُبْكِياً، والشيخ جالس بعدَ ذلك كالخشبةِ المُسندة، فهجمَتْ عليه بكلِّ هياجٍ وقالَتْ له: ما هذا الحال؟

فأَجابَها الشيخ: اذهبي وأَعطي الحمار عليقَه، وكفاكِ عِناداً.



١٤٤

أَعطني الملعقة الكبيرة لِأموت أنا أيضاً

ضاف عندَ أحدِهِم في يوم شديد الحر، فجاؤوا بكأسٍ فيه منقوعُ المشمشِ وأخذ صاحب البيت ملعقة معدنية كبيرة، وناول الشيخ ملعقة ذهبية صغيرة، وبدأا

(١) لا ينبس بينت شفة: لا يتكلم.

(٢) الجلبة: الضجّة.

يتناولانِ بملعقتيهما، وصاحب الدار كلَّما أخذ جُرعةً يقول: أوخ أكاد أموت بلذّته.

وكان الشيخ يضرب بالملعقة الصغيرة حتى أسفل الكأس فلا يخرج له إلا القليل مما يلحسه باللسان فقط، وصاحب الدار يتناول كما ذكرنا.

فنظر إليه الشيخ، ثم قال في نفسه: هذا ممَّا لا يحتمل، والتفت إلى صاحب الدار قائلاً: أرجو أنْ تُناوِلَني الملعقة الكبيرة ودعْني أموت أنا أيضاً.

☆☆☆

١٤٥

كل عشر علب كيلة واحدة

بينما كان يحتطِبُ في أحد الأيام، رأى أرنباً فصاده، وكان حتى تلك الساعة، لم يرَ أرنباً. فقال في نفسِه: هذا حيوانٌ عجيبٌ يجب أنْ آخذَهُ إلى أهل البلدة، وأُريَهم إيَّاه فلعلِّي أجِدُ من يعرف ما هو؟ ووضعه في كيس وربط فمه ربطاً مُحْكماً وأحضره إلى البيت، وقصَّ القصّة على امرأتِه، وحذرها من فتح الكيس وقال: أنا سأذهب لأنادي بعض الأهلين وأُرِيهم إيَّاهُ.

وبما أن الإنسان يحرص على ما يُمنع عنه، فعندما انفردتِ المرأة بنفسها، قالت: لأنظر ماذا في الكيس؟ إذ كثيراً ما يفعل الشيخ مثل هذه المخرقات. وبمجرد ما فتحت الكيس فرَّ الأرنب من المدخنة فحارت المرأة ماذا تصنع، فما وجدت وسيلةً سوى أنها وضعت علبة الشعير في الكيس وأعادَتْ ربطَهُ كما كان.

وانتظرت النتيجة وظنَّتْ أنّ الشيخ لا يأتي إلا ببعض الهزليِّين، أو أنَّهم ربما لا يصدقونه فلا يحضر أحد، وتنقضي المسألة.

في حين أن الأمر جاء بالعكس، فقد كان أعيانُ البلدةِ وأشرافُها ومأمورُها ذاهبين إلى ضيافةٍ، ومارِّين من أمام داره، فدعاهم الشيخ فحضروا حتى غصَّت ردهة الدار الكبرى، وجلسوا صفوفاً فنبَّههم إلى أنهم متى قالوا جميعهم: هلمّ[١] يخرج هذا المخلوق العجيب.

فاهتم كلٌّ منهم غاية الاهتمام، وأخذوا يحدِّقون بالكيس رافعين أيديهم. فعند ما قالوا هلّم، فتح الكيس وخرج منه شيء تدحرج على الأرض، فحارَ الشيخ في أمره ماذا يقول للناس، وقد دعاهم لشيء غريب ولم يظهر في الكيس سوى

(١) هَلُمَّ: اسم فعل أمر بمعنى أقدم.

علبة عاديةٍ فارغةٍ فما كان منه إلا أن قال بداهة[1]: كلُّ عشرِ علبِ مملوءةٍ من هذه العلبة تساوي كيلة واحدة.

☆☆☆

(١٤٦)

الشمس أكثر فائدة أم القمر؟

سألوه يوماً: الشمس أكثر فائدة أم القمر؟

فأجابهم: بما أنَّ الشمس تطلع نهاراً ولا تُفيدُ في الليل، والقمر يبزغ في الليل ويُنير الدنيا ويجعلها كالنهار ففائدة القمر أعظم من فائدة الشمس.

☆☆☆

(١٤٧)

دنا الأجل فما الفائدة

خرج يوماً ذاهباً إلى إحدى القرى المجاورة. وكان شبان بلدته قد أعدُّوا حفلة ساهرة للعب والتسلية، وكان هو واسطة عقد الانشراح والسرور في مثل هذه الحفلات، فقصدوا تأخيرَهُ عن الذهاب إلى تلك القرية.

وعندما لَبِسَ الشيخ ثياب السفر وحمّل حماره لوازمه السفرية وقصد المسير في الطريق، عارضه أولئك الشبان فسألوه: إلى أين أنت ذاهب؟

فقال: إلى القرية الفلانية لبعض أشغالٍ ضرورية.

فقالوا: يا مسكين إنَّك لا تقدِرُ على الذهاب لأنك متّ ويجب على أهل البلد أن يقوموا بتجهيزك وتكفينك حسبما يليق بمقامِكَ، لأنَّك شيخ بعضنا ونسيب بعضنا وصديق آبائنا جميعاً. فاختنق الشيخ لهذا الخبر لأنَّ ذكر الموت كان يُهيجُ أفكاره ويُرخي أعصابَه فمشى معهم إلى مسجد المحلة باضطرابٍ شديدٍ، وقال لهم: يا أولادي أخشى أن تكونوا أردتم المزاح بكلامكم هذا ولي شغل ضروري فإذا لم يكن ما تقولونه حقيقياً فدعوني أذهب مع الناس وإلا فلا يُمكِنُني الذهابُ وحدي فيما بعد.

---

(١) بداهة: على الطبيعة وبسرعة.

فأصرُّوا على ادِّعائهم موتَهُ، وصمت هو فجرّدوه من ثيابه، وهمُّوا بتغسيله. واتَّفق أن مرّ صديقٌ للشيخ في تلك الساعة يريد السفر فاستوقفه الشبان وقالوا له يجب أن تحضر الجنازة ودفن الشيخ أولاً، وتعلقوا به فقال لهم: إن لي شغلاً هامّاً يمنعني فأرجو أن تسمحوا لي. فلم يقبلوا. وبينما هم في الجدال والحوار رفع الشيخ رأسَهُ، وهو على المغتسل، وقال للرجل: لا فائدة في الجدال، فلا بدَّ من الطاعة لأنّي أنا أيضاً كان لي شغل مستعجل، ولكن دنا الأجل واجتمع الخلق فلا مفر من الذهاب إلى القبر.

☆☆☆

١٤٨

نركب عليه ونُحمِّله أثقالنا

ذهب إلى السوق وابتاع[١] خضراً ووضعها في هِميانه[٢] (خرجه) وجعله على عاتِقه، وركب الحمار.

فصادفه أحدهم في الطريق، فقال له: لماذا لا تضع هذا الخرج أمامك على الحمار وتركبه براحة؟

فأجابه الشيخ: أنصِفْ يا رجلُ، إن هذا الحيوان يُريحُنا بركوبنا له، فهل يجوز أَنْ نُحمِّلَهُ شيئاً فوقَ حمله إيَّاناً؟ فأنا لم أفعل شيئاً من هذا حتى الآن.

☆☆☆

١٤٩

أضِف إلى قراءتي شيئاً من القِطران

جَرِبَتْ شاةُ أحد الفلاحين، فأخذها إلى الشيخ، وقال له: بما أنَّ نَفَسَك نافعٌ للجرب فاقرأ لي على هذه الشاة.

فأجابه الشيخ: إذا كنت تريد أن تبرأ شاتُك مِنَ المرض فأضِفْ إلى قراءتي شيئاً من القطران.

☆☆☆

(١) ابتاع: اشترى.

(٢) الهيمان: هو غير الخرج كما مرّ معنا في النادرة ١٢٤.

١٥٠

إذا متُّ فادفنوني قائماً

عندما قرُبَت وفاته دعا أصدقاءه وأوصاهم بوصايا كثيرة منها قوله: إذا متُّ فأدفنوني قائماً.

فقالوا: ما السبب؟

فقال: غداً إذا قامت القيامة وصارت الدنيا مختلطةً أكون واقفاً من دون مشقة.

☆☆☆

١٥١

جِئْتُ أخبرُكَ

تألّمت امرأتُهُ فأشارت إليه أن يأتِيَ بالطبيب.. فذهب لإحضاره، وفيما هو خارج الباب، أطّلت مِنَ النافذة، وقالت له: الحمدُ للّهِ لقد زالَ الألمُ فلا لزومَ للطبيب.

ولكنّ الشيخ أسرع في الحال إلى الطبيب، وقال له: إنّ امرأتي كانت تألّمت وأشارَت بلزوم إحضارك إلّا أنّها أطّلت مِنَ النافذة، وقالت الحمدُ للّه زالَ الألم، فلا لزوم للطبيب، لذلك جئت أخبرك حتى لا تتحمّلَ مشقةَ الحضور.

☆☆☆

١٥٢

اللّهُ واحدٌ والقولُ واحدٌ

سألوه يوماً: كم عمرك؟

فقال: أربعون سنة.

وبعد مُضِيّ عشر سنواتٍ سألوه أيضاً، فقال: أربعون سنة. فقالوا له: منذُ عشرِ سنين سألْناك فقلت: أربعون، والآن تقول كذلك؟

فأجابَهُمْ: الرجلُ الحرُّ لا يرجِعُ عن كلامه، فاللّهُ واحدٌ والقول واحد، ولو سألْتُموني بعد عشرين سنةً فهذا جوابي أيضاً.

☆☆☆

(١٥٣)

المِلْقَطُ بثلاثة آلاف

ذهب يوماً إلى السوق فرأى بيد الدلال سيفاً، ينادي عليه، بثلاثة آلاف قرش فأخذه بيده وتأمله فلم يجده يساوي هذه القيمة فسأل من هناك عن ذلك فقالوا له: متى أراد الإنسانُ أن يضرِب بهذا السيف عدوَّه يطول خمسة أذرع، فهزَّ رأسه، وانصرف.

وفي اليوم التالي جاء بمِلْقطٍ كبير ونادى عليه: المِلْقَطُ بثلاثة آلاف قرش، وأخذ يدورُ به، فتعجَّب أهلُ السوقِ، وجعلوا يتأمَّلون في المِلْقَطِ فوجدوه لا يُساوي قرشين، فقالوا له: ما مزية المِلْقَطِ حتى تُنادي عليه بثلاثة آلاف غرش؟

فأجابهم: أنتم قلْتُم: إنَّ السيف الذي زعمتم أنه يطول خمسة أذرع، حينما يضرب به الإنسان عدوَّهُ يُساوي ثلاثة آلاف غرش في حين أنَّ هذا المِلْقَطَ يُساوي أكثر منه لأنَّ امرأتي عندما تغضبُ وترميني به يطول عشرة أذرع.



(١٥٤)

إلى متى يلِدُ الناس ويموتون؟

سأله يوماً تيمورلنك: إلى متى يَلِدُ الناس ويموتون؟

فأجابه الشيخ فوراً: إلى أن تمتلىء الجنة وجهنم.

☆ ☆ ☆

(١٥٥)

قولي وصلنا إلى نصف الطريق

سافر مع امرأته لزيارة بعض الأصدقاء في محل على مسافة أربعة أيام، وبعد مرور بضع دقائق على خروجهما من المدينة، التفت الشيخ إلى امرأته، وقال لها: ماذا قطعنا من الطريق؟

فأجابته: متى مشينا اليوم وغداً نكون قطعْنا مسافة يومين. فأجابها: إذاً قولي قطعْنا نصف الطريق...



(١٥٦)

لا وارث لي

ذهب يوماً في صِباهُ إلى إحدى القرى للوعظ، فمرض مرضاً شديداً، فاجتمع القرويون وقالوا له: إذا متَّ ووقع الأمر الحق، فهل لك في بلدك وارث؟

فأجابهم: لي والدةٌ في بلدي، إلّا أنَّ والدي طلَّقها، فعلى ذلك لا وارث لي . . .

☆☆☆

(١٥٧)

إذا طلب أجرة عشرة أيام ماذا أصنع؟

استأجَرَ في أحد الأيام حمَّالاً لينقل له حِمْلاً، وبينما هما في الطريق، فرَّ الحمّال بما معه، ففتَّش عليه جحا، فلم يجده. وبعد عشرة أيام صادفه، وكان مع الشيخ بعض أصدقائه، فقالوا له: هذا هو الحمّال الذي تفتِّش عليه.

فسُرَّ جحا لذلك، ولكنه ابتعد عنه ولم يكلمه، فقالوا له: لماذا لم تمسكهُ، وقد تعِبْتَ كثيراً في البحث عنه؟

فأجابهم جحا: كيف لا أفرُّ منه، وقد مضى عليه عشرة أيام ضائعاً، فإذا قبضتُ عليه أخشى أن يقول لي: أَعطني يوميةَ عشرة أيامٍ التي حملت بها حملك فماذا أصنع؟



(١٥٨)

مَن يتشاجر على السطح يعلم

نام ذات ليلةٍ على السطح وعندما تمدَّد في الفراش أخذت امرأته بالحوار معه، حتى تشاجرا، فأغضبته، فقام يمشي ظانّاً نفسه في إحدى غرف البيت، وإذا به قد وقع مِنَ السطح على رؤوس جيرانه، فذعروا وأحاطوا به وسألوه، فبعد أن أخذ رمقاً أجابهم باختصار: مَن يتشاجر مع امرأته على السطح يعلم مُصيبتي.

☆☆☆

١٥٩

كيف تعرف النساء والرجال؟

كان يوماً في مكان وقد ذكروا أن سُيَّاحاً أتوا حديثاً من بلاد العرب، وقالوا له: إن أهل تلك البلاد يظلّون عُراةً لشدَّة الحرّ فيها... فأجابهم الشيخ: عجباً وكيف تعرف الرجال من النساء هناك؟



١٦٠

ليعلم قدر الشيء

قيل له: إذا طلب منك شخص شيئاً، فلماذا لا تعطيه إيَّاه إلَّا في اليوم التالي؟

فأجابهم: أفعل ذلك ليعرف قدر ما أُعطيه.



١٦١

أسف على حماره ولم يحزن على امرأته

ماتت امرأتُهُ فلم يَأْسَفْ عليها كثيراً، وبعد مدَّةٍ فطس حمارُهُ فظهرَت عليه علائمُ الغمِّ والحزن، فقال له بعض أصدقائه: عجباً منك، ماتت امرأتك من قبل، ولم تحزن عليها هذا الحزن الذي حزنته على موت الحمار.

فأجابهم: عندما توفيت امرأتي حضر الجيران، وقالوا لا تحزن فإنا نجد لك أحسن منها، وعاهدوني على ذلك، إلَّا أنه عندما فطس الحمار لم يأت أحد يسليني بمثل هذه السلوى، أفلا يجدر بي أن يشتدَّ حزني؟

☆ ☆ ☆

١٦٢

هل سمعت مَن يشكو الربيع؟

شكا أحدهم شدة البرد فسمعه آخر فقال: يا للعجب من هؤلاء الناس إذا جاء

الشتاء يشكون من البرد وإذا جاء الصيف يشكون من الحر فلا تروق لهم حالة.

فسمع الشيخ ذلك فقال: أجل، الحال كما وصفت، ولكن هل سمعت أحداً يشكو من الربيع!

☆☆☆

(١٦٣)

ألم يخطر لك النزول؟

صعد يوماً كرسيَّ الوعظ في أحد مساجد القرية، واجتمع الخلق وانتظروا ما سيقوله، فجلس الشيخ طويلاً ولم يخطر في باله شيء، وحَصِرَ[١] وتضايقَ والناس ينتظرونه، وكلَّما طال الوقت يزداد حصراً.

وأخيراً التفت إلى الناس وقال: يا عباد اللّه تعرفون أني غير عاجزٍ عن الكلام، وقد أردت أن أحدِّثكم، فلم يخطر ببالي شيء.

وكان ابنه جالساً تحت الكرسي، فنهض وقال: يا والدي إذا كان لم يخطر ببالك شيء فهل لم يخطر ببالك أن تنزل عن الكرسي؟

☆☆☆

(١٦٤)

إذا أحببت المال فللاستغناء عن البخلاء

سأله أحد البخلاء قائلاً: هل تحبُّ المال أيضاً؟

فأجاب الشيخ: إذا أحببت المال فللاستغناء عن البخلاء الذين لا ضمائر لهم.

☆☆☆

(١٦٥)

لم أتعلم أيام البلدة بعد

ذهب إلى إحدى المدن، وبينما هو في السوق سأله بعض أهلها: ما هو اليوم؟

---

(١) حَصِرَ: أي عَيِيَ في النطق. وأصله من الحصر أي الضيق والاحتباس.

فأجابه: أنا حضرت اليوم إلى هذه البلدة فلم أتعلم أيامها، فاْسأَلْ أحد أهلها.

☆☆☆

(١٦٦)

ما بحت بسِرّي

سألوه يوماً: هل تعرف أحداً يحفظ الأسرار في البلدة؟

فأجابهم: حيث أنّي علمت بأنّ صدور الخلق ليست بمستودعٍ، فلم أبح بسِرّي لأحدٍ حتى الآن.

☆☆☆

(١٦٧)

لم أكمّل بَوْلي بعد

دخل يوماً عند العشاء إلى مرحاض أحد الجوامع ليبوّل، وإذا بحنفية المرحاض مفتوحةٌ. فانتظرَ ظنّاً أنَّ بوله لم ينته. فجاء رجلٌ آخر، وانتظر طويلاً، ثم صرخ قائلاً: كأنك نِمْتَ يا هذا؟ فأجابه: لم ينته بَوْلي بعدُ.

☆☆☆

(١٦٨)

الحنطة والشعير سيّان

أغفلوا الشيخ يوماً وأخذوه شاهد زور للمحكمة. فاْدّعى المُدَّعي على خصمه بحنطةٍ. فأحضروا الشيخ، وسألوه فشهِدَ بشعيرٍ فقالوا له: غَلِطْتَ فكان يجب أن تقول حنطة.

فأجابهم: أيُّها الجهلاء طالما الشهادة كاذبةٌ فالحنطة والشعير سيّان.

☆☆☆

١٦٩

احسبوني حوت يونس

كان يتفرَّج على الصيادين وهم يصطادون سمكاً من بحيرةِ «آقَ شَهْرْ» وفيما هو يتأمَّل زلقت رجلُهُ، فوقع في الشبكة، فقال له الصيادون؟ ماذا فعلت؟

فأجابهم: احسبوني حوت يونسَ بين السمك.

☆☆☆

١٧٠

الفراريج حزينة على أمِّها

ضاعت دجاجة الشيخ فأتى بخرق سوداء وربطها في أعناق الفراريج وتركها. فقالوا له: ما هذا؟

فقال: حزِنوا على موتِ أُمِّهِم!

☆☆☆

١٧١

الحمدُ للَّه

سرق له ذات يوم ألفُ غرش، وذهبَ إلى الجامع. وظلَّ يتضرَّعُ، ويدعو اللّه أن يُعيد دراهمه إليه حتى أصبح الصباح. واتفق أن أحد تجار البلدة كان مسافراً في البحر فهبّت الأنواء والعواصف فنذر للشيخ ألف غرش إذا سلم من هذه النازلة، فنجا وأتى يبحث عن الشيخ حتى وجده فدفع إليه النذر وقصّ عليه القصة وقال إني قد تخلّصت ببركة دعائِك ومددِك.

فبعد أن فكَّر الشيخ طويلاً قال: سبحان اللّهِ، لو أقرضْتُ هذه الدراهم لإنسانٍ لأعادها إليَّ بدون أن يفكّر بمثل هذه الأهوال فالعقل البشريُّ لا يدرك سرّ حكمة الحقِّ جلّ وعلا، كيف ضاعَتْ دراهِمُنا، وكيف حصلت.

☆☆☆

(١٧٢)

السلحفاةُ تحرث

كان يوماً يحرث أرضه فلقي سلحفاة فأخذها وعلّقها على رقبته بخيط فكانت كلّما تحرّكت، يقول لها: لماذا تضطربين هكذا؟ . . . أليس من العار أن تتعلمي الحراثة أيضاً؟

☆☆☆

(١٧٣)

ألبسها بالعافية

كان في «سيوري حصار» بلدة الشيخ قاضٍ سكّيرٌ فَسَكِرَ يوماً في المزرعة ونام وقد خلع جبّته، وقاووقه، ورماهما جانباً، وخرج الشيخ للتنزه هو وتلميذه حمّاد، فرأى القاضي وحالته فأخذ الجبّة ولبسها وذهب.

ولما انتبه القاضي ولم يجد الجبّة قال للمحضر إذهب وآتني بِمَنْ أخذ الجبّة واْتبعني إلى المحكمة.

فذهب وأتى في اليوم التالي، ومعه الشيخ وتلميذه، والشيخ لابسٌ الجبّة.

فسأله القاضي: من أين أتيت بهذه الجبّة؟

فقال الشيخ: ذهبت للنزهة مع حمّاد أمس، فوجدت رجلاً ذا عِمامةٍ سكرانَ مُلقًى على الأرض، فأخذتُ جبّته ولبستها، ويمكِنني أن أثبت ذلك بشهود وأمارات وأُريكم مَن هو ذلك الشخص. . .

فقال له القاضي: مَن يعلم ذلك السفيه، ولكن أنت البسها بالعافية فلا دخل لي بذلك.

☆☆☆

(١٧٤)

عودنا الحمار على الرياضة ولكن لم يساعده الأجل

حصل له في شتاء إحدى السنين ضائقة، فقال في نفسه: عجباً ألا يمكنني أن أقلّلَ علف الحمار؟

وأخذ في كلِّ يوم ينقص شيئاً من العلف المعتاد فلم يؤثِّر ذلك في الحمار، فأنقص أيضاً حفنة. فلمَ يهتم الحمار بذلك، وهٰكذا أنزل العلف لدرجة النصف من المُعتاد، فلم يرَ بأساً في الحمار. ولكن عندما أنقص له التبن أيضاً مع نقص الشعير حفنةً وجدَهُ صباح ذات يوم فاطِساً[1]، فقال: عَوَّدنا الحمار على الرياضة، ولكن لم يساعدْهُ الأجل.



١٧٥

على كل إنسان أن يحمل ماله تحت رأسِه

كان يزرع في النهار النصوبَ في بستانٍ ويقلعُها في الليل، ويأخذُها إلى البيت، فقيل له: ما هذا؟

فأجاب: يا أولادي، الدنيا خربت، فيلزم على كل إنسانٍ أن يجعل ماله تحت رأسه، فمن يعلم ماذا يحدث؟



١٧٦

مَن يسمع كلام زوجته يستحمُّ حاراً وبارداً

حضر يوماً إلى البيت ليتوضأ لصلاة العصر، وفيما هو مستعجل ليلحق الجماعةَ، شغلَتْهُ امرأتُهُ بأشياء تافهةٍ، ثمَّ قالت له: أرى ثيابك وسخةً، فالأولى أن تستحمَّ. فوافقها.

ولمَّا أراد الذهاب إلى الحمام، قالت له: لا تبطىء فإنَّك تعلم أنَّهُ سيُعقد نكاح شقيقتي اليوم، وأنت ستقوم مقام الوالد. وإذا لم تكن موجوداً يتأخر العقد ونخجل من المدعوين، وأكّدت عليه. فأسرع في ذهابه واستحمَّ، وهو يعلم أن لا ضرورة لاستحمامه.

ولمَّا جاء وقت عودته إلى بيته رأى الأمطار، تهطلُ كأفواه القِرَب. فلم يسعه الانتظارُ وخاف أن تتبلَّل ثيابه وجُبَّته فنزعها وصَرَّها صَرّاً مُحْكماً وخرج من الحمام

(١) فاطساً: ميتاً.

عارياً من رأسه إلى قدميه، ولما وصل إلى البيت رأى المدعووين واقفين على الباب ينتظرونه فعندما رأوه قالوا له: ما هذه الحال؟

فأجابَهُم الشيخ: مَن يسمع كلام امرأته يستحمَّ حاراً وبارداً.

☆☆☆

١٧٧

ما دامت الحال على ما ترى فلا شيء

كان يوماً راكباً جملاً، فأخذ يسفُّ سويقاً (وهو الدقيق الممزوج بالسكر) وكان الهواء شديداً، فكلما وضع شيئاً في فمه يتطايرُ ولا يدخلُ جوفه شيءٌ منه، فسألهُ رفيق له: ماذا تأكل؟

فأجابه: ما دامتِ الحال على ما ترى فلا شيء.

☆☆☆

١٧٨

أيَفرّ الإنسان من رحمة اللَّه؟

كان يوماً جالساً في نافذة داره، ينظر إلى المطر الذي كان نازلاً بشدَّة، فرأى أحد جيرانه راكضاً بسرعة البرق، مخافة أنْ تتبلَّل ثيابه، فناداهُ الشيخ وقال له: لماذا تركض؟

فأجابه الرجل: أفرّ من المطر (وفي التركية يقال للمطر: رحمة).

فأجابه الشيخ: واه واه، أسفاً عليك، حقاً إنَّنا في آخر الزمان. هل يفرّ الإنسان من رحمةِ اللَّه؟

فتأثَّرَ الرجلُ وأخذ يمشي الهُوينا[1]، والشيخ ينظرُ إليهِ، فما وصل إلى داره، حتى غسَّله المطر.

واتَّفق أن كان الرجل ذات يومٍ جالساً في نافذة داره، ينظر إلى المطر وإذا بالشيخ يجري مسرعاً وقد رفع جبّتهَ وأذياله. فناداه الرجل قائلاً: أنسيت ما قلته لي، هل يفرُّ الإنسان من رحمة اللَّه؟

فصبر الشيخ هنيهةً وأجابه: كلا وإنَّما أُسْرِعَ لِكَيْلَا أدوس الرحمة (المطر). وأسرع إلى داره.

---

(١) الهوينا: على مهل.

١٧٩

حتى الموقدة تخشى المرأة

أراد يوماً أن يُشعِلَ النار في الموقدةِ، فنفخ كثيراً فلم تشتعِلْ فطلع في الحال إلى غرفة امرأتهِ، وأتى بقُفطانها ووضعه على رأسِهِ ونفخ: «بف... بف...» فاشتعلت النار. فقال الشيخ: يا لَلْعجبِ! حتى الموقدة تخشى امرأتي!

☆☆☆

١٨٠

جئت خالياً وأذهب خالياً

اصطاد يوماً في بحيرة «آقَ شَهْرْ» سَمَكاً، وأراد الانصراف فاْجتمع حوله أولاد المحلةِ وسرق كلٌّ منهم سمكةً أو سمكتين، ولما نهض لِيذهَب رأى الزنبيلَ فارغاً لا شيء فيه، فخاطب البحيرة قائلاً: جِئْتُ خالِياً وأذهبُ خالياً فلا تمني عليّ، وخذي الزنبيل هِبة لك.. وألقاهُ في البحيرة وذهب.

☆☆☆

١٨١

اسألوا الميت

قالوا يوماً: يا شيخ أنت عالم، فنرجو أن تحلَّ لنا هذا المشكل. قال: وما هو؟

قالوا: الدنيا كم ذراعاً؟

وإذا بجنازة مارَّةٍ في ذلك الوقت، فأشار الشيخ إلى التابوتِ، وقال لهم: هذا السؤال يردُّ عليه هذا الميتُ، فاسألوه لِأنَّهُ ذرع الأرض، وسار.

☆☆☆

١٨٢

القاووقُ يلعبُ

ذهب في يوم عيد إلى الميدان، خارج البلدة، ليرى الأولاد، كيف يلعبون،

ولما اختلطَ بهم، وهو ينظرُ إلى ألاعيبهم، تقدَّم أحدهم منه، وخطف قاووقهُ عن رأسِه، ورماهُ في الساحة، فأخذ الأولادُ يتلاعبون بالقاووقِ، ويركضون هنا وهناك، وحاول جحا كثيراً أن يأخذه منهم فلم يُمْكِنْهُ ذلك، ولم ينل سوى قهقهةِ الأولاد ولعبِهم وضجيجهم.

وانتظر هنيهةً، فلَّما لم يستفِدْ شيئاً ركِبَ حمارهُ، وعاد مكشوف الرأس فلقيَهُ في الطريق صديقٌ له فقال: كيف تذهب يا سيدي، وأنت مكشوف الرأس، وأين قاووقك؟

فأجابه: اختلط معَ الأولادِ في ميدان اللعب، حيث خَطَرَ في بالِهِ عهْدُ الطفولةِ فهو يلعبُ معهم.

☆☆☆

١٨٣

ذاك يتكلَّم وهذا يُفكِّر

رأى يوماً طائراً يُباع في السوق بإثني عشر ذهباً، وهو بقدرِ الحمامة، فقال في نفسه: ما أروج سوق الطيور، فقد حان الوقت للربح، وغداً أبيعُ ديك الحبشةِ الذي عندي.

وفي اليوم التالي حمل ديك الحبش(١)، وذهب إلى السوق، وهو ينتظِرُ أن يبيعهُ بمبلغٍ طائلٍ فوضعه بالمزايدة فلم يتجاوزْ ثمنه ١٢ قرشاً، فغضب جحا، وقال لأهل السوق بحدَّةٍ: أُناشِدُكم اللَّهَ ما هذا العمل؟ أمسِ رأيتُ طيراً بقدر الحمامة مصبوغاً يُباع باثني عَشَر ذهباً، وكلٌّ منكم دفع فيه سِعْراً عالياً، وهذا الطائر الذي عرفه ومنقاره كالمرجان والعقيق، ولون ذنبه كالحرباء إذا قابل الشمس يلمع بألوانٍ زاهيةٍ ملتهبةٍ، وإذا صفّر له ينفخ خُرطومه، ويرفع ذنبه وجناحيه كالخيمة وتصير له جثة كالخروف فلا يملُّ الإنسان من رؤيته، وهو يتمايلُ عجباً وتِيهاً، ولولا الحاجة لما كنت أقدمت على بيعه، وعندما أخذته من البيت حزنت امرأتي وأولادي عليه، وبكوا بكاءً شديداً على فقده وهو يناغي «قل قل قل قل» ليشوِّقهم ويزيدهم بكاءً، قاتل اللَّهُ الحاجة التي جعلتني أعرضه للبيع، ألا تزيدون فيه على اثني عشر قرشاً؟

فتقدَّم رجلٌ من أهل السوق، وقال للشيخ: كُنْ براحةِ بال فإنَّك غافِلٌ عن

---

(١) ويسمى بمصر (الديك الرومي).

الحقيقةِ تماماً، فالطيرُ الذي كُنّا نبيعُهُ أمس ليس بطائرٍ مصبوغٍ كما زعمْتَ بل هو لونه الذي خلقه اللّهُ به، وهو الطائر المسمى بالببغاء.

فأجابه الشيخ: أوَ ليس هو طائراً. فما هي فائدتُهُ وما هي معارفُهُ؟

فأجابوه: إنَّ هذا الطائر ذو معرفةٍ، وهو يتكلَّمُ كالإنسان. فنظر الشيخ إلى ديك الحبشِ، وهو تحت إبطِه، وأشار إليه وقال: إذا كان ذلك يتكلّم فهذا يفكِّرُ جيداً.

☆☆☆

١٨٤

لو لم أقطعْهُ لسحبتُهُ وأوقعتني

وقف في نافذة داره، وقد حَصِرَ[1] حصْراً شديداً فأخذَ يبوّل منها على الطريق، فمرَّ من أمام دارِه رجل، فقطعَ الشيخُ بوله فقال الرجل: لماذا قطعته؟

فأجابه: لو لم أقطعه لأمسكْتَ به، وسحبته كالخيطِ وأوقعتني على الأرض.

☆☆☆

١٨٥

هذا رأس حماري

سُرِق مقودُ حماره المزينُ بالودع، فقبض على أُذُنَيْ الحمار وذهب به إلى البيت، وبعد يومين رأى نفس ذلك المقود برأس حمارٍ كبيرٍ فعجِب من ذلك، وقال: هذا الرأس رأس حماري، ولكن كيف تبدّل جسمه؟

☆☆☆

١٨٦

أنت لا تسألني وأنا لا أتكلم

سلّمه يوماً أحدُهم علبةً مغلقةً وقال له: أرجو أن تحفظها إلى أن أعود، ومضت بِضعةُ أيام، ولم يحضر الرجلُ، فقال جحا: عجباً ما تحتوي هذه العلبة؟ ثم فتح الغطاء فوجد فيهَا عسلاً مصفًى من أجود ما يكون فسال لُعابُهُ وغمسَ إصبعَهُ ولحس، فأعجبهُ

(١) حَصِرَ: أي عَيِيَ في النطق. وأصله من الحصر أي الضيق والاحتباس.

فصار، كلَّما دخل وخرج، لعق لعقةً وينتحِلُ أسباباً ليدخل إلى المكان الموجود فيه العلبة إلى أَنْ لم يبق فيها شيء. فأخذ حفنة ذرةٍ ورشَّها في أسفل العلبة.

وبعد مدةٍ حضر صاحب العلبة، وطلبها، فناولَهُ إيَّاها بكل فتور، فوجدها خفيفةً ففتحها فلم يجد فيها شيئاً من العسل فقال له: أين العسل؟

فأجابه الشيخ: لا أنت تسألني ولا أنا أتكلَّم.

☆☆☆

١٨٧

لا عادل ولا ظالم

كان تيمورلنك السفاك[١] عندما استولى على بلاد الأناضول، يُحْضِرُ علماء البلدة وفضلاءها ويسألهم: أنا عادل أم ظالم؟

فإن أجابُوه، أنك عادل، ذبحهم، وإن قالوا: إنَّك ظالم قتلهم، فضاق ذرعُهُم، فجاؤوا يقصدون الشيخ لما اشتهر به من الأجوبة السديدة الحاضرةِ، وقالوا له: لا ينقذنا من شرِّ هذا الظالم غيرُك فافعل ما أنت فاعلٌ، وانقذ عباد اللّه من سيف نِقْمته.

فأجابهم: إنَّ التخلُّص من هذا الرجل ليس بالأمر الهيِّنِ كما تعلمون، ولكنِّي أرجو أن أُوَفَّقَ إلى ما تطلبونه.

وبكلِّ حِيطةٍ جاء مقرَّ تيمورلنك. فأعلمُوهُ أنَّهُ حضر من يقدِرُ أن يُجيب على سؤالك، فأحضروه أمامه وأورد عليه ذلك السؤال، فأجابه الشيخ: أنت لست ملكاً عادلاً ولا باغياً ظالماً، فالظالمون نحن وأنتم سيف العدل الذي سلَّطه الواحد القهار ذو الجلال على الظالمين.

فأُعجِب تيمورلنك بهذا الجواب وسُرّ من الشيخ واتَّخذهُ نديماً خاصّاً له، ولم يعد يُفارقه مدة إقامته ببلاد الروم، وبهذه الوسيلة صان بلدته «آقَ شَهْرْ» وحواليها، بلْ كلَّ بلاد قرمان من صولةِ عساكر تيمورلنك وبغيهم[٢].

☆☆☆

(١) السفّاك: السفاح، القاتل.

(٢) بغيهم: ظلمهم.

١٨٨

ألا تعرفين السباحة قليلاً؟

كان للشيخ امرأتانِ، ففي ذاتِ يوم جاءتا إليهِ، وقالت إحداهما: أتحبُّني أنا أكثر أم تلك؟ وقالت الثانية مثل ذلك وتعلَّقتا به، فحار الشيخ، وأجاب أجوبةً مبهمةً كقولِهِ أحبُّكما سواءً ولكن لم تقنعا، وضايقتاه، حتى إنَّ الصغرى منهما قالت له: لو غرِقنا، ونحن نسبح في بحيرة «آقَ شَهْرْ» وكنت على البرِّ فأية واحدة تنقذ منا أولاً؟

فاضطرب الشيخ حاسباً هذا القول حقيقياً، وضاع صوابُه، ثمَّ التفت إلى امرأته القديمةِ وقال لها: أظنُّكِ تعرفين السباحة قليلاً.. أليس كذلك يا عزيزتي؟

☆☆☆

١٨٩

مَن يسلم مِن لسان الخلق للّه درُّهُ

ذهب وابنه، يوماً إلى إحدى القرى وأركب ابنه على الحمار، فصادفَهُ أحدُهم فقال: أفٍ من هذا الزمان، أنظروا كيف يركب هذا الغلامُ براحةٍ ويترك والده الشيخ الفاني يمشي على قدميه.

فقال الولد: يا أبي ألم أقل لك اركب أنت فلا تعاندني. فركب الشيخ، ونزل الغلام، فصادفهما جماعة فقالوا: أيَليق بهذا الشيخ الذي قويَ جسمه وعرك السنين أن يدع هذا الغلام الغضَّ يمشي وهو يركب؟

فأخذ الشيخ ابنه من يده وأردفه[1] وراءَه، وما سار قليلاً حتى صادفهما آخرون، فقالوا: تأملوا يا ناس في إنصاف هذا الرجل كيف يركب ويُردِفُ ابنه على هذا الحمار الضعيف.

فغضِبَ الشيخ ونزل هو وابنه وساقا الحمارَ يرمحُ أمامهما وهما يمشيان بذلك الحر المحرق، فصادفهما جماعةٌ فقالوا: اللّه اللّه من هذين يتركانِ الحمار يرمحُ، وهما يمشيان في هذا الحر الغبار.

فقال الشيخُ: يا هؤلاء مَنْ يسلم مِن ألسنة الخَلْقِ فلِلّهِ درُّهُ.

☆☆☆

(١) أردفه: أركبه وراءه.

١٩٠

وأنا لم أقدر أن أركبه

كان قوم يتفاخرون بفروسيتهم في أيام الصبا، فنهض الشيخ، وقال: جيء ذاتَ يوم بجوادٍ حرونٍ[١] للغاية، لا يُمكِنُ التقرّبُ منه، فتقدَّم إليه أحد شجعان القرية فلَم يقدر على ركوبه ولا التقرب منه، وقفز واحد على ظهره فرفسه وصرعه على الأرض، وأتى آخر فلم يمكنه الركوب أيضاً، فعندها أخذتني الحميَّة فرفعت أذيالي وشمّرت عن ساعدي، وأمسكت بعرفه بسرعةٍ، وقفزتُ (ودخل في تلك البرهة أحد أصحابه) فأكمل حديثه قائلاً: ولكنّي لم أقدِرْ أن أركبه.

☆☆☆

١٩١

أحبُّ من معها عقد الودع الأزرق

كان للشيخ زوجان وقد أهدى كُلّاً منهما عقد ودعٍ أزرق ونبّه على كلٍّ منهما قائلاً: إيَّاكِ أن تُريه إلى ضرّتك، لأنَّه علامة حبِّي لك.

ففي ذات يوم هجمتا عليه، وقالتا له: مَن تُحِبُّ مِنّا وقلبُك مشغوفٌ بها؟

فقال لهما: إنّي أحبُّ مَن معها العقد الأزرق. فكانت كلُّ واحدةٍ تعتقِدُ أنَّهُ يحبُّها أكثر من الأخرى.

☆☆☆

١٩٢

هل تشاجرتا من أجل العمر؟

جاءهُ رجلٌ في ارتباكٍ عظيم وقال له: لقد تشاجَرَتْ إمرأتي وأختُها وكادتا أن تخنقا بعضهما، فأرجو أن تحضر لعلّك تتَّخذ وسيلةً لإصلاح ذات بينهما.

فأجابه الشيخ: هل تشاجرتا من أجل العمر؟

فقال الرجل: كلّا يا سيدي لم تبحثا عن الأعمار.

---

(١) جواد حرون: لا ينقاد، يقف في مكانه ولا يبرحه.

فقال له: اِذهب إلى البيتِ إذن فلا لزوم للارتباك فربَّما تكونان قد تصالحتا.

☆☆☆

(١٩٣)

لا كلام بهذا

كان جحا يصلِّي بعد الإفطار في رمضان صلاةً مختصرةً، ثمَّ يتمِّم الطعام، فدعوهُ يوماً إلى الإفطار وأوعزوا إلى الإمام أن يطيل القراءة في الصلاة.

فأخذ الإمام بتلاوة سورة الفاتحة فجوّد ماداً الكلام مطولاً حتى ضجر جحا، وبعد الفاتحة بدأ الإمام بقراءة سورة يس، فما قال (يس) حتى قال جحا: يعلم اللَّه أني لا أحتمل فلكلِّ شيءٍ وقت. وخرج من الجماعة ونوى الصلاة منفرداً، فقال الإمام (والقرآن الحكيم... اللَّه أكبر) فعاد جحا مقتدياً بالإمام، قائلاً: هذا لا كلام فيه!

☆☆☆

(١٩٤)

لماذا تنظر ولا تأكُلُ؟

ذهب من بلدته «آقَ شَهْرْ» إلى سيوري حصار، وكان جائعاً وكيسه فارغاً، فمرّ بالسوق، ورأى باعة الخبز يخرجونه من الفرن طرياً، وقدِ أنتشرت روائحُهُ الزكية، فقال للخباز: هل هذا الخبز لك؟

فقال: نعم.

فكرَّر جحا عليه: وهلْ كُلُّ هذا الخبز وهذه الأرغفة البيضاء لك؟

فأجابه الخباز: لماذا تُضايقني؟ أجل كلُّها لي.

فأجابهُ جحا بكل اهتمام: طالما المسألة كذلك فلماذا أنت جامِدٌ تنظر ولا تأكل؟

☆☆☆

(١٩٥)

دعني أقابل صديقي القديم

دعاهُ ولي أفندي زاده من وجوه البلدة إلى الإفطار، عنده في رمضان. وكان

قد تجوّل معه في النهار، وزارا مساجد البلدة كلَّها. وقد جاع جحا جوعاً شديداً.

فلما دخلوا غرفة الطعام كان ديك الحبش (الرومي) المحشوُ والبقلاوةُ والفطايرُ وما ماثل ذلك من الأطعمة الجيِّدة ممدودةً على الخِوان[١]، ولم يعد الشيخ يطيق الصبر فتقدَّم، وجلسوا أمام المائدة فجيء بحساءِ (الشوربا) بالكرش، تفوح منها الروائحُ الزكية، فأخذ صاحب الدعوة ملعقةً، والتفت إلى الخادم، وقال له: كم مرةً نبهتُكَ أن لا تضع في الطعام ثوماً. فأرجعوا هذا الصحن، وارفعوه مِنْ أمامنا. فرفعه، والزبدة فوقه وجحا يتحسَّر ولا يُظهر تحسُّره، ثم أَتوا بالديك الروميِّ مَحْشُواً كأحسن ما يكون تفوحُ منه روائح البهارات، فالتفت صاحب البيت إلى الخادم، وقال له: تعساً لكم أما أمرتكم أن لا تضعوا أفاويه[٢] بهذا المقدار في المآكل فارفعهُ حالاً. فرفعه، وجحا يتأوَّهُ ويتحسَّرُ، وهو يشيِّعه[٣] بنظراتِه حزيناً كئيباً.

وأتوا بالبقلاوة، فأراد أن يبدأ بإعطائها من عند جحا رعايةً للترتيب، فصاحَ به صاحب الدعوة قائلاً: أيُّها الأبلهُ كيف يأكل الإنسان الحلوى قبل الطعام؟ انهزِم من هنا. فانسحب الخادمُ مذعوراً.

ولما رأى جحا أن كلَّ نوع من الطعامِ أُخِذ من أمامه بحيلةٍ من الحيل أخذ ملعقةً وهجم على صحن الأرز الموضوعَ على الخوانِ، وهو مغطى بالفستقِ واللوزِ، تتضوَّع[٤] منه الروائحُ العطرية كالعنبر، وأخذ يزدرد ملعقة تلو ملعقة.

فقالوا له: انتظِرْ يا جحا إلى أن يجيء وقت الأرز.

فقال لصاحب الدعوة: يا سيِّدي أمهلني قليلاً لِأُقابل هذا الصديق القديم، بينما أنت تعدِّدُ ذنوب تلك الأطعمةِ، وتقوم بمجازاتها لأني مشتاقٌ إلى سؤالِ خاطره وافتقادِ صحتِه، وأما أنت فثابِر على شغلك.





لا تجعليهِ رقيقاً فيُقطع

تقدمت إليه امرأتان فاتنتان عندما كان قاضياً في «سيوري حصار» فقالت

---

(١) الخوان: مائدة الطعام.

(٢) أفاويه: بهارات.

(٣) يشيّعه: يودّعه بنظراته.

(٤) تتضوّع: تنتشر.

إحداهما: لقد أَوْصَيْتُ هذه على عمل خيوط ثخينةٍ لشعري، فنسجت لي خيوطاً رقيقةً، وحسرتِ الحجاب عن وجهٍ كأنه البدرُ، وأرتهُ شعرها اللماع كقُصاصة الذهب قائلة: فلترُدَّ لي دراهمي. فقال جحا: سبحان اللّه، والتفت إلى المرأة الثانيةِ، وقال لها: ماذا تقولين أنت؟

فقالت بصوت يرتجف غضباً: كانت مقاولتنا أن يكون كخنصري هذا لا كساعدي، وكشفت عن ساعدها الأبيض وهو ثخنة كعمودٍ من فضَّةٍ. فابتسم جحا وقال لها: كفى كفى يا ابنتي لا تجعلي الخيط ثخيناً ولا تجعليه رقيقاً يُقطعُ كقلب شيخِكما.



١٩٧

أعطني شلتة أجعلها فراشاً وأخرى لحافاً

كان يوماً ضيفاً عندَ أحدهم، فتأخَّر قليلاً، فتعشَّى صاحبُ الدار ظانّاً أنَّ جحا تعشَّى أيضاً، وجاء جحا فسامره ولاطفه وأمضى معه هَزِيعاً من الليل[١]، ثمَّ دخل أصحاب الدار للمنام بعد أن قالوا للشيخ: «تصبح بخير، خذ راحتك»، وكان الخادم قد أعدَّ له فراشاً نظيفاً جيداً وذهب.

ولمَّا خلا الشيخ بنفسه جاع وأراد النوم فلم يقدر، فأخذ يجول في الغرفة فلم يفده ذلك، واشتدَّ عليهِ الجوع، فتقدَّم من البابِ الداخليِّ وقرعه، فردَّ عليه من الداخل: ما هذا؟ ما هذا؟.

فأجابهم مُسترحماً: إني عصاميٌّ وفراشكم الواطىء حرمني النوم، فهل لكم بشلتة أجعلُها فِراشاً وأُخرى لِحافاً ووِسادةٍ، حتى أنام بهناءٍ وراحةٍ، ولكم الفضل؟

☆☆☆

١٩٨

أنت لك الرنين وذاك له الدراهم

ادَّعى بعضُهم على آخر أمام الشيخ، وكان قاضياً، أنه رأى في منامه أن ذلك الشخص (المدَّعى عليه) أخذ منه دراهم عدَّها له وكان لها رنين، ثمَّ قال: والآن أطلبها فلا يعطيني إيَّاها.

(١) هزيعاً من الليل: قسماً منه.

ففكَّر الشيخ قليلاً في هذه القضية، ثمَّ أمر المدَّعى عليه بإحضار مقدارٍ من الدراهم إلى المحكمة فأحضرها بعد تردد واعتراض، ونادى الخصمين، فلمَّا وقفا بين يديه ابتدأ يعدُّ الدراهم ويفحص رنينها حسب المعتاد، ثم التفت إلى المدعي، وقال له: خُذْ هذا الرنين، وقال للمدعى عليه: خذ أنت دراهمك، ولا تتجاوزا حقوقكما.

☆☆☆

١٩٩

دعوني من تعبير رؤياه

رأى تيمورلنك في منامه رجلاً أزعجه فقتله. وسمع الشيخ خبر الرؤيا، فأسرع إلى أشيائه فجمعها وفرّ إلى قريةٍ أخرى.

فسألوه: لماذا تركت هذا الرجل، وقد وافق نجمك نجمه، وهو لا يغضب منك، وذهابك يضرُّ بالبلدة؟

فأجابهم الشيخ: كنت في اليقظة أُدَبِّرُ كلَّ مسألةٍ بعناية اللّهِ تعالى، حسب ما يلزم وأحتاطُ وأحترزُ ما أمكن، فتدخُلي الآن في أحلامِهِ، إذا لم يوافق تعبيري لها مرامه خطرٌ عظيمٌ، والعاقبة أليمة فدعوني من تعبير رؤياه.



٢٠٠

عارٌ عليك أن تُهينني من أجل خمسة غروش

كان مديناً لبقالٍ بثلاثةٍ وخمسين غرشاً، فيوماً كان الشيخ جالساً مع بعض أصدقائه في السوق، فمرَّ البقال من أمامه وأشار إليه بمعنى أنك إذا لم تُعْطني حقِّي فإنِّي أُهِيْنُك أمام أصدقائك، فانتقل الشيخ إلى الجانب الآخر، فحضر البقال إلى ذلك الجانب وأشار إليه مهدِّداً أيضاً.

فاستاء الشيخ من هذه المعاملةِ، وجعل يكرِّرُ «لا حول ولا قوة إلا باللّه» ولم يكن الرجل ممَّن يندفع بمثل هذا القول، وشعر الحاضرون بالأمر. والبقال ما زال مصرّاً على عمله. فأخذت الشيخ الحِدّة وانتهر البقال قائلاً. أنا مدين لك بثلاثة وخمسين غرشاً أليس كذلك؟ فقال: نعم. قال الشيخ: فما عليك إلا أن تجيئني

غداً أعطيك منها ٢٨، وبعد غدٍ أُعطيك ٢٠ فالجملة ٤٨ غرشاً، فماذا يبقى؟ قال البقال: يبقى خمسة قروش.

فقال له جحا: أفلا تخجلُ أيُها القليل التربية والحياء أن تعاملني هذه المعاملة السيئة في السوق أمام أصدقائي وأعدائي من أجل خمسة غروش؟

☆☆☆

(٢٠١)

إذا أخفيت الصوت فماذا تفعل بالرائحة؟

كان أحدهم جالساً عند الشيخ، فخرج من الرجل صوت فخجل وأخذ يضرب الخشب برجله لكي يُخفي الصوت.

فقال له الشيخ: إذ أخفيت الصوت فماذا تفعل بالرائحة؟

☆☆☆

(٢٠٢)

أُبشِّرُكُمْ بأنثاه

كان في جيش تيمورلنك كثيرٌ من الفيَلة، فبعث بواحد منها إلى قرية الشيخ يرعى هناك، فلم يُبْقِ في مزروعاتِ القرية، ولم يذرْ، فاجتمع القرويون بالشيخ ورجوا منه أن يرفع عنهم هذه النازلة.

فأخذهم وتوجَّه بهم لمقابلة تيمورلنك، ولمَّا مثل بين يديهِ، قال له: لقد انتدبني هؤلاء القوم عنهم بتقديم واجب الشكر على إحسانكم العميم بتخصيص قريتنا بفيل من أفيال عظمتكم. وبما أنَّ الفيل اشتاق إلى أنثاه في ديار الغربة فنسترحم صدور أمركم بإرسال أُنثى له وبذلك تزداد دعواتنا لسدَّتِكُمُ الملوكية.

فسُرَّ الملك من ذلك، وأنعم على الشيخ بالخلع والهدايا والتُّحفِ، وأمر أن يبلِّغ القرويين تحياته، ثم أصدر أمره بإرسال فيَلة إلى قرية الشيخ.

وخرج الشيخ مسروراً مستبشراً بما ناله من الإنعام، وتألَّب أهلُ القرية يسألونه: ماذا فعلت؟ ولعلَّك تبشِّرنا بخبرٍ سارٍ؟ فأجابهم الشيخ: أبشِّركم فقد أمر بإرسال أنثاه أيضاً، وهو يُنعم عليكم بالسلام الوافر.

☆☆☆

٢٠٣

أصلح اللَّه القاضي

كان في عهد الشيخ بمدينة قونية قاضٍ مشهورٌ بالارتشاء، وكان للشيخ إعلامٌ يريد تصديقه من القاضي، وقد اتَّخذ كُلَّ الوسائلِ فما أمكنه أن يصدِّقه إلَّا أن حضر بالذات إلى قونيةَ، وقدم جرَّة عسلٍ كبيرةً للقاضي، فعندما رآها القاضي خرج إلى محل الضيوفِ، وقابل الشيخ بكلِّ ترحابٍ، وختم الإعلام فتناوله الشيخ ووضعه في عُبِّهِ، وسار بعد أن نظر إلى القاضي نظرة ذات معنًى.

ولم يمضِ يومان حتى أهدى بعضهم إلى القاضي شيئاً من القيمق (القشطة)، فأسرع إلى الجرَّة وأدخل فيها الملعقة قاصداً إخراج شيء من العسل فلم يجد غير قطعةٍ من الطِّين، قد يبست في أسفل الجرَّةِ، فغضب القاضي، وقال للمحضرِ أسرعْ وائتني بهذا الشيخ المسمى نصر الدين، فذهب المُحْضِرُ إلى السوقِ، فوجد الشيخ يبتاع[1] أشياء بيتيةً ليذهب بها إلى بلده، فدنا منه بكل احترام قائلاً: يا سيدي لقد وقع في الإعلام نقصٌ في السَّبْكِ والربطِ، ويريد أخوكم القاضي إصلاحه وإعادته.

فتبسَّم الشيخ باستهزاءٍ، وقال: ليس في الإعلام الشرعيِّ شيءٌ من النقص، وإنَّما هو في عقلِ مولانا القاضي، وقد أصلحَ الإعلام بعض مأموري معيته فأرجو أن يصلحَهُ اللَّه كذلك. وعاد إلى تهيئة لوازمه السفريةِ، وخرج من البلدة.



٢٠٤

أنا أعرف طبعها المُعاكِس

كانت حماتُهُ أمام النهر تغسل ثياباً لها، فزلِقَت رجلُها ووقعت في النهر، وأسرع الناس إليها ففتَّشوا على جسدها فلم يعثروا عليه فأخبروا الشيخ بذلك، فحضر وذهب إلى منبع النهر باحثاً فيه عن الجثَّة. فقالوا له: الجثة تذهب نزولاً للماء لا صُعُوداً.

فهزَّ رأسهُ وقال لهم: أنتم لا تعرفون أنَّ كلَّ أعمالها عكسية فاتركوا لي ذلك فأنا قد تعلَّمت طريقتها.

---

(١) يبتاع: يشتري.

(٢٠٥)

يوجِّه وجهه نحو ثيابه

كان أحدُهم يغتسلُ في بحيرةِ «آقَ شَهْرْ» وكان الشيخ هناك، فقال الرجل: إذا كان الإنسانُ يغتسلُ فإلى أيِّ جهةٍ يجبُ أن يوجِّه وجههُ؟ فأجابه الشيخ: يوجِّه وجهَهُ إلى الجهة التي فيها ثيابُهُ.

☆☆☆

(٢٠٦)

لو لم أخنقه لكان خنقني

كان يوماً ضيفاً عند أحدهم، فأعطاه قبل النوم قاووقاً كبيراً، ليلبسهُ في نومه، فأخذهُ الشيخُ وربطَهُ من نصفِهِ ولبسَهُ قائلاً: غداً أحلُّ الرباط، فيعودُ إلى حاله، ونام.

وقبل أن يستيقظ جاء صاحب الدار فقال له مازحاً: ألم تزل نائِماً كأنَّك صِرْتَ من أهل الكهف؟ ودخل الغرفة فلما رأى الشيخ بشكله العجيبِ رابِطاً القاووق من وسطِه قال له: لقد خنقت القاووق!

فأجابه الشيخ: يا ولدي لو لم أخنقه لكان هو خنقني.

☆☆☆

(٢٠٧)

كما تدين تُدان

أصاب الشيخ من أحد جيرانه ما أصاب قاضي قونية منه، فقد أوصى ذات يوم جاراً له على مقدارٍ من الزيت، فأخذ الرجل الزجاجة ووضع فيها بَولاً وجعل فوقه قليلاً من الزيت وبعث بها إلى الشيخ.

وكانت امرأته قد هيَّأتْ أدوات قلي الباذنجان ووضعت المقلاة على النار، ولما أخذت زجاجة الزيتِ، وصبَّت ما فيها في المقلاة أخذت تفرقِعُ وانتشرت الروائحُ السيئة، فانتبه الشيخ وامرأته إلى ما فعله جاره، فقال: فعلها معي ولكن لا بأس.

وانتظر إلى أن مضت عدَّة أيام على ذلك، فأخذ عُلْبَتَي عُطُوس متشابهَتَين تماماً ووضع في إحداهما عطوساً وفي الأخرى غائطاً يابساً مدقوقاً وكان جاره

ولوعاً بالعُطُوس.. فوقف الشيخ في مكانٍ قريبٍ منه، أخذ يتنشَّق العطوس باشتهاءٍ وتلذُّذٍ قائلاً: «أوه ما أجوده! كأنه العنبر، فتَّعَالَ يا كيفي تَعالَ!» ورآهُ جارُهُ فعنَّ له العطوس واقترب من الشيخ قائلاً: أَعطني شمَّةً من عُطُوسك العنبريّ.

فامتنع جحا تشويقاً له، ثم قال: قد أهداني القاضي شيئاً من هذا العطوس المُهدى إليه. فألحّ عليه جاره بالطلب فما كان منه، إلَّا أن أخرج العلبة الثانية، وناوله إيَّاها. ففتحها ذاك بكلِّ شوقٍ، وأخذ بين أصابعه كمية عظيمةً وتنشَّق فما أن وصلت إلى دماغه حتى كاد أن يغشى عليه من كراهة الرائحة التي انتشرت في حلقه ودماغه، فقال لجحا: اللّه يجازيك على عملك، ما هذا العطوس؟

فأجابه جحا: هذا راسب زيت أمس، وكما تدين تُدان!

☆☆☆

٢٠٨

وأنتِ محقَّةٌ أيضاً

كان لأحد أحبابه قضية عنده، فحضر إلى دار جحا، وسَرَدَ[١] له دعواه، وقال له: ألست محِقّاً في هذه الدعوى؟

فقال: أجل أنت محقٌّ يا أخي.

وجاء خصمه في اليوم الثاني ولم يكن يعلم بما فعل الأولُ، فعرض على الشيخ القضية بتفاصيلِها، وقال: ما قولك يا شيخنا ألستُ مُحِقّاً؟

فقال له: كيف لا؟ أنت محقٌّ.

واتَّفَقَ أنَّ امرأته سمعت قوله للمدعي والمدَّعى عليهِ، فقصدَتْ أن تُخْجِل الشيخ فقالت له: أمس حضر جارنا فلانٌ، فقلت له: إنَّهُ محقٌّ، وجاء اليوم خصمُهُ، فقلت له: إنَّه محق... فكيف يكون المدعي والمدعى عليه محقين في دعوى واحدة؟

فأجابها ببرود: وأنت يا عزيزتي محقَّةٌ أيضاً.

☆☆☆

(١) سرد: روى، قصّ.

٢٠٩

مَن باع بخار الطعام يقبض رنين الدراهم

عثر أحد فقراء مدينة «آقَ شَهْرْ» على كسرة خبز يابسة، فأخذ يفكِّر في إدام يغمسها به. فمرَّ بدكان طاهٍ، وقد رأى الطعام يغلي، وروائحُ البهار كالعنبر صاعدةً منه فتقدم إلى القدر وأخذ يقطع اللُّقم من الخبزِ، ويرفعها فوق البخار المتصاعد، وكلما ترطَّبت يأكلها.

فعجِبَ الطاهي لهذا النوع من الطعام، وأخذ يتأمَّل فيه.. وبعد أن فرغ الفقير من كسرة الخبز وأراد الانصراف قام الطَّاهي وتعلَّق به طالباً ثمن ما أكله فامتنع الفقير لأنه لم يتناول سوى البخار فشكاه الطاهي إلى الشيخ، وكان قاضياً في «آقَ شَهْرْ» فأحضر الفقير أمامه. وبعد ما سمع الشيخ إقرار الطرفين على الأصول المتبعة، أخرج بضعة دراهم من جيبه ورنها بقرب أذن ذلك الطاهي قائلاً: هات أذنك وخذ رنين الدراهم.

فقال الطاهي متحيِّراً: ما هذه المعاملة يا سيدي؟

فأجاب الشيخ: هذا موافق للعدلِ والحقّ. فمن باع بخار الطعامِ يقبض رنين الدراهم.

☆☆☆

٢١٠

مَن لا يأكل ماله يؤكل أمامه

عمل في أحد الأعياد حلوى، وأكلها مع امرأته بكلِّ سرور. وجلسا يتسامران إلى أن حان وقت النوم فاضطجع كلٌّ منهما.

ولكنَّ الشيخ ما كاد يرقد حتى هبّ من فراشه منبِّهاً امرأته قائلاً: جال في خاطري شيء لا يمكن نسيانه أو تأخيره. وسيحصل لك شيء من الارتباك احمليه على أهمية المسألة.

فقالت له: ماذا جرى؟

قال: قومي وناوليني بقية الحلوى.

فقامَتْ وناولته الطبق، فأخذ الشيخ يزدرد[١] بقية الحلوى بكلِّ اهتمامٍ.

(١) يزدرد: يطحن بأسنانه وبسرعة أكله.

وأخيراً تنفَّس الصعداء، وقال لامرأته: لم أقدِر أن أنام لاِشتغال أفكاري بهذه الحلوى، فقد فكرت كثيراً ولم أجد إلَّا أنَّ خير الطعام ما مرّ بالحلقِ، ونزل إلى المعدة، ومَن لا يأكل ماله يؤكل أمامه، فقمت وأتبعت القول بالعمل.

☆☆☆

٢١١

نادرةٌ منظومةٌ

[الرمل]

وَضَعَتْ زَوْجَتُهُ وَقْتَ السَّحَرْ ... فَأَنَارُوا ٱلشَّمْعَ وٱلنُّورُ ظَهَرْ
ثُمَّ ثَنَّتْ بِغُلَامٍ أَزْهَرِ ... بِسُرُورٍ وَهَنَاءٍ مُزْدَهِرْ
عِنْدَمَا رَأَى ٱلشَّيْخُ ما قَدْ رَأَى ... أَطْفَأَ ٱلشَّمْعَةَ فِيهَا وَٱرْتَأَى
غَضِبَتْ جَارَتُهُ مِنْ فِعْلِهِ ... وَعَلَتْ أَصْوَاتُهَا مِنْ جَهْلِهِ
ثُمَّ قَالَتْ كَيْفَ تُطْفِئُ شَمْعَنَا ... قَبْلَ أَنْ تَبْزُغَ فِيهِ شَمْسُنَا
فَأَجَابَ ٱلشَّيْخُ لَوْذا ٱلشَّمْعُ دَام ... لَرَأَيْنَا هُجُوماً لا يُرَامْ

☆☆☆

٢١٢

كُنْتِ تعلمين

امتلأَتْ خزانة أكل الشيخ بٱلنَّمل، فأخذ هو وامرأته في تنقيتها، حتى عجِزَا، وأدركتِ الشيخ صلاة الظهرِ، فتوضَّأ وصلّى، وبعد ساعةٍ جاء وقت العصر فقام يريد الوضوء والصلاة، فقالت له امرأته: أيتوضأ الإنسان خمس وضوءات لخمسة أوقات؟

فأجابها الشيخ: إذا لم يجد طريقة لهذه الخزانة فيلزمنا خمسة وضوءات لكل وقت.

وسكتا قليلاً، ثم قالت له امرأته: ولكن هل كنت تعلم ما أُقاسي من المشاقِّ في سحب الماء من البئرِ، وما تعانيه يداي من الحبل والدلو.

فأجابها بعد أن انسحب إلى جهةٍ وأَطلق ريحاً شديد الصوت: لو كنت تعلمين ما يدور في بطني من الريح وما أجده من الصعوبة في إيجاد مكان لتفريغه لرثيت لحالي.

(٢١٣)

ذوو اللحى ينامون فما بالك بالطفل؟

تقدمت إليه امرأته ذات ليلة وقالت له والهياج آخذ منها مأخذه: لا أدري ماذا حدث بهذا الطفل فهو لا يفترُ(١) عن البكاء مهما عمِلْتُ له وقد عجزت، فإن كنت تعمل له حجاباً للنوم، أو تقرأ له دعاء من أهل الكهف، أو تصنع ما أنت صانعه، فقد كلّت يداي من حمله وهزّه.

فأجابها الشيخ: ولماذا ترتبكين؟ هاتي هذا الكتاب. ضعيه أمامه وقلّبي أوراقه. وأعطاها الكتاب.. فغضبت وقالت: كأنك تريد أن تمزح معي، وأخذت تعنّفه، وتقول له: مليح جداً بعد أن تزوجتني، وقضيت أربك أهملتني فأصبحت عاريةً جائعةً وجعلت شعر رأسي مكنسة دارِك، ووقفت حياتي لخدمة بيتك، والولدُ ابنك لا ابن غريب فلماذا تسخر بي دائماً؟

فأجابها الشيخ: أيّتُها المرأة أنا عمِلْت الوسائل اللازمة فما معنى هذا الكلام الجاف الذي توجهينه إليّ وتقلقين راحتي به؟ فاعتدلت المرأة بحديثها، وقالت له بلسانٍ حادٍّ: ما هذا الكتاب وماذا يكون فيه؟

فأجابها الشيخ: اخفضي صوتك وتكلّمي.. فهذا كتاب القدوري الذي كلّما أقرأُه في الجامع على التلاميذ يحوم عليهم النوم وبعضهم ينام نوماً عميقاً ويأخذ بالغطيط(٢) فطالما أنَّ الرجال العقلاء ذوي اللحى ينامون كالمسحورين من تأثيره، فكيف لا يؤثِّرُ بهذا الطفل الصغير كالأفيون؟



(٢١٤)

ربطت شغلك في جميزة

كان الشيخ جالساً في نافذة داره المطلة على الطريق فرأى رجلاً له عليه دينٌ قديمٌ، فلم يشكَّ الشيخ بأنه آتٍ من أجله.

فقال لامرأته: قومي إلى الباب، وقولي ما يخطرُ لكِ، وادفعيهِ عنّا لعلّنا نخلَصُ من شرّه. فنزلت إلى الباب.

---

(١) لا يفتر، لا يتوقف ولا يتعب.

(٢) الغطيط: النوم العميق.

وما لبث الشيخ أن تبعها ليسمع ما يدور بينهما من الحديث فدقَّ الرجلُ الباب ففتحتهُ قليلاً وتكلَّمت من ورائه سائلة: مَن أنت؟

فأجابها الرجل: أظنُّك تعلمين من أنا عند سماعك صوتي. لأني جئتكم أكثر من مرَّةٍ، بل لعلَّ هذه المرة المائة. أنا صاحب الدَين وقد تجاوز عملكم حدّ العيب، فقولي لزوجك أن يحضر لأكلمه كلمتين (وكان كلامه هذا بحدة).

فأجابته المرأة بتأن: قل لي ماذا تريد أن تذكره له وأنا أنقله إليه. لا شكَّ بأنَّك محقٌّ في شكواك. وخُذْ مني وعداً جازماً بأننا سنوفيك دينك لأنَّنا اكتشفنا وسيلة جديدةً للرزق.

فقال: وهل تطول المدة؟

قالت: لا، فإن قطعان غنم القرية بدأت تمرّ من أمام بيتنا، وبمرورها يقع صوفٌ كثيرٌ منها فنجمعه ونغزلُهُ ونجعلُهُ خيوطاً ونبيعها ونؤدِّي إليك مطلوبك ولا نأكل حقَّ أحد.

فأخذ الرجل بالضحك بعد أن كان مُصْغِياً ينتظِرُ النتيجةَ بوجهٍ عابس.

وسمع الشيخ قهقهته، فمدَّ عنقه من الباب وقال له: آه منك أيُّها المِهذار، اضحك الآن فقد ربطت شغلك في جميزةٍ!

☆☆☆

٢١٥

له الأجرة ولك الصوت

عندما كان الشيخ في قونية ذهب إلى الحاكم وطلب منه أن يعيِّنه قاضياً. ولما لم يكن في مناصب القضاء مكان خالٍ اعتذر إليه الحاكم، ووعده. وعاد الشيخ بعد أيام يطلبُ وظيفة أُخرى، والحاكم يسوِّفُه ويماطِلُه[١].

ولما أعياه[٢] الأمر قال للحاكم: بما أنَّك قد أنلتني التفاتك، ووعدتني أكيداً بوظيفة حسنة، فقد جِئت أذكِّرك بوظيفة خاليةٍ لا طالب لها، ولا رقيب، ولا تضرُّ بالحكومة، ولا الأهالي، وتساعد حضرتك في الأشياء التي يصعب حلُّها.

فأجابه الحاكم: أجل. قل ما هي تلك الوظيفة لأعيِّنك لها؟

---

(١) يسوّفه ويماطله: يعده مواعيد ويخلفها في المستقبل.

(٢) أعياه: أتعبه.

فقال: أرجو أن تُعيينني «قاضي الظِّلّ» في معيتك.

فأُعجب الحاكم ومَن معه بهذا العنوان، وقال له: عينتك قاضياً للظلّ، وهذه غرفتك. وأراه غرفة.

فدخل الشيخ تلك الغرفة وقعد في زاوية منها ووضع أمامه صندوقاً، جعل عليه أدوات كتابة وأوراقاً كثيرة، وثابر[١] على الحضور كلّ يوم، إلى أن جاء في أحد الأيام رجل ماسكاً خصمه من تلابيبه[٢]، وقال للحاكم: يا سيدي هذا الرجل لا يعطيني حقي.

فقال الحاكم: ما هو حقُّك؟

فقال المدعي: هذا الرجل قطع اثنين وثلاثينَ قِنطارَ حطبٍ لسراج الدين أفندي، وكنت جالساً أمامه، وكلّما أخذ الفأس وضرب كنت أقول «هيه، هيه» وأشجعه وأقوّيه، فانتفع بمُساعدتي. ولما أخذ الأجرة لم يعطني شيئاً منها لقاء[٣] أتعابي.

فسأل الحاكم المُدَّعى عليه عن كلمة «هيه» فأجاب مصدقاً ما قاله المدَّعي، فلم يقدرِ الحاكم على فصل هذه الدعوى، وفكّر قليلاً فخطر في باله «قاضي الظل» فقال للمدعي: نحن لا نتدخل بمثل هذه الدعوى، وإنّما يراها قاضي الظِّلّ الجالسُ في الغرفة التي تراها أمامنا. فأخذهما المُحْضَرُ إلى الشيخ. ووقف الحاكم وراء الباب يستمع ما عسى أن يحكم به الشيخ.

وسمع الشيخ مقدمات الشكوى، كما تقدَّم شرحُها، ثُمَّ قال للمدعي: أجلْ، لك الحق بذلك، وإلا فما معنى أن تقعد أمامه وتتعب كُلَّ هذا التعب، وهو يأخذُ الأجرة كلَّها.

فقال المدعى عليه: يا سيدي أنا قطعت الحطب، وهو يتفرَّجُ عليّ، فأيُّ حقٍّ له بالأجرة؟

فأجابه الشيخ: أُسكُت فإن عقلك لا يدرك هذا. وطلب مُعدَّ الدراهم فأحضروه. فأخذ الشيخ الأجرة من قاطع الحطب تماماً، وجعل يعدُّها وقد أعلى يده لتحدث رنيناً شديداً. ولما أتم العمل قال للمدَّعى عليه: خذ دراهمك. والتفت إلى المدعي قائلاً: وخذ أنت صوتها!

☆☆☆

---

(١) ثابر: استمرّ، داوم.

(٢) تلابيبه: مجمع ما في موضع اللَّبَب من ثياب الرجل.

(٣) لقاء: بدل.

٢١٦

خذ هذا اللاشيء

مثل بين يدي الحاكم شخصان وادَّعيا ما يأتي:

قال المدعي: يا سيدي، إنَّ هذا الرجل كان حامِلاً على عاتقه[1] حطباً فزلقت رجله ووقع، وتبدَّد الحطب، فناداني وطلب مني أن أُساعده، فقلت له: ما تعطيني أُجرةً على عملي؟ فقال: لا شيء. فقلتُ له: نعم، ورضِيتُ، وساعدتُهُ على حمل الحطب، فلم يُعطني اللاشيءَ الذي وعدني به، فأنا أريد ذلك اللاشيء، وإلَّا ضاعت حقوقي.

فأحال الحاكم هذه الدعوى إلى «قاضي الظل»، فسمع جحا الدعوة مفصلةً، كما ذكرْنا آنفاً، ولما سمع المدعي يقول «حقوقي» أجابه: هاي هاي حقُّك يجب أن تحصلَ عليه، ولا بُدَّ له مِنْ أن يفِيَ بوعده ويؤدِّي ما عليه.

ثمَّ نظر جحا إلى سجادةٍ مفروشةٍ فوق مقعدِهِ. وقال للمدعي: تقدم يا ولد، وارفع هذه السجادة وخذ ما تجده تحتها.

فتقدَّم الرجل باهتمام ورفعها، ونظر إلى جحا قائلاً: لا شيء.

فقال له جحا: خذ لَا شيئك، واذهبْ ولا تقِفْ فهذا حقُّك.

☆☆☆

٢١٧

هل حيوانات هذه الطاحون كبيرة بنسبتها؟

كان جحا ماراً في أحد أزقَّةِ قونية، فرأى داراً مرتفعة عظيمة، فأخذ يُطِيلُ النظرَ إليها، ويحارُ في عظمةِ بنائها ورونقها.

فقال له الخادم الواقف أمامها: لماذا تنظر إلى الدار باهتمامٍ؟

فأجابه جحا: أتفكَّرُ في هذا البناء الجسيم[2]، ما هو يا ترى؟

فعندما رأى الخادم جحا بأطمارِهِ[3] البالية، وحالته الساكنة، قال له مازِحاً: هذه طاحون!

---

(١) عاتقه: كتفه.

(٢) الجسيم: الضخم.

(٣) أطماره: أثوابه القديمة.

فأجابه جحا: وهل حيوانات هذه الطاحون كبيرة بنسبتها؟

☆ ☆ ☆

٢١٨

لي الشؤون الخارجية ولها الأمور الداخلية

شبَّتِ النَّار في دار جحا فجاءه أحدُ جيرانه، وقال له: أسرع فقد شبَّتِ النار في دارِك وقد طرقت الباب كثيراً ولم يردَّ عليَّ أحدٌ.

فأجابه الشيخ ببرودٍ: يا أخي أقسمُ لك بِاللّه أنَّ أُمورُ البيتِ قد قسمناها شطرين، وأنا في راحة الآن، فأنا أجتهد في الخارج، والمرأة تُدِيرُ داخل البيت، فأرجو أن تذهب وتخبر آمرأتي إذ لا علاقة لي في أمور البيت الداخلية.



٢١٩

اذهب مع الحمار ثم أُخبرك

كان يسوق حماره، وهو ذاهب إلى كرم له فٱلتقى به أحد العوام، ورافقهُ وقصد المزاح معه فقال له: إلى أين تسير أنت وحمارك؟

فأشار الشيخ في الحال إلى الحمار وقال: اذهب أنت مع الحمار رويداً، وأنا لي شغل قليل هنا، أعمله، ثم أُجيبك عما سألتني عنه.



٢٢٠

فتحت فمي حتى كاد يتمزق

كان بعض المتصلفين[١] في مجلس يهذرُ[٢] بكلام لا معنى له ويأخذُ من كلِّ وادٍ عصا. وكان الشيخ منزوياً في جهة يتمطَّى. وعند قُرب ختام المجلسِ، التفت ذلك المِهذارُ، قاصداً المُزاح، وقال: لماذا لا تتكلَّم يا حضرة الشيخ؟

---

(١) المتصلّفين: المتكبرين.

(٢) يهذر: يتلفظ بكلام لا معنى له.

فأجابه الشيخ، وقد ضجِرَ مِنَ الصمتِ طويلاً: ماذا تقول؟ فقد فتحت فمي حتى كاد يتمزق.

☆☆☆

٢٢١

أوَ لم تلد أُمُّك؟

جاءته يوماً امرأةٌ، ومعها كنّتها، وشكَت إليه أنه لم يلد لها ولدٌ، وأنها وزوجها حزينانِ، وأن لا سرورَ، والبيت خالٍ من الأطفالِ، فهل عندك تميمة أو بخورٌ أو علاجٌ تفيدنا به أو طريقة لذلك؟

فتأثّر الشيخ، وتأمّل طويلاً والتفت إلى كُنّة المرأةِ، وقال لها: وهل هذه الحالة موروثة؟ وهل أن والدتك لم تلِدْ أولاداً يا ترى؟

☆☆☆

٢٢٢

آبارٌ مقلوبة

ذهب يوماً مع أحد رفاقه إلى قونيةَ، لتحصيل العلم، فرأى رفيقُهُ منارة قُونية المرتفعة، وكان لم يرَ ذلك قبلاً فقال للشيخ: كيف يبنون هذه يا ترى؟

فأجابه الشيخ: هذه آبار مقلوبةٌ.

☆☆☆

٢٢٣

مال الفقير يجب أن يكون نصب عينيه

كان يمضغُ مصطكى في مجلس فدعوه إلى الطعام، وعندما دخل الشيخ غرفة المائدة، أخرج قطعة المصطكى من فمه، وألصقها بأنفِهِ، فقالوا له: ماذا تصنع؟

فقال: مال الفقير يجب أن يبقى نصب عينيه.

☆☆☆

٢٢٤

ما أحسنه مرعى لو لم يملأْهُ ماءٌ!

كان آتياً من بلدته «آقَ شَهْرْ» إلى «سيوري حصار» لأول مرة، فعندما رأى بحيراتها الكبرى قال: انظروا ما أحسن هذا المرعى لهذه البلدة! ولكن ما الفائدةُ، وقد ملأوه ماءًا.



٢٢٥

اربطوه من أسفل

كان مسافراً بسفينة، فهبَّتِ الأنواءُ وتمزَّقَتِ القِلاع وأخذ البحارون يصعدون إلى الصواري يربطونها، فعندما رآهم كذلك قال لهم: لماذا تصعدون مرتفعين وعلّةُ المركب في الأسفل، فاربطوهُ من أسفل حتى لا يهتزَّ!



٢٢٦

خذ منه وَأعطِ الخباز

كان له دَينٌ عند بعضهم، فذهب إلى داره وطالبهُ فلم يعطه شيئاً، وقال له: ما معي بارة، فعاد الشيخ خائباً خاسِراً، وجاع جوعاً عظيماً، فمرّ بفرنٍ، وكان قد خرج الخبز، وانتشرت روائحه الزكية، فأنتشل رغيفاً خِلْسة، وجلس تحت شجرة صفصافٍ، ورفع بصرَهُ إلى السماء قائلاً داعياً متوسلاً: «إلهي أنت تعلم أنّي جائعٌ ومُحتاجٌ إلى بارةٍ واحدةٍ، وتعلمُ أنَّ لي عند فلانٍ كذا قرشاً دَيناً، وأنت عالِمُ الغيبِ، وعلى كلِّ شيءٍ قدير. فخُذ لي بضع بارات منه على حساب مطلوبي، واعطها إلى هذا الخباز».

ثم أخذ يزدرد الرغيف لقماً كبيرة.

☆☆☆

٢٢٧

أصلح الأغلاط باليقطان

كانت الحكومة قد منعت حمل السلاح في زمن شباب الشيخ عندما كان يطلب العلم منعاً شديداً، وبينما كان ذات يوم ذاهباً إلى المدرسة، ومتأبّطاً يقطاناً كبيراً أخذوه إلى الحاكم، فقال له الحاكم:

ـ ألم تعلم أنَّ الحكومة منعت حمل السلاح، فكيف تحملُ هذا السلاح العظيم في ظُهْر النهار؟

فأجابه الشيخ: حملته لأني عندما أنظر في الكتاب أجِدُ بعض الأغلاط فأُصلحها فيه.

فأجابه الحاكم: أتمزحُ معي! ألا يُمكن إصلاح الغلطِ بغير هذه الآلة العظيمة؟

فقال الشيخ: يا سيدي، إنَّ من الأغلاطِ ما تكون هذه الآلة قليلةً بأزائِهِ.

☆ ☆ ☆

٢٢٨

عرج على السلم التي عرج عليها نبيّكم

جاءهُ بعض القسس وقالوا له: حُلَّ لنا هذا المشكل.

فقال: قولوا، واللّه كريم.

فقالوا له: كيف عرج نبيّكم إلى السماء؟ وبأي شيء صعد؟

فأجابهم بلا تردُدٍ: على السُّلَّمِ التي عرج عليها نبيُّكُم إلى السماء الرابعةِ!

☆ ☆ ☆

٢٢٩

ويأتي يوم لا أكون موجوداً

كانوا يتذاكرون في الحلوى يوماً، فقال الشيخ: لقد عنَّتِ الحلوى في بالي لا سيما اللوزية، ولكني لم أوفَّقْ إلى طبخها وأكلها.

فقالوا: ليست بالأمر الصعب. فلماذا لم توفَّقْ؟

فأجابهم: إذا وجدتُ الدقيق لا أجِدُ السمن، وإذا وجدْتُ السمن، لا أجد الدقيق.

فقالوا: أَوَ لا يمكنُك جمع ذلك معاً؟

فقال: ربَّما يُساعِدُ القدرُ، ويأتي يومٌ يجتمعان به، ولكن قد لا أكون أنا موجوداً.

☆☆☆

٢٣٠

أما كفاه حمله؟

حمَّل يوماً حمارَهُ حطباً، وركب مرتفعاً بعد أن أخرج رجليه من الركاب. فشاهده صبيان الأزقة. فأخذوا يضحكون من عمله. ثم قال له واحد منهم: لماذا لا تركب جالِساً وتستريح؟

فأجابه: يا أولادي أما يكفي الحمار حمله حتى أزيد عليه ثقلي أيضاً فيكفيه أنَّه رفع رجليَّ عن الأرض.

☆☆☆

٢٣١

ليس في الإمكان أبدع ممَّا كان

ركب حماره في يوم صائف متوجِّهاً إلى إحدى القرى ونزل في أثناءِ الطريقِ تحت شجرة جوز، وربط حمارهُ بأحد أغصانِها، وجلس يستريحُ، ويمسحُ عرقه المتصبب.

وكان هناك غصن قرع. فأخذ يتأمَّلُ في أثمارِهِ الضخمةِ، وفي شجرة الجوز العظيمة وثمرها الصغير، ثم قال: سبحانك ربِّي كيف خلقْتَ القرع من هذه الشجرة الصغيرةِ، وهي لا تتجاوز ثخانتها الخيط، وخلقْتَ الجوزَ الصغير من هذه الشجرة العظيمةِ التي أخذت مساحة دونم من الأرضِ، وجسمُها لا يكاد يحيط به شخصان. أما كان أحسن لو خلقت القرع على شجرة الجوز، وخلقت الجوز على شجرة القرع؟

واتَّفق في ذلك الوقت أن عقاباً نقر جوزة فوقعت على رأس الشيخ تماماً وكادت تشجه.

فقدحت عيناه الشرر وخلع قاووقه وأمسك رأسه بيديه وقد اعتراه خوف مِنَ اللَّهِ تعالى، وقال: التوبة يا ربي أنا لا أتدخَّلُ فيما بعد بما تفعل، إذ أن كل شيءٍ خلقتهُ، هو لحكمة يدركها من يعرف «أنْ ليسَ في الإمكان أبدعُ مِمَّا كانَ» فلو كانت «لا سمحَ اللَّهُ» القرعة مكان الجوزة لحطمت رأسي وذهبت بحياتي.

☆☆☆

٢٣٢

غرابٌ يصيدُ جاموساً

بينما كان الشيخ ذاهباً إلى بستانه، ذات يوم، رأى غلامينِ بأيديهما غراب يعذبانه حتى كاد يموت.

فتقدَّم إليهما، وقال لهما: لا تتشاجرا، ولا تميتا هذا الطائر المسكين. ولما كان الأولاد يميلون إلى الشيخ، ومداعباته، ويسمونه «قاضي الزاوية» فإنهم كانوا يصغون إليه للطافة طبعه، وحسن أخلاقه، وبشاشة[1] وجهه.

فقال له أحدهما: يا سيدي إن هذا الغراب كان على الشجرة التي تراها، فأنا أحنيت ظهري، وجعلت نفسي سلماً، وصعد رفيقي، فأتى به، والآن يقول لي: أنا قبضت عليه، فهو لي، وأنا الذي وضعته على عاتقي حتى أمكنه إمساكه ولولاي لم يكن في إمكانه أن يقبض عليه.. أليس كذلك؟

فقال الثاني: عفواً فأنت تعلم أني أصعد المنارة من خارجها، وهو وإن كان عمل نفسه سلَّماً، وصعدت عليه، فكل ذلك ليس بالشيء العظيم، إزاء القبض على الطائر، فلا يشبه ذلك جنى ثمر عن الشجر. فأنا الذي رأيت الغراب، وأتيت به بتدبيري، وصعدت على أغصان الشجرة بتأن، حتى جعلت الورق لا يتحرك، وأمسكته، وأنت لا تقدر أن تقبض على ضفدعة، ولا سلحفاة على الأرض.

فأجابهما الشيخ بهيئته المضحكة: لماذا تميتان هذا الطائر المسكين بين أيديكما، فإذا كنتما تُصغيان إلى حكمي، فلا لزوم لكل هذا الكلام الذي قلتماه، فالغراب ليس ثمراً يؤكل، ولا بذنجانة يشدّ كل منكما رأسها وذنبها، ولو لم أحضر لكنتما أمتَّاهُ، ولم يبق لك ولا لرفيقك، ولحم هذا الغراب لا يؤكل، حتى أقسمه بينكما. فخذا هذه الدراهم ثمناً له، وهو لازم لشيخكما. وأعطى الغلامين بضعة دريهمات، فأخذاها منه وسارا إلى السوق فرحينِ ضاحكينِ.

---

(١) بشاشة: ابتسام.

وللحال أفلت الشيخ الطائر الذي أصبح لا يقدر على الحركة، لما ناله من التعب بين يدي الولدين. فلم يُمكنه أن يطير على الشجرة، بل كان هناك جاموس، فحطَّ بين قرنيه، فسُرّ الشيخ وقال: لِلّهِ درُّك من بازٍ يصيد لي مثل هذا الصيد العظيم. ثم أخذ الغراب بيدٍ، وعِزقاً أخضرَ بيدٍ ثانيةٍ، وساق به الجاموس، وسار فرِحاً إلى داره.

وكان هذا الجاموس لجار له في المزرعة، ففتَّش عليه حتى يئس من وجوده، وطاش عقله. ولما أخبروه بالقصة ذهب إلى دار الشيخ، وقرع الباب، ففتح الشيخ الباب وقال له: ماذا تريد؟

فقال الرجل: أنت خبيرٌ بما أُريد، فبأيّ حقٍّ تأخذ جاموسي، وتجعلني أفتِّشُ عليه حتى المساء؟ وقد تمزَّق حذائي، واعترتني[1] الآلام؟

فأجابه الشيخ بلهجةٍ شديدة: تأملْ يا هذا فلستُ على رأس الجبل، بل هنا محكمةٌ وحاكمٌ إذا كان لك شكوى، فراجعْهُما لأن الصيد مُباحٌ في كل مكان، فأنا ٱبتغتُ ٱلغراب من الولدين بقرشين وهو غراب مُعلّمٌ، أرسلْتُهُ فصاد لي جاموساً من وسط الصحراء، فأنت بمجرد ٱدّعائك أنه لك، هل يخطر ببالك أنّي أُعطيك إياهُ؟ فٱذهبْ من هنا. ثم أغلق الباب، وطرد الرجل.

وفي اليوم الثاني راجع صاحب الجاموس الحاكم، فٱستحضرَ الشيخَ وسرَدَ[2] للحاكم مدعاهُ[3] تماماً، وأشار إلى الحاكم بأنّه سيُرسِلُ إليهِ جرة سَمْنٍ، فحكم له الحاكم بالجاموسِ، وأرسل الشيخُ في اليوم الثاني جرة السمن إلى الحاكم.

وفي اليوم الثالث أهدى بعضُهم للحاكم بيضاً، فأراد أَنْ يقلِيَ بضع بيضاتٍ بذلك السمن، ويأكلَهُ طعاماً نفيساً شهياً، ولم يضعِ الجرة في بيت المؤونة، بل جعلها في مكان قريبٍ منها، فصار يأخذ منها في الصباح والمساء بيده، زيادة في اللذة، وفي اليوم الرابع، وضع الملعقة لإخراج السمن من الجرة، وإذا بها علقت بشيء لزج أخضرَ غامقٍ في أسفل الجرة فتأمَّلَهُ وإذا به روثُ جاموس. فغضب الحاكم ونادى المُحْضِرَ، وقال له: احضر لِيَ الشيخ نصر الدين حالاً.

ولما كان الشيخ مُنتظِراً حضر في الحال. فقال له الحاكم وهو غضبان: بأيِّ حق تُطعِمُني روث الجاموس، وأنا حاكم هذه البلدة؟ فأجابه الشيخ: يا سيدي لا

(١) اعترتني: داخلتني.
(٢) سرد: قصّ، أخبر.
(٣) مدعاه: مظلمته.

تغضبْ، فأنت لم تتناولْهُ اليوم، بل لك ثلاثة أيام، تتناول منه، فهل سمعت أنَّ غراباً أعرجَ يُساوي قرشينِ يصطادُ رأس جاموسٍ، ثمنه ألف غرش، وكيف حكمت لي به، وعلى أيةِ شريعة بنيْتَ هذا الحكم؟

فبُهِتَ ٱلحاكمُ المُرْتشي منِ هذا الكلام، ومال مِنْ يومِهِ إلى العدل، وأبطل الارتشاءَ، وكان الشيخ، رحمه اللّه، سبباً في توبتِهِ، وأعاد الجاموسَ إلى صاحبِهِ.

☆☆☆

٢٣٣

قراءة الحمار بهذا المقدار

أهدى بعضُهُم تيمورلنك حماراً جسيماً حسناً، فسُرَّ بهذه الهديةِ، وطفق الحاضرون يمدحونه أمامَه، وكلٌّ منهم يقول كلمة في وصفه، حتى أصعدوه إلى مرتبة مخلوق عجيب.

وجاءت نوبةُ الكلام على الشيخ، فقال: أرى أن هذا المخلوقَ المليحَ في ٱستعدادٍ عظيم، وآملُ أَنَّهُ ربَّما يتعلمُ القِراءة.

فقال له تيمورلنك: إذا علَّمْتَهُ شيئاً من ذلك، فإنِّي أُفيضُ عليك الهدايا والعطايا والنِّعم، وإذا لم تَقْدِرْ على ذلك، فإنِّي أعاقِبُك فَضْلاً عن ٱتهامِك بالحمق.

فقال الشيخ: إنَّ الدعوى الباطلة أمامَك تُعَدُّ بلاهةً أو جُنُوناً، وأنا لم أَكُنْ منَ الحمقاءِ الذين يلعبون، ولسْتُ مجنوناً خارِجاً منَ المارستان، فلا بُدَّ لي من تعليمِهِ، وأرجو أنْ تُمهِلَني ثلاثة أشهر بعد إعطائي نفقات كافية، ودعِ ٱلبقيةَ لي.

فلبَّى تيمورلنك طلبَ الشيخِ لِيصلَ إلى هذه النتيجة الغريبة، وأمرَ له بالطعام والشراب، وأخَذَ الشيخُ يُعلِّمُ الحمارَ صباحاً ومساءً مدى ثلاثةِ أشهر، وفي آخرِ المدَّة أخذ بِمقود الحمارِ، وقد جعل عليه سَرْجاً مُزيَّناً وغاشيةً فِضّيةً، وأتى به مجلسَ تيمورلنك، وقرَّبَهُ من كرسيٍّ، وضع عليه دفتراً، فأخذ الحمار يقلِّب صفحاتِ الدفترِ بلسانِه، وكان أحياناً يتوجَّهُ نحوَ الشيخِ بهيئةٍ مُحزنةٍ، وينهق نهيقاً معجباً، فعجِبَ الحاضرون، وسُرَّ تيمورلنك من الشيخ وأعطاه عطايا وافرة، وسأله: كيف علَّمْتَ هذا الحمار؟ فقال:

عندَما أخذْتُ ٱلحمارَ، ذهبْتُ إلى السوق وٱشتريْتُ مائة رِقِّ غزالٍ من أحسنِ أنواعِهِ، وأعطيْتُها إلى المُجلِّدِ، فجعلها كتاباً ضخماً، وكنْتُ أرشُّ الشعيرَ مدةَ

خمسةَ عَشَرَ يوماً حتى صار يلتقِطُ حبَّاتِ الشعيرِ، وبعد ذلك، وضعْتُ الكِتابَ أمامهُ وكنتُ أجعلهُ يقلِّبُ هو الأوراق، وفي بعض الأحيان، كان ينسى حَسَبَ طبع الحمير، فكنتُ أُعيدُ عليه الدرسَ إلى أَنْ صارَ يُقَلِّبُ الأوراق بنفسهِ، متى أحسَّ بعامل الجوع، وكنتُ أحياناً لا أضعُ شيئاً من الشعيرِ بين الأوراق، فكان يقلِّبها ولا يجدُ شيئاً، فينهقُ إلى أن أتقَنَ العمل تماماً، وقد راقَ لي عملُه، فكنتُ أتسلَّى بذلك، وأُغرِبُ مِنَ ٱلضحكِ، لا سيَّما وقد حصلتُ على مال وافر، كنتُ أعيشُ به في غايةٍ مِنَ ٱلرفاهية، والامتحانُ الذي أدَّاهُ الآن هو على أثر جوعِهِ يومينِ، لذلك فإِنَّهُ لمَّا لم يَجِدْ شعيراً في الكتاب، نَهَقَ من فُؤادٍ حزين ناظِراً إليَّ كما رأيْتُم. وهذا الدفتر الذي ترونه مكتوباً، هو على مِثالِ الدفترِ الذي ٱتَّخَذْتُهُ تماماً، إلا أَنَّ الأول خالٍ مِنَ الكتابةِ، ما عدا بضعةَ خطوطٍ مشوَّشةٍ كالكِتابة.

فقال له بعضُ الحاضرين: أيةُ قراءةٍ، فنحن لم نفقَهْ منها شيئاً، أجلْ إنَّهُ قلَّبَ الأوراقَ، ونَهَقَ عند بعضِها، فهل معنى ذلك أنَّهُ تعلَّمَ القِراءة؟

فأجابه الشيخ: إن قراءةَ الحمارِ لا تكونُ إلَّا بهذا المقدار، والزيادةُ في ذلك تتوقَّفُ على نسبة الجنسِ، يا صديقي.



٢٣٤

هل تبيض الدجاجة المطبوخة؟

كان أحد التجار مُسافراً، فنزلَ في فندقٍ على الطريق، فقدَّم إليهِ الفندقيُّ دجاجةً وبيضتينِ ونصف رغيف خبز على العشاء، ووضع عَلَفاً لدابته حشيشاً. وفي الصباح عزم التاجر على مُبارحَةِ الفندق، فقال: نتحاسبُ في العودة، ونهضَ، وسار.

وبعد ثلاثةِ أشهرٍ، عاد فقدَّم له صاحب الفندق دجاجة وبيضتين، وعلفاً للدابة كالسابق، وعندَما نهضَ التاجرُ للسفرِ نادى الفندقيَّ، وقال له: هيَّا بنا نتحاسبُ، فقد طال الحساب، كم هو مبلغُ دينِنا؟

فأجابه الفندقيُّ: واللّهِ، إنَّ حسابنا طويلٌ إلَّا أنَّ علينا أنْ نتَّفِقَ، فهاتِ مائتي غرش حلالاً، واْذهبْ بالسلامة.

فأجابَهُ التاجر، الذي يعرف قيمة الدراهم، بحدَّةٍ: يا اللّهُ أيُّها الرجلُ هلْ أضعْتَ عقلك؟ أم لك نِيَّةٌ سيِّئةٌ؟ فما معنى طلبك مائتي غرشٍ، ثمن دجاجتينِ وأربع بيضات؟

فقال الفندقيُّ: أَلَمْ أَقل لك أنَّ الحساب قد طال وقتُهُ عليك، فإنِّي أفصِّلُهُ، فتظهرُ المسألةُ بأجلى مظاهرِها، وعندها لا يكون لك حقٌّ بإساءةِ الظنِّ، فأنت أتيتَ إلينا منذُ ثلاثةِ أشهرٍ، فالدجاجةُ التي أكلتها، لو باضَتْ كُلَّ يوم بيضةً لبَاضَتْ كذا بيضةً، ولو وضعْناها تحت دجاجةٍ رتقاء (قرقة) لحصل منها كذا وكذا فروجاً، وبالطبعِ فمنها ما يبيضُ أيضاً، ولو أضفْتَ إلى ذلك ما تناولْتَهُ في العودة، ومضت ثلاثةُ شهور، لصار لدينا جيشٌ من دجاجٍ، وأكتسَبْنا منها ألوفَ ألدراهم، لذلك فإنِّي أختصرتُ، وقلتُ لك: مائتي قرشٍ، فترى أنَّ ما طلبْتُهُ كان قليلاً إزاء هذه الخسائرِ الفادحة[١]؟

وأحتدم[٢] بينهما الجِدالُ حتى جُرَّتِ المسألةُ إلى المحكمة.. وعندما مَثُلا أمام الحاكم، أشارَ الفندقيُّ للحاكم بإهدائِهِ أوزاتٍ سمينةٍ، فسأل الحاكم ذلك التاجر: ألم تُقاولِ ألفندقِيَّ على ثمنِ الدجاجتين والبيضات؟

فقال: لم أجدْ لزوماً لذلك، نظراً لقلةِ القيمة، وقلتُ له: أحاسِبُك في العودة.

فقال الحاكم: وهل قطعت السعر أيضاً عندما عدْتَ؟

فقال التاجر: كلا.

فقال الحاكم: ألا يُمكنُ أن يَحْصلَ من دجاجتينِ وستِّ بيضاتٍ أُلوفٌ من البيض؟

فقال التاجر: لا شبهةَ، وسَرَدَ له بعض أعتراضاتٍ لم يقبلْها ألحاكِم، وجرحَها، فعندَما رأى أنَّ الحُكْمَ سيصدرُ عليه بمائتي غرش، اشتغلَ قلبُهُ وأضطربَ، فطلَبَ تأجيلَ القضيةِ فأجَّلها الحاكم.

وقال بعضهم للتاجر، راجع الشيخَ نصر الدين، فراجعَهُ، وأفهمَهُ القضيةَ بتمامها، وولّاه الدفاعَ عنه. فلما كان اليوم المعيَّنُ للمحاكمةِ، لم يحضُرِ الشيخُ فأرسلوا المُحْضِرَ وأتى به.

فقال له الحاكم بغضب وحدَّةٍ: لماذا تركْتَنا ننتظِرُكَ، ولم تحضرْ في الوقتِ المعيَّنِ، وجعلْتَ هؤلاء الحاضرين ينتظرونك؟

فأجابه الشيخُ بدون مُبالاة: لا تغضَبْ يا سيدي، فإنِّي عندما حان الوقت لِحضوري، وأنا على أُهبَةِ التشرُّف بالمُثولِ لديكم، جاء شريكي، الذي كُنْتُ دعوتُهُ لِنزرع حِنطةً في المزرعة، فقمتُ وأعطَيْتُه جوالقَ حنطةٍ مسلوقةٍ برغلاً، كلُّ حبَّةٍ

---

(١) الخسائر الفادحة: العظيمة.

(٢) احتدم: طال واشتدّ.

كحبةِ ٱلصنوبرِ لأنّي علِمْتُ بأنَّ الفلاح ربَّما يزرعُ لي الحنطةَ والزوانَ، وما أشبه ذلك، ولا أنالُ محصولاً كافياً فهو يأخذُ ٱلنصفَ بِٱلشركةِ، ويأخذُ كميةً كبيرة بذراً، والذي يبقى يأخذُ منه العُشرَ، وما أمِلْناهُ يذهبُ هباءً منثوراً[١]، فقلت: ما لي إلّا أنْ أزرعَ البرغلَ لِأنالَ محصولاً وافياً، فأعطيْتُهُ جوالقينِ مِنَ الحِنطةِ المسلوقةِ برغلاً، فهذا سبب تأخُّري عن الحضور.

فقال الحاكم: هلْ سَمِعْتُمْ أنَّ الحنطة المسلوقة تنمو؟ وهلْ يسمعُ العقلاءُ كلامَ هذا الرجل بهذا المقام؟

فأجابَهُ الشيخ: وهل تَلِدُ دجاجةٌ محمَّرَةٌ بيضاً، ثم يصيرُ زريبةَ دجاجٍ طويلةً عريضةً؟ وهلْ يجوزُ أنْ يُحْكَم على هذا الرجل أنْ يدفع ثمنَ دجاجتينِ وأربعِ بيضاتٍ مائتي غرش؟

فلم يسعِ ٱلحاكم إلّا أنْ نقضَ ٱلحُكْمَ، وتخليةَ سبيلِ ٱلتاجر.

☆☆☆

٢٣٥

هل يدفأ الإنسان من قنديل على مسافة فرسخ؟

اتَّفَقَ جيرانُ الشيخِ في أحد أيام الشتاء الباردةِ على أن يجعلوهُ يأْدِبُ[٢] لهم مأدُبَةً، فقالوا له: تعالَ نتَّفِقْ على شيءٍ، فإذا غلبتنا نُأْدِبُ لك مأدُبَةً تكونُ أرزاً مطبوخاً وحلاوةً والباقي ندعُهُ إلى ما تراه مُوافِقاً، وإنْ غلبناك فذلك عليك.

فقال لهم: ما هو الشرط قولوا لأرى هل يُمكِنُني القيامُ به؟

فقالوا: تَقِفُ في ساحةِ البلدةِ حتى الصباح، ونُقابِلُك في الجامعِ الكبير، فإذا فعلْتَ ذلك أضفناكَ، ويجِبُ أنْ لا يظهر شيءٌ يدلُّ على ٱشتعالِ نارٍ، فهٰذا شرطُنا في هذه الليلة، ولا تنسَ أنَّ بُيوتَ فلان وفلان مُطِلَّةٌ على الساحة، فهم يُراقِبونك بِٱلمناوبةِ حتى الصباح.

فقال الشيخ: لا تُطِليوا الكلام. وليُراقِبْني طابورُ[٣] عسكرٍ، فلا أهتمُّ. وسأقومُ بِٱلشرطِ وتبسَّمَ مُسْتهزِئاً.

---

(١) هباءً منثوراً: ينتشر في كل مكان، بلا فائدة.
(٢) يأدِب لهم مأدبة: يدعوهم إلى طعام يأكلونه.
(٣) طابور: صف طويل من الناس.

فقام أحدُهم قائلاً: لِلَّهِ درُّك من بطلٍ، اُفتكرْ في المسألةِ جيداً، فالقبرُ وراءها وأخشى أنْ تموتَ بَرْداً، فإنْ كانَتْ لك وصيةٌ، أو دَينٌ، أو دراهمُ، طمرتَها، فقُلْ لنا عنها وأخبِرْنا لكي نقومَ بالوصيَّة.

فقال الشيخ: أنا لا يُهمُّني، أما وقد قبلتُ الشرط فسأُريكُمْ كيف يكونُ جسمي الفولاذيُّ وقلبي الصخريُّ، وكم مِنْ ليالٍ نِمْتُها في البراري، والطرق، والجبال، وبين القبور، وليس في بلدتِنا ذِئابٌ أو قُطّاعُ طرقٍ، فلا شغل لي بالوصيةِ، أو سواها، ولا من أخافُ فراقَهُ، وأما الدراهِمُ، فأنا زاهِدٌ فيها فلا يبيتُ معي شيءٌ منها.

وهكذا تمَّ الاتفاق، وبقِيَ الشيخ، تلك الليلة في الساحة حتى الصباح، بكُلِّ سرور، وأتى الجماعةُ فسألوهُ عمَّا حصلَ له، فقال لهم: لم أسمعْ سِوَى حفيفِ الشجرِ، وهبوبِ العواصفِ والأنواء، ورأيت نُوراً من مسافةِ ميلٍ أظنُّهُ مِصْباحاً.

فعندَها قامَ أحدُهم وقال: لا.. لا.. فقد اتَّفقْنا على أنْ لا يكونَ هناك شيءٌ من النارِ، لأنَّك قد تدفَّأت تماماً، لذلك فقد أخلَلْتَ بالشرْط، وقامَ الباقون فأكَّدوا قولَ صاحبِهِم، وحكموا على الشيخ بالضِّيافة، فحاول إقناعَهُم بالبراهينِ، فلم يقتنِعوا، ولم يسمعوا، وأخيراً قال لهم: لا بأسَ فالضيافةُ عَلَيَّ.

ودعاهم للعشاء، ذات ليلةٍ، فجاؤوا، وجلسوا ينتظرون وقت الطعام، مضَتْ ساعتانِ، فقالوا له: أين الطعامُ فقد عضَّنا الجوعِ، واستغْنَيْنا عن الضيافةِ فأْتِنا بما تيسَّر، فأجابهم: أيُمْكِنُ هٰذا؟ اصبروا قليلاً. وجعلهم يصبِرون إلى أن جاوَزَتِ الساعةُ السادسةَ بعد الغروب، فقام المدعوُّون كلُّهم، وطلبوا الطعام بإلحاحٍ عظيم، فتظاهرَ الشيخُ بالاهتمام وخرج كأنَّه يُريدُ استحضار الطعام فصبروا، وانتظروا، والشيخُ غائبٌ، ثمَّ همسوا فيما بينهم مُتغامِزين، وقال بعضُهم: انظروا كيف يلعب بنا هذا الرجل المِهْذار، قُوموا نفتِّشُ عليه. فقاموا وفتَّشوا المطبخ، فلم يعثروا له على أثرٍ، فخرجوا إلى جُنينةِ الدار يفتِّشون عليه، فوجدُوه قد عَلَّق قِدْراً في شجرةٍ ووضعَ قِنْدِيلاً على الأرضِ، قيدَ ذراعٍ وهو واقف أمام القدر، لا يتحرَّك، فقالوا له:

ـ هل يبلغُ بك المُزاحُ هذا المبلغ، وتجعلُنا نتضوّرُ جوعاً[١] في هذه الحال. ماذا تصنع؟

فقال: ماذا أصنعُ! إنّي أطبخُ لكمُ الطعام بيدي أفلا يُعجبكم؟

---

(١) نتضوّر جوعاً: نتألم من الجوع.

فقالوا: لقد علّقت القدر في السماء، وجعلت تحته قنديلاً ضئيلاً، فهل يغلي هذا القدر بهذا القنديل الضئيل؟

فقال لهم الشيخُ فوراً[1]: ما أسرع نسيانَكُم، فقد قلت لكم منذ ثلاثةِ أيام، إنّي رأيتُ قِنديلاً على مسافةِ فرسخٍ فزعمتم أنّي تدفّأتُ به وحكمتُمْ عليَّ. فإنْ أمكَنَ أن يتدفأ الإنسانُ من قنديلٍ على مسافة فرسخٍ، ألا يغلي القِدْرُ مِنْ قنديلٍ على بعد ذراع؟!!.

☆☆☆



لم أجد وسيلة إلاَّ المشاجرة

تجادل الشيخُ وامرأتُهُ، فأخذ عصاهُ لِيضرِبها، فهربَتْ إلى دار أحدِ الجيرانِ، وكان هناك عُرْسٌ فتبِعها، وبينما هو في الطريق، صادفه بعضُ أصحابه، وهدَّأوا روعه، وقالوا له: أنت رجل فاضِلٌ، فلا تعباً[2] بالنساءِ، لأنَّهُنَّ ناقصاتُ العقلِ، وكلُّنا يمرُّ معنا شيءٌ كثير من نسائِنا، وأنت طالما وقفْتَ تعظِنا بالإقلاعِ عن مثل ذلك.

وأخذوا يوردون مثل هذا الكلام، حتى هدَّأُوه قليلاً، فتقدَّم صاحبُ الدعوةِ، وقال: أجلْ أنا قصَّرْتُ بعدم دعوتي إيَّاك، لأنَّ مجلسنا بالشباب حافل، وخِفْتُ أنْ لا يروق لديك ذلك فشرَّفنا بعدها، هذه المسألة التي لا يُمكِنُ تلافيها الآن.

وهكذا هدأ روعُ الشيخ، ودخل الدار. ولمَّا حان وقتُ الطعام أكل مع المدعوِّين إلى أن جاء دورُ البقلاوة، وكان الشيخ مُغْرَماً بها، فأخذ يزدردُها قطعةً قطعةً، ثُمَّ قال: لِلَّهِ من هذه المرأةِ، فقد علِمَتْ أين رَمَتْ بنفسِها. ولو وقعَتْ في يدي لكنتُ شددتُها من أذنِها وجعلْتها تدورُ كهٰذا الصدر. وأدارَ الجانبَ الذي فَرَغَ مِنَ ٱلبقلاوةِ إلى الجهة الأُخرى، والجانبَ الملآن إلى جانبه. وأخذ يأكل. فقال الحاضرون: للّه من هذا الشيخ الذي لا يتركُ المُزاح حتى في وقتِ الغضب.

وبعد الطعام وتناولِ القهوة، التفت الشيخ إلى الحضور بكلِّ هدوءٍ واعتدالٍ، وقال: لقد علِمْنا بالعرس، ولم يدعونا إليه وعلِمْتُ بِٱلمآكل النفيسةِ التي ستقدَّم لا سيّما معشوقتي البقلاوة، ففكَّرْتُ مع المرأةِ طويلاً، فلم نَجِد وسيلةً إلَّا بأن نتشاجَرَ

---

(١) فوراً: في الحال.
(٢) لا تعباً: لا تهتمّ.

تصنُّعاً كما رأيتُم، وإلا فإنِّي مسرورٌ من زوجتي كثيراً وأسألُ اللَّهَ أنْ يرضى عليها فادخلوا إلى الحريم، وأخبروها أنِّي أُريدُ الذهاب، وأنتم تعودون إلى سروركم.

☆☆☆

٢٣٧

الحمدُ لِلَّهِ الذي أتي بك عاجلاً

عاد بعض المتغيِّبين إلى «آقَ شَهْرْ» بعد أن طافَ أُسْبُوعاً في الضواحي فذهب الشيخ للسلام عليه، فقال له الشيخ: الأملُ أن تكونوا سُرِرْتُم بهذه السياحة؟

فقال المتغيِّبُ: أجلْ تسلَّيْتُ كثيراً، إذ في يوم الاثنين ظهر حريق في القرية، فمات خلقٌ كثير، ومنهم رجلٌ احترقت حماتُهُ فحَزِن عليها حزناً عظيماً، وارتبك ارْتباكاً شديداً.

وفي يوم الثلاثاء عضَّ كلبٌ رجلينِ، فأصابَهُما داءُ الكَلَب وقد طبَّق صراخُهُما الآفاق.

ويوم الأربعاء جاء سيلٌ جارفٌ جرف الأنقاض، والأشياء حتى أن طفلاً كان على سريره فسبح كالقارب وهناك كنت ترى البقر والجمال وغيرها غارقة فشغلنا حتى المساء.

ويوم الخميس، أفلتَ عِجْلٌ فنطَحَ خمسة أو ستة أشخاص، فمنهم من سَمَلَ[١] عينيهِ ومنهم من بقر[٢] بطنهُ، وحياتهم في خطر.

ويوم الجمعة، حصل لأحدِهم سويداءُ، أو جنونٌ مُطْبِقٌ[٣] فذبح أولاده وعياله، ذبح النعاج، فغضبْتُ لذلك وقتلْتُهُ شرَّ قتلةٍ، لِقاء عمله.

ويوم السبت، سقط دارٌ على عددٍ كبيرٍ من الناس، فماتَ تحت الرَّدْم جمٌّ غفيرٌ[٤] من النساءِ والأطفالِ، وعمَّ الحزنُ والجَزعُ[٥] القرية، فأخرجت الأموات من تحت الردم وكانت جراح المجروحين، تزيدهم اضطراباً، حتى هلكوا، وقد طبَّقوا الآفاق عويلاً[٦] وصُراخاً.

---

(١) سمل: أعماه وجعله بلا بصر.
(٢) بَقَرَ: فتح بطنه بقرنيه.
(٣) جنون مطبق: جنون كلي.
(٤) جمٌّ غفير: الجمهور الكبير من الناس.
(٥) الجزع: الخوف.
(٦) عويلاً: بكاءً.

وصباح الأحد، شنقَتْ امرأةٌ نفسها على شجرة خوخ فذهبنا إلى هناك، ونظرْنا ٱبنتها الطفلة في سريرِها.

وعندما عدَّدَ الرجل هذه المصائب المتوالية، كاد الشيخ أنْ يُغْشى عليه تأثُّراً، فٱرْتَجَف كالريشة، وقال له: الحمدُ لِلَّهِ الذي أتى بك عاجلاً، إذ أنَّك لو بقيْتَ أُسبوعاً آخرَ لَمَا بقِيَ في القرية حجر على حجر بيُمنِ قدومِك.

☆☆☆

٢٣٨

اشتريته بنواهُ[1] فهل أرمي شيئاً منه؟

رأتهُ امرأتُهُ يأكلُ تمراً ولا يُخرِجُ نواهُ، فقالت له: ماذا تصنع كأنِّي بك تأكل التمر بنواهُ؟

فقال لها: طبعاً آكلُهُ بنواهُ، لأنَّ البائع وزنَهُ مع النوى، ولو أخرج نواهُ لما باعَهُ بسبع باراتٍ، أما وقد أعطيْتُهُ الثمن دراهم بيضاً، فهل أرمي في الزقاق شيئاً ٱشتريتُهُ بدراهمي؟

☆☆☆

٢٣٩

أرى رؤيا جميلةً فهاتي النظارات لِأُدقِّق خفاياها

هبَّ من نومِهِ ذات يوم، وقال لامرأته: هلمِّي أسرعي بالنظارات قبل أن يذهب نومي.

فناولته إيَّاها وقالت له: ما سبب هذا الاهتمام؟

فقال: إني أرى رؤيا لطيفةً جداً، وأريد أن أُدقِّق في بعضِ خفاياها.

☆☆☆

٢٤٠

لم أفقه حسابك ٱلدقيق

تزوَّج الشيخ فأعلمته زوجته أنَّها حاملٌ منذُ ثلاثةِ أشهرِ وستلِدُ، وطلبَتْ أن يأتيها بقابلة.

---

(١) بنواه: ببذره.

فقال لها: نحن نعرف أن النساء يلِدن لتسعة أشهر فما هذا؟

فغضبت المرأةُ وقالت له: إنَّ هذا عجيبٌ، فيا رجل كم مضى على زواجنا، ألم يمضِ ثلاثةُ أشهر؟

فقال: أجل.

- ومضى عليك متزوّجاً بي ثلاثة أشهر، فصاروا ستة. أليس كذلك؟

- وقد مضى على الجنين في بطني ثلاثة أشهر، فهذه تتمة التسعة؟

فقال الشيخ بعد أن فكَّرَ مليّاً: الحقُ بيدِك فأنا لم أفقَهْ هذا الحساب الدقيق فعفواً لقد أخطأت.

☆☆☆

٢٤١

الفراشُ لا يسع أربعة

تزوَّج الشيخ بعد وفاةِ أمرأته بامرأةٍ ثيِّبٍ[١]، فأخذ في كلِّ حين يذكرُ محاسن زوجته الأولى، ويطنِبُ[٢] بها، وأخذتِ المرأةُ تذكر فضائل زوجها السابق.

وأخيراً في إحدى اللَّيالي كان الشيخ متمدِّداً على فراشه ليأخذ قِسْطاً من الراحة فلطم المرأة لطمة رمتها من السرير إلى الأرض، ورضّ ساعدها وغضِبَتْ.

وفي اليوم التالي جاء والدها يزورها فشكت إليه ما حدث، وكان قد عركه الدهرُ[٣] فلم يُعِرْها اهتماماً، وسأل الشيخ عن الحادث فأجابه: إنِّي أعرضُ المسألة لديك، ولكنْ أرجو أن تُنصفني، فأنا واحد، معي زوجتي المرحومة، فنصير اثنين، وزوجتي الحاضرة فنصير ثلاثة وزوجها السابق فنصير أربعة، وبالطبعُ، إنّ فراشاً واحداً لرجل درويش مثلي، لا يسعُ أربعة أشخاص معاً لذلك تدهورت هي فما ذنبي أنا؟!

☆☆☆

(١) امرأة ثيّب: أي امرأة كانت متزوّجة سابقاً.

(٢) يطنب في الكلام: يتزيّد فيه.

(٣) عركه الدهر: جرّبه بما جرى عليه من مفاجاآته.

٢٤٢

تسألينني عن ضيف السماء ولا تسألينني عن طعامي وشرابي

كان الشيخ يعظ ذات يوم في مسجد إحدى القرى، فذكر سيدنا عيسى عليه السلام بالمناسبة، وارتفاعَهُ إلى السماء الرابعة.

وعندما خرج من الجامع تقدَّمَتْ إليه عجوز، وقالت: يا سيدي، إنَّ عبارةً مرَّتْ في الدرس أهمَّتني كثيراً فقدْ قُلْتَ: أن سيدنا عيسى عليه السلام في السماء الرابعة فعجباً من أين يأكل ويشرب؟

فأجابها الشيخ بحدَّةٍ: أيَّتها المرأة الجاهلة لقد مضى عليَّ، وأنا في قريتِكُمْ شهرٌ واحدٌ، فلِماذا تسألينني عن ذاتٍ شريفةٍ ونبيٍّ عظيم، هو ضيفُ السماء الرابعة، الغارق في أنواع النعم النورانية ولا تسألينني عن طعامي وشرابي؟

☆☆☆

٢٤٣

خذ وضوءك وهات مداسي[١]

[الوافر]

تَوَضَّأَ ٱلشَّيْخُ نَصْرُ ٱلدِّيْنِ يَوْماً ... بِمَاءٍ دافقٍ كَٱلْبَحْرِ نَهْرا

وَقَدْ وَقَعَ ٱلحِذَاءُ وَصَارَ يَمْشي ... عَلَى وَجْهِ ٱلمِيَاهِ، يَسِيرُ سَيْرا

تَحَسَّرَ شَيْخُنا مِمَّا دَهَاهُ ... وَزادَ شُجُونَهُ[٢] وَٱلدَّمعَ أَجْرَى

وَدَارَ بِظَهْرِهِ لِلنَّهْرِ حَالاً ... وَأَرْسَلَ طَلْقَةً رَنَّتْ وَأَوْرَى

وَقَالَ خُذِ ٱلوُضُوءَ وَهَاتِ حَالاً ... حِذائي أَوْ تَراني زِدْتُ عَشْرَا!

لِأَنِّي لا أُرِيدُ كَذَا وُضُوءاً ... وَرِجْلي مِنْ حِذائِي قَدْ تَعَرَّى

☆☆☆

وَقَالَ لِأَهْلِهِ قُومُوا ٱسْمَعُوا لِي ... فَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ يَوْمِي ٱلأَمَرّا

وَهٰذَا ٱلأَمْرُ أَثْقَلَني كَثِيراً ... وَلَمْ أَرَ مِثْلَهُ يَوْماً أَشَرّا[٣]

---

(١) مرت هذه النادرة نثراً وقد رأينا إعادتها نظماً زيادة في التفكهة.

(٢) شجونه: أحزانه. (٣) أشراً: كثير الشرّ والأذيّة.

فَقَامَتْ بِنْتُهُ غَضْبَى وَقَالَتْ
أَلَا عَقْلٌ يُبَاعُ لَنَا وَيُشْرَى
حَرَمْتَ مِنَ ٱلْوُضُوءِ وَجِئْتَ تَهْذِي
كَمَا سَبَحَ ٱلحِذَاءُ هُنَاكَ نَهْرا
فَقَالَ ٱلشَّيْخُ لَوْ خَجِلَتْ مِيَاهٌ
لَكَانَ بِخَجْلَتِي ذا ٱلنَّهْرُ أَحْرَى
ولا ٱجْتَنَبَ ٱلوُقُوعَ بِمَا رَآهُ
وَذَا ٱلأَمْرُ ٱلعَصِيبُ ٱلمُسْتَمِرًّا

☆☆☆

(٢٤٤)

نادرة مرجوزة

بَيْنَمَا ٱلشَّيْخُ بِيَوْمٍ يَحْرُثُ
أَرْضَهُ مُنْتَظِراً مَا يَحْدُثُ
عَثَرَ ٱلشَّيْخُ بِشَيْءٍ لَمَعَا
ذَهَبًا فِي جَرَّةٍ قَدْ سَطَعَا
غَرِقَ ٱلشَّيْخُ يُفَكِّرُ مُعْجَبَا
وَكَأَنَّ ٱلعَقْلَ مِنْهُ ذَهَبَا
قَالَ لَا أُطْلِعُ سِرِّي أَحَدَا
لَا وَلَا أُعْلِمُ أَمْرِي أَبَدَا
أَسْلَمُ ٱلطُّرْقِ إِذَا سَلَّمْتُهَا
حَاكِمَ ٱلوَقْتِ كَمَا وَجَدْتُهَا
عَادَ لِلْبَيْتِ على غَيْرِ ٱنْتِظَار
حَسْبَمَا أَدَّى إِلَيْهِ ٱلاضْطِرَار
عَجِبَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ عَوْدَتِهِ
وَٱعْتَرَتْهَا[1] حَيْرَةٌ مِنْ أَوْبَتِهِ
شَغَلَتْهُ بِغِذَاءٍ فِي ٱلصَّبَاحْ
ثُمَّ سارَتْ بِخُطًى وَٱلعَقْلُ رَاحْ
أَسْرَعَتْ لِلْخُرُوجِ وَٱلعَقْلُ ذَهَبْ
مُذْ رَأَتْ خَابِيَةً فِيهَا ذَهَبْ
أَخَذَتْهُ وَأَتَتْ بِحَجَرِ
وَضَعَتْهُ دُونَ عَيْنِ ٱلبَشَرِ
أَسْرَعَ ٱلشَّيْخُ وَأَمْلَا جَوْفَهُ
وَسَرَى حَالاً لِيُخْفِي خَوْفَهُ
بَشَّرَ ٱلحَاكِمَ حَالاً مُسْرِعَا
أَنَّ فِي ٱلخُرْجِ نُضَاراً[2] سَطَعَا
صَرَخَ ٱلحَاكِمُ أَفْرِغْ ما نَرَاهُ
وَٱعْتَرَى ٱلشَّيْخَ عَنأً مِمَّا رَآهُ
إِذْ رَأَى ٱلشَّيْخُ بِحَلِّ ٱلهِمْيَانِ[3]
حَجَراً يَسْقُطُ فِي مَرْأَى ٱلعِيَانِ
حَارَ ذَا ٱلمَجْلِسُ مِمَّا قَدْ رَأَى
مِثْلَمَا قَدْ حَارَ فِي ٱلأَمْرِ جُحَا

---

(١) اعترتها: داخلتها وسيطرت عليها.
(٢) النضار: الذهب.
(٣) الهميان: المحفظة.

إِنَّمَا لَمْ يَظْهَرِ ٱلأَمْرُ عَلَيْهِ وَغَدَا ٱلْمَجْلِسُ نَظَّاراً إِلَيْهِ
قَالَ: وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلصَّوَابْ إِنَّنَا كَالنَّاسِ لا شَكَّ نُعَابْ
قَدْ جَعَلْتُمْ بَيْنَنَا وَزْنَ ٱلعِيَارِ لأَنْضِبَاطِ ٱلْوَزْنِ مِنْ دُونِ خَسَارِ
وَبِوَادِينَا عِيَارٌ مُخْتَلِفْ ضَجَّ مِنْهُ كُلُّ جَمْعٍ مُؤْتَلِفْ[١]
فَخُذُوا القِسْطَ لَنا وَٱتَّخِذُوا سَادَتِي مِنْ ذا عِيَاراً يُؤْخَذُ
فَلَكُمْ يَا سَادَتِي ٱلشُّكْرُ ٱلجَمِيلْ وَمِنَ ٱللَّهِ لَكُمْ أجْرٌ جَزِيلْ[٢]

☆☆☆

٢٤٥

أكونُ أحمق مضاعفاً

ذهب يوماً إلى الطاحون بحنطة وأخذ يكتالُ من جوالق الناس الموجودة حفناتٍ، ويضعُها في جولقه، فقال له الطحان: ماذا تصنع؟

فقال: أنا رجل بليدٌ أفعل ما يوحيه عقلي.

فقال الطحان: إذا كنت بليداً فلماذا لا تأخذ من جولقك حنطةً وتضعُها في جوالق الآخرين؟

فأجابه: أنا أحمق عاديٌّ ولو فعلت ذلك لكنت أحمق مضاعفاً.

☆☆☆

٢٤٦

امتثالاً لأمركما

قالت له والدته صباح يوم: أنا ذاهبةٌ مع الجيران للتنزه على شاطىء البحيرة وأنت احفظ باب البيت جيداً، ولا تفارقه أبداً.

فجلس على عتبة الباب، وأخذ يأكلُ نقوعاً يابساً دفعته إليه أمه، وإذا بصهره قد جاء من القرية، ظانّاً أن والدة جحا في البيت، فقال له: سآتي في المساء مع خالتك فاذهب واخبر والدتك.

(١) مؤتلف: مجتمع متجانس.
(٢) جزيل: كثير، عميم.

فأسرع جحا واقتلع الباب، وحمله على عاتقِهِ[١] وذهب به إلى والدته، فلمَّا رأته قالت له: ما هذا؟

فأجابها: ألم تقولي لا تفارق الباب، وقد جاء صهري، يقولُ: إنَّهُ آتٍ مع خالتي وأمرني أن أُخبرك بذلك، فلم أجد بدّاً من امتثال أمركما كليكما، وإلا فماذا أصنع؟

☆☆☆

٢٤٧

نصحتُك كي لا تقع بمثل هذه الورطة

كان حاكم مدينة «آقَ شَهْرْ» ميالاً إلى امرأته كثيراً حتى أنَّها كانت تتدخَّل في شؤون الحكومةِ والعزل والنصب.

فراجع بعض الأكابر الشيخ وقالوا له: نرجو أن تدبِّر لنا طريقة لهذه المعضلة[٢].

فأخذ الشيخ من ذلك الوقت يضرب الأمثال، ويُوردُ الدلائل في أثناء مقابلته للحاكم، مقبِّحاً عمل مَن يميل إلى امرأته ومعرِّضاً بذلك إلى أن اعتدل الحاكم، وصرف النظر قليلاً عن تدخل امرأته، في شؤون الحكومة.

ولمَّا رأت امرأة الحاكم حالها مع زوجها أخذت تبحث عن أسباب هذه اللَّطمة، فعلمت أنها من الشيخ، فسعت إلى استمالة امرأته إليها. وكان الشيخ في صيف كلِّ عام ينزل ضيفاً على الحاكم فدعته امرأة الحاكم أن يأتي بامرأته، فأحضرها، وبينَما كان هو وامرأتُه، ذات يوم في الغرفة يتسامران، قالت له امرأته: ألا ترى هذه البردعة الموضوعة خارجاً إلى جانب الجدار؟ فقال: نعم. قالت: فهاتِها نلعب بها.

فلمَّا أحضرها، طلبَت منه أن يضعها على ظهره فأطاعها، ووضعت اللِّجام في فمِهِ ثُمَّ ركبت عليه، فأخذ يجري بها في أرض الغرفة، وامرأةُ الحاكم تنظر إليهما من خلال ثقب الباب، فأغرقت في الضحك، وحضر الحاكم فأرته هذا المنظر، فأخذ في الضحك، وأخيراً فتح الباب، وقال: ما هذا أيُّها الشيخ؟

فأجابه الشيخ بكلِّ هدوءٍ وسكينةٍ: الحمدُ للّه لقد رأيت ما أصابني، وأنا نصحتُك كيلا تقع بمثل هذه الورطة التي وقعت أنا فيها، لأنَّنا من العوام، ولا حكم

---

(١) عاتقه: كتفه.

(٢) المعضلة: المشكلة.

لنا في خارج بيوتنا، أما حضرتكم فإذا سلَّمتم قيادكم إلى امرأتكم فربَّما يحصل في المدينة هرجٌ ومرج[1] يجعل البلدة تقوم وتقعد.

فاتَّعظ الحاكم وباءت امرأته بالخيبة.

☆☆☆

٢٤٨

أقول لك سلفاً مع السلامة

جاءه في أحد الأيام ضيف فاحتفى به. ولما صار وقت الغداء تهيَّأ لإطعامه، فقدم الخبز أولاً، وذهب ليأتي بالطعام، ولما حضر لم يجد الخبز فعاد ليأتي بالخبز، وحضر فرأى أن الطعام لم يبقَ منه شيء، فذهب ليملأَ الأطباق طعاماً وعاد فلم يجد أثراً للخبز، وعندما نفد الطعام من القدور والخبز من الزنبيل، ولم يتمكَّن من جمعهما معاً سأل الضيف:

ـ أين تقصد في رحلتك يا سيدي؟

فقال له: إنِّي ابتليت بقلة الشهوة للطعام، وفي عزمي أن أذهب إلى مدينة بروسية لأرى طبيباً يداويني وسأعود بعد شهرين، إنْ شاء اللّه، وأمكث لديك شهراً لأستفيد من هواء بلدتكم ومائها النمير[2].

فقال له الشيخ: إنِّي آسفٌ كثيراً، إذ سأذهب غداً إلى إحدى القرى، وأمكث فيها مدةً طويلة فلا أظنُّ أنَّه يتيسر لنا أن نتقابل، فمن الآن أقول لك سلفاً:

ـ مع السلامة.

☆☆☆

٢٤٩

أعطني إياها لآكلها

كان يأكل دجاجةً محمَّرةً فجاء رجلٌ، وقال له: أنا جائعٌ أعطني قطعةً أُسكِّن بها جوعي.

---

(١) هرج ومرج: كناية عن الفوضى وفقدان النظام في أمور الدولة.

(٢) ماء نمير: عذب.

فقال: واللَّهِ، يا أخي ليست هذه الدجاجة لي وإنّما هي لزوجتي.

فقال الرجل: أراك تأكلها أنت.. فلماذا؟

فأجابه الشيخ: ماذا أصنع يا أخي؟ فإنّها أعطَتْني إيَّاها، وقالت كُلها.

☆☆☆

٢٥٠

أنتِ لا تفِينَ دَين الخالق فكيف تفين دَين المخلوق؟

كان يبيع زيتوناً، فجاءت امرأةٌ وسامتِ[1] الثمن فرأتهُ غالياً، فاعترضَتْ على ذلك.

فقال الشيخ: أيّتها المرأة هذا زيتون، ليس من الزيتون الساقط، فهو قد اُعتُنِي بزرعه وقطفه، فذوقي واحدة، تريه حلواً، لم تذوقي مثله، طول عمرك. فلا هو مرّ، ولا حريف، وزيته من أحسن الزيوت، ويبقى طعمه اللذيذ في الفم مدة، فلا تضيّعي هذه الفرصة لأنّك ستؤدين الثمن، وتأخذِين أفضلَ أنواعِ الزيتون.

فقالت المرأة: أنت تعرفني، وبستانُ هذا الزيتون قريب منا، وأنا امرأةُ الحاج حياتي وبنت المرحوم تيمر أوغلي بك، ولك معرفةٌ بزوجي، وأنا أشتري، إذا كنت ترغب أن تبيعني بالدَين.

فقال لها الشيخ: ذلك أمر نجد له طريقة ففي أول الأمر، أنظري إلى هذه البضاعة إذا كانت توافِقُك؟

وأخذ حبة زيتون، وقدَّمها إليها لتذوقها، فقالَتُ له المرأة: عَفْواً فإني مرضتُ من ثلاث سنواتٍ في رمضان، وأفطرتُ، والآن أقضي الأيام الفائتة بأيام هذا الشتاء القصير.

فقال لها الشيخ: أنتِ تريدين أن تبتاعي زيتوناً بالدَين، وتقولين: أن عليك فرضاً منذ عدة سنين، لم تفيه إلى الخالق، فكيف تفين دَيناً للمخلوق؟

☆☆☆

---

(١) سامت: طلعت عليه.

٢٥١

مَن يعلم الحقيقة فليقلها إكراماً للَّه

كانت امرأتُهُ تتركُهُ كلَّ ليلةٍ وحده، يحفظ البيت، وتذهب للسهر عند الجيران. فحضرت إلى البيت، ذات ليلةٍ، وطرقت الباب حتى كادت تكسرهُ، فلم يفتح لها، ونادتهُ راجية مستعطفة أن يفتحه، فلم يفعلْ، فقالت له: إذا لم تفتحِ الباب، فأنا سأرمي نفسي في هذا البئر. ثم أخذت حجراً كبيراً ورمته واْختَبأت وراء الجدار.

فندم الشيخ، وقال: لأذهب، وأُنقذ هذه المجنونة، وفتح الباب، فأسرعت امرأته ودخلت الدار من حيث لا يشعر، وأغلقت الباب إغلاقاً محكماً وطلعت إلى النافذة التي كلَّمها منها، وصرخت: أشكو إلى اللَّه، فقد ضِقْتُ ذرعاً بعملك، أفي كُلِّ ليلةٍ تذهب للسهر عند الجيران؟ لا أدري أيّة سفيهةٍ تُصاحب، وتتركُ امرأتك الفتاة، تقضي زهرة عمرها وحدها، هذا لا يُطاق، ألا تخجل من لحيتك البيضاء، ولا تُشبعُ رذائِلك؟ لا بُدَّ لي من أن أُذيع أمرك بين الناس، وأجعلك أمثولةً، فانظُر حالك، ماذا يكون، وسوف أريك إذا عُدت وتركتني في الليل، ماذا أصنع بك..

فحار الشيخ في عمل اْمرأته وقلبها المسألة عليه، بعدما كانت له، ونظر إلى الجيران الذين تألّبوا حوله، وحَصِر[1] نطقُه قليلا. وأخيراً قال: مَن يعلم الحقيقة فليقلها إكراماً للَّه.

☆☆☆

٢٥٢

أنا لم أنسه بل أنت نسيته

دعاه الحاكم يوماً، وكان قد أوصى الطَّاهي أن يطبخ حلاوة التين بالقشطة، وبعد تناول الطعام، لم يحضر على المائدة شيء من ذلك، فاْنقبض الشيخ، ولكنه لم يقل شيئاً.

وبعد صلاة العشاء قال الحاكم: أسمعنا حِزباً من القرآن الكريم، لنشنِّف آذاننا ونروِّح أرواحنا بروحانيته.

(١) حَصِر نطقه: لم يستطع الكلام.

فقال الشيخ بعد البسملة: والزيتون... الخ.

فقال له الحاكم: لِماذا نسيت التين؟

فأجابه الشيخ: أنا لم أنسه بل أنت نسيته!

☆☆☆

٢٥٣

زوجُك واحدٌ فقط لا غير

وصفوا له امرأة بأنّها ذات عيونٍ كحلاء، تسحر الألباب، فعشقها على السماع مع أنها كانت حولاء.. وخطبها من أهلها، فتزوّجها.

ولما كان المساء أتى بصحن قشطةٍ ووضعه على المائدة، فقالت له المرأة: ألا يكفي صحن واحد، ولا أحد عندنا، فوجود صحنين إسرافٌ.

فقال الشيخ: رؤيتك للطعام الواحد طعامين لا بأس به. وعندما بدأا يأكلان قالت المرأة: عفواً إذا كنت تظنني قليلة شرفٍ، فأنت مخطئٌ فهذا الشيخ الآخر الجالس بجانبك مَن هو؟

فلمّا فهم الشيخ أنها رأته شيخين، قال لها: يُمكنك أن تري كلَّ شيءٍ في بيتنا شيئين، ولكنَّ زوجك واحدٌ فقطْ لا غير.



٢٥٤

اللّهُ يعلم قلب مَن يحترق

دعاهُ صديقٌ له إلى داره، فأكرمه بعسل وقشطة. وبعد أن أتمَّ الأكل بالخبزِ، أخذ يلعق العسل بأصبعه لعقاً متوالياً، فقال له صاحب الدار: إنَّ أكل العسل بلا خبزٍ يحرق القلب.

فأخذ الشيخ يزيد في اللعق بسرعةٍ عظيمةٍ، قائلاً: اللّه يعلم قلب مَن يحترق.

☆☆☆

(٢٥٥)

جئت بالورقة الخالية مستعجلاً، فأرجو عفوك

أقام بعض جيرانِهِ وليمة عرس، وفيما هم على الطعام، جاء الشيخ، وبيده ظرفٌ ودقَّ الباب، فقالوا: مَن هذا؟

فأجابهم الشيخ: معي مكتوبٌ لصاحب البيت.

فأدخله الخادم، وبعد سلام قدَّم المكتوب إلى صاحب البيت، وجلس مسرعاً أمام المائدةِ، وأخذ يزدردُ الطعام بشهوةٍ، فلمَّا نظر صاحب البيت إلى الورقةِ، قال له: هذه ورقة بيضاء لا كتابة فيها!

فقال الشيخ: أجلْ، إنَّ الورقة لا كتابة فيها، لأنِّي جِئت مستعجلاً قبل أن أتمكَّن من كتابتها، فأرجو عفوك.

☆☆☆

(٢٥٦)

أنت أعجبك الروث وأنا ملأتهُ لك

كان راكباً حماره، وكان الحمار، كلما رأى روثة يشمُّها حسب عادة جنسه، فلم يكُنْ من الشيخ إلَّا أن جمع شيئاً من الروث، وجعله في علّاقة الحمار وعلقَّها برقبته، فتضايق الحمار، وأخذ يحاول خلع العلّاقة من رقبته.

فقال له الشيخ: ماذا أصابك؟ فأنت أعجبك الروثُ، وأنا ملأته لك.

☆☆☆

(٢٥٧)

أأنت تبيع المخلل أم أنا؟

أخذ الشيخ يبيع مخللاً (مكابيس)، وقدِ أبتاع أدوات المخلّل مع حمار المخلّلاتي، فكان الحمار يعرف البيوت التي تبتاع منه. وكلّما نادى الشيخ «مخلل مخلل»، كان الحمارُ ينهقُ في تلك الأزقةِ المزدحمة، ويغطِّي بنهيقه صوت الشيخ، فغضب الشيخُ لأنه لم يمكنه من إسماع صوته في المناداة.

وفي ذات يوم وصل إلى محل مزدحم، وأخذ الشيخ ينادي «مخلل، مخلل» فسبقه الحمار إلى النهيق، فلما رآه كذلك ألقى له مقوده على عاتقِه، وحملق بعينيه فيه. وقال له: أنظر يا هذا. أأنت تبيع المخلل أم أنا؟!

☆☆☆

٢٥٨

إذا كان فيك عقلٌ أسرِع للبحيرة

حمَّل حماره، ذات يوم، هشيماً وقال في نفسه لأنظر هل يلتهبُ، وأخذ ناراً فقرَّبها إليه، وكان الهواء شديداً، فعلقت النارُ به، واندلع لسان اللَّهب. فكان الحمار المسكين يقوم، ويقعد، وينهق، ويلبط لشدَّةِ الحرارة، فلما رأى الشيخ أنه لا يمكنه اللحاقُ به أو التقرُّب منه، صرخ فيه بصوتٍ عالٍ، وقال له: إذا كان فيك عقل فأسرع للبحيرة.

☆☆☆

٢٥٩

مَن أضاع حمار غيره يفتش عليه وهو يغني

ضاع حمار الحاكم، فرآه جماعة الحاكم ذاهباً إلى بستانه، فقالوا له: بما أننا ذاهبون إلى جهة واحدة، فاشترِك معنا في التفتيش على الحمار. فلم يرَ الشيخ مانعاً من إجابة طلبهم، ومشى جائلاً بين البساتين، وهو يغني، فانتهره أحدهم قائلاً: أي نوع من التفتيش هذا؟

فأجابه الشيخ: مَن أضاع حمار غيره يفتش عليه وهو يغني.

☆☆☆

٢٦٠

تعلمت نصف الصنعة

وضعته أمُّه عند عامل زجاج، فبقِيَ سنتين مداوماً، فسألته يوماً: ماذا تعلَّمت؟ فأجابها: قد تعلَّمت ببركة دعائك نصف الصنعة؛ وهي أني أنشر المطوى، والنصف

الآخر أحصل عليه بعد بضع سنوات، ببركة دعائِك، حالاً إنْ شاء اللّه تعالى.

☆☆☆

(٢٦١)

أفرغت الصوف ولم يقع منه شيء

أتى إلى السوق يوماً بمفرش من البساط ليبيعه، فلما رآه المشترون، قالوا له: هذا مخروق ممزَّقٌ لا يساوي شيئاً.

فأجابهم: سبحان اللّه. إذا كان قصدُكم أن لا تبتاعوا فلا تبخسوا مال مسلم أمام الخلق.. فقد أفرغت والدتي منذ هنيهة ما كان فيه من الصوف، ولم يقع منه شيء.

☆☆☆

(٢٦٢)

هل هو جمل حتى يعضَّ أُذُن نفسه

كان عائداً إلى داره مساء يوم، فتقدَّم إليه أحد أولاد الحارة، وقال له: يا سيدي الشيخ إن هذا الولد عضّ أُذُني.

فقال الولد المُشْتَكى عليه: كلَّا أنا لم أعضَّ أذنه بل عضَّ أُذُن نفسه.

فقال الشيخ: اصمت أيُّها العنيدُ، فهل هو جملٌ حتى يعضَّ أُذُن نفسه؟

☆☆☆

(٢٦٣)

جيراننا يشمون من الماليخوليا

اشتهى يوماً الحساء (الشوربا) وقال لو كان عندي حساءٌ عليه النعناع والبهارات لكنت آكله بشهوة. وإذا بالباب يطرق وقد أتى ولد من الجيران، وبيدِهِ وعاء، فدخل. وقال: والدتي مريضة، وتريد شيئاً من الحساء.

فقال الشيخ: جيراننا يشمُّون من الماليخوليا؟

☆☆☆

٢٦٤

لتخرج كل الغرابيل وتسير أمامي

كان يفتِّشُ على شيء في بيت المؤونة.. وإذا بغربال كان مملوءاً بصلاً، قد وقع على رأسه فأضاع صوابه لشدَّةِ اللَّطمةِ، وٱسودَّت ٱلدُّنيا في عينيه، فضرب به الأرض. فٱتَّفق وقوعُ الغربال على جانبه فٱرتدَّ إليه ورض ركبته.

فغضب الشيخُ، وقام ورفع الغِربال فوق رأسِه وجلد[1] به الأرض فوثب الغربال وجرح جبينه. فأسرع الشيخ ودخل وأتى باليقطان (سكين كبيرة) وقال: لتخرج كلُّ الغرابيلِ، وتسير أمامي الآن.



٢٦٥

سأقوم بما تأمر به حرفياً

كان الشيخ وهو طفل، يعمل عكس ما يقوله والده، فعلم والده طبعه، فصار إذا أراد أن يطلب منه شيئاً يعكس الموضوع، ليعمل الصحيح.

ففي ذات يوم كانا عائدين من الطاحون. وكان الحمارُ لا يقدر على المرور على الجسر. فقال له أبوه: يا ولدي أنا سأقطع الجسر وأنت خذ الحمار واقطع به النهر من المقطع. فأخذ ٱبنه الدابة إلى المقطع.. وبينما هو يخوضه مالَ جولق الدقيق إلى جانبٍ، فصرخ أبوه من على الجسر قائلاً له: لم يمل الجولقُ إلى جهتي ولن يقع في النهر فلا تقومه.

فالتفت جحا إلى أبيه. وقال له: يا أبي طالما عملتُ عكس ما أردتَ، فالآن سأقوم بما تأمر به حرفياً.. وما مسّ الجولق حتى وقع في النهر، وذهب مع المياه.



٢٦٦

انقش لي خاتماً فيه «خس»

جاء مدينة «آقَ شَهْرْ» خطَّاط ماهرٌ، فأراد أحد أصحاب الشيخ أن ينقش خاتماً

(١) جلد به الأرض: ضرب به الأرض.

واسمه «حسن» وكان الخطاط يتقاضى أجرة عن كل حرف ثلاثة غروش ففكر الرجل وعمل حساب اسمه وكنيته فوجده يتكلّف كثيراً فقرر أن يحفر خاتماً باسمه فقط، وفكّر في طريقةٍ يقتصد بها من الأجرة، فاستشار الشيخ فقال له: تعال معي؛ وذهبا إلى الخطاط فقال له الشيخ: انقش لنا خاتماً.

قال الخطاط: ما الاسم؟

فقال: خس.

فقال الخطاط: ما هذا النوع من الأسماء؟

فقال الشيخ: وأنت ماذا يعنيك من الاسم، أكتب لنا ما نطلبه منك.

فأخذ الخطاط يكتب حروف «خس» ولما أتمّها ولم يبق سوى نقطة الخاء قال له جحا: ضع هذه النقطة بآخر السين. فأدرك الخطاط ظروف الشيخ، وأهداه الخاتم بلا مقابل.



٢٦٧

أنت تشير بأصابعك فهل أنا ذو كرامة؟

كان سائراً مع رفيق له على شاطىء البحيرة، وكان السمك يثب فوق الماء، فقال رفيقه: أنظر هذا السمك!

فأخذ الشيخ ينظر إلى الزقاق.

فقال له رفيقه: أنا أريك السمك وأنت تنظر إلى جهة البر؟

فأجاب الشيخ: أنت تشير إليّ برأس أصابعك فهل أنا ذو كرامة حتى أعرف ما تنويه؟

☆ ☆ ☆

٢٦٨

سأبتاعها وأتجنب مضادة الشركاء

أراد بيع نصف دار له فقال له الدلال: لماذا تعجل.. فالآن ليس وقت ذلك.

فقال له الشيخ: أنا ما أحببت المال المشترك طول عمري، ولي عشر سنوات

حتى أقنعتُ شريكي ببيع حصَّته لي فطالما هو راضٍ ببيع ذلك، فأنا سأبيع النصف الذي لي وأشترى النصف الذي له، وأتخلَّص من مضادَّة الشركاء.

☆☆☆

٢٦٩

شعر جحا

قال له أصدقاؤه: علمنا أنَّك تنظم القريض[1] فهل نظمت أخيراً شيئاً منه؟

فأجابهم: لقد سألتمُوني شيئاً في حينهِ، وسأُنشدكم بيتاً حديثاً، قلته في هذا الصباح، فقد كانت والدتي تضع الحليب على النار، لجعلهِ لبناً فاتَّفق أن فسد اللبن كما حدث أمس، وفي تلك البرهة جاءت خطيبتي، ورأت القِدْر على النار، فقالت: هذا الحليب فاسدٌ، فخطر لي بيت من الشعر لم أشأ أن أُسمعها إيَّاه، إذ لا تقدِرُ على فهم معناه، وتضيع بلاغتُه، فاسمعوا أنتم بكلِّ اهتمامٍ وتأمَّلوا ما قلته من الشعر والنظم:

[الرمل]

أَيُّـهـا الْـمَـحْـبُـوبُ يَـكْـفِـيـنـي أَلَـمْ لا تَـجُـزْ فـي لَـبَـنـي أَضْـحَـى عَـدَمْ

☆☆☆

٢٧٠

هل كان رأسه معه؟

ذهب مع رفيق له ليصطاد الذئاب، فرأيا ذئباً كبيراً، قد غطَّاه الشعر، فطمِعَا في جلده الذي يصلح للفراء، وأخذا يطاردانه حتى دخل جحره، فلحقه رفيق الشيخ، وأدخل رأسه في الجحر، وانتظر الشيخ مدةً، فلم يرَ الرجل تحرَّك، فسحبه فلم يرَ رأسه.

ففكر قليلاً ثم أسرع إلى البلدة متوجِّهاً إلى دار رفيقِهِ، وسأل زوجته قائلاً: عندما خرج زوجك صباحاً من البيتِ، هل كان رأسُه معه أم لا؟

☆☆☆

(١) تنظم القريض: تنشد الشعر.

٢٧١

مَن يقطع مسافة تسعة أشهر بثلاثة يسمى ساعياً

ولدت أمرأة لثلاثة شهور من زواجها. فأجتمع النساء وقلن ما نسمّي المولود؟ وقررن أن يراجعن الشيخ، وعندما راجعنه قال: سمُّوه «ساعياً». فقلن له: لم نسمع بهذا الإسم.

فأجابهن: مَن يقطع مسافة تسعة أشهر بثلاثةٍ لا بُدَّ أن يسمَّى ساعياً. وإلّا فأي اسم يليق به؟



٢٧٢

إذا لم يمش الجبل يمشي المجذوب

سألوه يوماً في أثناء المحادثة تمضية للوقت: من أين نعرف أنك وليٌّ؟

فقال لهم: إني أدعو الحجر فيأتيني، وأدعو الشجرة فتمشي إليّ.

فقالوا: ما دام الأمر كذلك فادعُ لنا هذه الشجرة الصفصاف التي أمامنا.

فأجابهم: أجلْ.. وأخذ ينادي بصوتٍ رقيق: تعالي يا مباركةُ (ثلاث مرات) فلم تتحرَّك الشجرةُ ولا ورقة منها. فتقدَّم الشيخ إلى الشجرة.

فقالوا له: ما هذا؟ أما قلت أنها تأتي إليك!

فأجابهم: لا كبرياءَ عند الأولياء، فإذا لم يمشِ الجبلُ يمشي المجذوب.

☆ ☆ ☆

٢٧٣

لا يهشم ولا يغمس

كان يأكل حليباً (لبناً) مع رفاقٍ له ثلاثة، وكان كلَّما هشم[1] الشيخ ورفيقه خبزاً في اللبن، وهما مشغولان في الحديث. يتناول الثالث ما هشماه رغماً عن

(١) هَشَمَ: فتّت الخبز ومزجه باللبن.

إنذارهما له ويزدرده، فرآه الشيخ فغضب وأخذ المغرفة ورفعها فوق رأسه ونزل بها على رأس ذلك العنيد فاصفرّ وجهه وأُغمي عليه حتى كاد يموت.

فلما رآه الشيخ كالأموات تعجّب وقال: هو لا يهشم ولا يغمس ولا يرفع يده من الصحن، وإذا ضربته بالمغرفة يتماوت.

☆☆☆

٢٧٤

قاضيان في النار وإنّ التاجر...

ترافق قاضٍ وتاجر في الطريق مع الشيخ، فقال القاضي للشيخ: من كثر لغطهُ كثر غلطه فهل غَلطت يوماً وأنت تعظ؟

فقال الشيخ ببداهة:

ـ نعم صادف مرةً أن خرج مني «قاض في النار» بدل قاضيان في النار، ومرة أخطأتُ فقلت: إن التجار بدل «الفجار» لفي جحيم. فأخجل الاثنين.

☆☆☆

٢٧٥

جحا والفلسفة

عندما كان تيمورلنك في مدينة «آقَ شَهْرْ» جاءه دهريٌّ، وعرض عليه بواسطة الترجمان أنَّ لديه بعض الأسئلةِ، فإذا كان في المدينة علماء حاذِقون ماهرون، فإنّي أُريد ٱختبارهم.

فجمع تيمورلنك أشراف البلدة وقال لهم: لقد جاءكم عالِمٌ غريبٌ يريد اختبار علمائكم بالعلوم الطبيعيةِ، والفنون المادية، وهؤلاء السائحون قد أحاطوا بالعلوم والفنون، فإذا لم يقُم في وجههم عالم يقابلهم، يقولون: إن بلاد الروم قد خلت من العلماء وٱندرس العلم فيها، وإذا شاع ذلك عنكم تسقط هيبتكم من أعينِ الأمم.

فاجتمع الأشراف في غرفةٍ وتذاكروا ملياً بهذا الشأن، وأسِفُوا كثيراً لقلّة العلماء فيهم، ثم قالوا: إنَّ الأسف لا يُفيد فلنفكِّر بطريقةٍ ندفعُ بها هذه الداهية فتحدَّثوا بجلب علماء من قونية وقيصرية وغيرهما ثم فكّروا بأنَّ جلبَ علماء غرباء من بلاد بعيدةٍ أمرٌ يطولُ شرحُهُ، ويجعلهم موضع سخريةٍ أمام تيمورلنك.

وأخيراً اتّفقوا على أن يستشيروا الشيخ نصر الدين جحا، فبعثوا إليه فجاءهم. وعرضوا عليه ما هم فيه. فتروّى قليلاً ثُمَّ أجابهم: أتركوا لي المسألة. فقالوا: وما تنوي أن تعمله؟ فقال سأباحث هذا العالم فإذا أجبته بجواب موافق وأسكتُّهُ كان حسناً وإذا لم أُوفَّق إلى ذلك، تقولون: أني رجلٌ مجذوبٌ دخلتُ هذا المدخلِ من عند نفسي، وتقولون: إنّنا لا نعدُّه عالماً، ثمَّ تأتون بعالم غيري، أما إذا وُفِّقت فإنّي أُريدُ من كل منكم جائزة.

فقالوا له: حسناً، ومهما أردت يكون إن شاء اللّه، وغاية قصدنا إفحام هذا الرجل الغريب.

وفي يوم معيَّنٍ نُصبت الخيام في ساحة البلدة، وجلس تيمورلنك بالهيئة الحربية وقد تسلَّحت الجنودُ وهيّئتْ أسباب الحفلة بصورة مدهشة، وجاء ذلك الدهريُّ العجيبُ الشكل، وشعره منفوش، فجلس بالقرب من السُّدَّةِ السلطانية، وغصّ المجلس[1] بالحضور وكلُّهم منتظرون ورود الشيخ.

وأقبل الشيخ بعمامةٍ كبيرةٍ، لابساً جُبَّةً واحدةً، ووراءه تلميذُهُ حمادٌ، وبعض الطلبة، ودخلوا المجلس، فجلس الشيخ على يمين تيمورلنك، وبعد أن شربوا المرطبات، وأخذوا قِسْطاً من الراحة تقدَّم الدَّهريُّ، إلى الوسط ورسم دائرة وانتظر الجواب ناظراً إلى وجه الشيخ.

فقام الشيخ ووضع عصاه بنصف الدائرة تماماً وشطرها[2] شطرين ونظر إلى الدهريِّ، ثمَّ خطَّ خطّاً آخر، وقسم الدائرة إلى أربعة، ثم جعل ثلاثة منها إلى جهته إشارةً بيده وواحدة منها إلى جهة الدَّهريِّ، وأرسل يديه وراء ظهره إلى الدهريِّ.

فأشار إليه الدَّهري محبِّذاً عمله بكلِّ ارتياحٍ، وأعلمه أنه فهم مقصوده من ذلك.

ثم فتح الدَّهريُّ يديهِ، وجعلهما كالطوقِ، ونزل بهما من أعلى إلى أسفل وجعل أصابعه مفتوحة ورفعها في الفضاء بضع مرات.

فعمل الشيخ عكس ذلك وفتح أصابعه، وهوى بها إلى جهةِ الأرضِ، فقبلَ الدهريُّ منه ذلك.

ثم إن الدهريَّ وضع أصابعه على الأرض، وصار يمشي مُقلِّداً مشي الحيوانات وأشار إلى بطنِهِ، كأنه يخرج شيء منه.. فأخرج الشيخ من جيبهِ بيضةً، وجعل يحرِّك يديه كأنه يطير.

---

(١) غصَّ المجلس: امتلأ بالناس جميعاً.

(٢) شطر: قسم.

فأعجب الدهريَّ ذلك، وتقدَّم إلى الشيخ بٱحترام وقبَّل يديه، وهنَّأ الملك وأشراف البلدة بوجود هذا العلامة النادر المثال، فسُرَّ الحاضرون، وهنَّأوا الشيخ بظفره[1] وأخذوا ينثرون الهدايا التي ٱستحضروها، والنقود على الشيخ ومنهم من وعده بالهدايا والعطايا الوافرة، وكذلك أنعم عليه تيمورلنك بهدايا وافرة وعطايا فاخرة حتى أغنتهُ وجعلته في مصافّ ذوي اليسار.

وبعد أن انصرف القوم تقدَّم السلطان وبعض المقرَّبين، وسألوا الدَّهريَّ بواسطة الترجمان: نحن لم نفهم الإشارات التي تبادلتها، أنت والشيخ فأفهمنا ماذا جرى؟

فقال الدهري: نظراً لاختلاف فلاسفة اليونان وعلماء بني إسرائيل بشأن خلق العالم فإني أجهل رأي علماء الإسلام بذلك فأحببت أن أتعلَّمه، فأشرتُ إلى أن الأرض كبيرةٌ ومدورَّة، فصدَّق الشيخ على كلامي وقال: إنها مقسومةٌ شطرين، نصف الكرة الشِّمالي ونصف الكرة الجنوبي وهكذا شطرها شطرين ثُمَّ شطرها أربعة فجعل ثلاثة أقسام بطرفه وقسماً بجهتي، مشيراً بذلك إلى أنَّ ثلاثة أرباع الأرض بحراً وقسماً واحداً برّاً وأفادني أنَّ الأرض سبعة أقاليم ثُمَّ أشرت إليه عن المواليد وأسرارها وخلقتها برفع أصابعي في الهواء وهزِّها مشيراً بذلك إلى النبات والأشجار والمنابع والمعادن، وكيف تحصل، فرفع الشيخ يديه مشيراً إلى أسفل، وأنَّ نزول المطر من السماء، وقوة الشمس وتأثير الأجرام الجويَّة في الكرة الأرضيَّةِ تُساعِد تلك المواليد على الإتيان بما خصَّها اللَّهُ به من القوى الكامنة[2] وأوضح ذلك على وجهٍ موافقٍ لقول الفلاسفة المتأخرين. ثم أشرتُ إليه بنفسي عن توالد وتكاثُر المخلوقات من بعضها بعضاً بالتناسل وتركت كثيراً من تلك الأمور مبهمةً فأخرج لي بيضةً من جيبه وأشار إليها كأنَّها تطيرُ إشارة إلى صنف الطير من المخلوقات على هذا الوجه مجملاً، فعلمت من ذلك أن عالمكم علامةٌ بالسماويات والأرضيات وكافة العلوم المعقولة والمنقولة وأنه من دُهاة الفلاسفة ويحقُّ لكم عامةً أن تفخروا بمثل هذا الفيلسوف في وطنِكم.

ثم ودَّعوا الدهريَّ بالإعزاز والإكرام وٱنصرف.

وبعد ذلك تقدَّموا إلى الشيخ وٱستوضحوا منه عن الأجوبة التي أجابها، فقال لهم: هذا الرجل جائِعٌ مثلي، وقد أتعبتموني به عبثاً. فإنَّه عندما عمل دائرة بيده أشار بذلك إلى أن في البيت أمامه صدر فطائر كهذه الدائرة فشطرتهُ شطرينِ، وقلت أقسمه أنا وأنت كالأخوين فلما رأيته لم يفهم قسمته أربعة أقسامٍ، وجعلت لنفسي ثلاثة، وله قسم واحد، فرضِيَ بذلك وهزّ رأسه.

---

(١) ظفره: انتصاره.

(٢) الكامنة: المختبئة والموجودة فيها.

ثمَّ أشار إلى قدر أرزٍ موضوعٍ على النار، فأشرت إليه عن وضع الملح والبهار والفستق والزبيب فوقه، وهكذا حللت هذه المسألة، ثُمَّ أشار إليَّ عندما مشى على أصابعه مشيراً إلى جوعه متحسِّراً على طعام لذيذ.

فأشرت إليهِ، وأنا جائع أكثر منك حتى كدت أطير جوعاً وأني قُمْتُ صباحاً لأعمل فطوراً فلم أجد سوى بيضةٍ واحدةٍ أعطتني إيَّاها امرأتي، ولم أجِدْ وقتاً لتناوِلُها عندما بعثتم تُخبرونني أن أحضر فوضعتها في جيبي احتياطاً.

فقال الحاضرون: واللّهِ، هذا أمرٌ عجيبٌ، فكيف طرح لك تلك المسائل، وكيف حللتها هذا الحلَّ المعجب مع تفاوت القصةِ، وإرضاء الطرفين. وهكذا سرَّ الحاضرون وتضاحكوا طويلاً وتفرَّقوا، والحيرة آخِذةٌ منهم كلَّ مأخذ.



٢٧٦

جحا وأمير الأكراد

ذهب في رمضان إحدى السنين واعظاً لبعض عشاري الأكراد، وبالطبع كان يصلِّي إماماً بالجماعة، ففي ذات يوم حضر أبناءُ أمير العشيرةِ، وقالوا له: نحن ما كُنَّا نحبُّ كسر خاطرك في كل حين، نظراً لكونك صائماً، ولكنَّا رأيناك غير مرة تقوم وتتقدم على والدنا في الصلاة، فإذا كنت لا تُعدُّنا شيئاً فلا بأس، وإنَّما لا يغرب عن بالك أنَّ والدنا يحكم على خمسة آلاف خيَّالٍ مسلحين، متى قال لهم: قوموا، قاموا قومة رجل واحد فهل يجدر بك أن تتقدَّم عليه في كلِّ حين، وإذا كنت تراه لا يتكلَّم معك شيئاً فاعلم أنه إذا غضب عليك لا يقدرُ أحدٌ أن ينقذك من بين يديه.

وهكذا هدَّدوه بكلِّ عبارة قاسية. فأراد تفهيمهم أنَّه إنَّما يفعلُ ذلك بمُقتضى الصلاة، فما كانوا ليسمعوا له قولاً بل ازدادوا شدّة. وأخيراً قال لهم الشيخ: «سأنظرُ في المسألة» وصرفهم عن نفسه.

وبعد إفطار ذلك اليوم وشرب المرطبات، جعل الشيخ مناسبةً وحديثاً فقال للأمير: يا سيدي إن المحروسين الكرام نظراً لعدم معرفتهم بمقتضى الأمور الشرعية قصدوا أن يعيبوا شيئاً ليس من العيب بمكان أصلاً. فما تفوَّه بهذه الكلمات حتى قامت حواجب الأمير وانتفخ عظمه قائلاً: ماذا أيُّها الشيخ؟ أتريدُ أن تبحث في مسألة الجماعة؟

فندِم الشيخ على ما قاله، وأجاب بكلِّ وجلٍ[١]: أجل يا سيدي لست أقصد الشكوى بل لأتخذ وسيلةً للحديث والمباسطة.

فأجابه الأمير: أجل، إنَّهم غلطوا معك، إلَّا أنَّه بالنظر لميل قلبي إليكَ، فلا أُريد أن تتمادى أكثر من ذلك.

ولما رأى الشيخ أنَّ الوالد أجهلُ من أولاده، وأنه لا يمكنُهُ الاعتماد عليه، لما أبداه من قسوة الردِّ، تفكَّر قليلاً في وسيلةٍ يُمضي بها شهر رمضان، ويعود بسلام بعد أن يأخذ مكافأته، والتفت إلى الأميرِ، قائلاً: الحقُّ معك يا سيدي، إلَّا أنه يجبُ أن ينظر الإنسان إلى نهايةِ الأمور لا بدايتها، لأنِّي متى أدرت وجهي إليك بعد الصلاة، فتكونُ أمامي آنئذٍ وأبقى الداعي وراءك. أليس كذلك؟

فتأمَّل الأمير مليّاً وصعَّد حاجبيه وصوَّب بصره، وقال للشيخ بوجهٍ باشٍ: يا شيخي، نحن قومٌ نعيش بعيدين عن المدنِ، لذلك فإنَّ عقولنا لا تُحِيط بدقائق المسائل العلميةِ فلا تؤاخذنا.

☆☆☆

٢٧٧

إن كان هذا اللحم فأين الهرُّ، وإنْ كان الهرُّ فأين اللحم؟

ابتاع[٢] يوماً ثلاث أُقَّات[٣] لحم، وأخذها إلى البيت، وذهب إلى شغلِه. فما كان من امرأته إلَّا أن جمعت جاراتها وعملت لهنَّ مأدبة شائقةً بذلك اللحم.

وعاد الشيخ في المساء، فطلب العشاء فوضعت أمامه بُرْغلاً مسلوقاً بالماء، فقال لزوجته: إذا لم يكن لديك وقتٌ لطبخ اللحم، أما كان يُمكِنك أن تجعلي مع هذا البرغل بضع قطع منه تجعلُهُ لذيذاً فنتناوله بٱشتهاءٍ؟

فأجابته: لقد منعني مانعٌ إذ بينما كنت مشغولةً، وإذا بهرِّك الذي تحبُّه جاء فأكل جميع اللحم الموجودِ، ولمَّا حضرتُ رأيتُهُ يمسح فمَهُ بعد الأكل.

فنظر الشيخ إلى الهرِّ وقام مُسْرعاً فأحضر ميزاناً ووزن الهرّ فكان وزنه ثلاث

(١) وجل: خوف.
(٢) ابتاع: اشترى.
(٣) أقات. مفردة أُقَّة، بضم الهمزة، وهو وحدة وزن تركية.

أُقَّاتٍ تماماً، فعندَها قال لاَمرأتِهِ: يا قليلة الإيمان إذا كان الذي وزنته لحماً فأينَ الهرُّ؟ وإذا كان هذا الهر، فأين ذهب اللحم؟

☆☆☆

٢٧٨

أُريد أن أعرف إلى أين يصلُ صوتي

كان يُؤَذِّنُ، ويذهبُ مسرعاً، فسألوهُ عن السببِ، فقال: أريدُ أن أعرف إلى أين يصل صوتي.

☆☆☆

٢٧٩

لا تريني وجهكِ وأريهِ مَنْ تشائين.

زوّجوهُ بامرأة قبيحة المنظر، ففي الصباح، أراد الشيخ الانصراف فتقدَّمت إليه برشاقةٍ ودلالٍ قائلة: أرجو أن تُخبرني إلى أيِّ أقربائكِ من الرجال أُري وجهي، ومَن منهم لا تريدُ أن يراني؟

فقال لها فَوْراً: لا تريني وجهكِ وأَريه مَنْ تشائين!

☆☆☆

٢٨٠

يقولون: إنَّ الحشيش مسكرٌ، وكل ذلك كلام

سمع أنَّ الحشيش يُسْكِر، فأهمَّهُ ذلك واَبتاع مِقْداراً منه من عندِ اَلعطار واَستعمله، ثمَّ ذهب إلى الحمَّام. وعندما كان يغتسلُ خطر في بالهِ أنهم يقولون: أن الحشيش يُسْكِر وأنَّهُ يُخِلُّ بالعقل، فقال: كلُّ ذلك كلامٌ بكلام وما قصدهم إلَّا السخرية والمُزاحَ، أو أنَّ العطار غشّني فليتني أذهبُ إليهِ، وأسألُهُ مَحقَّقاً عن ذلك.

وفي الحال خرجَ مِنَ الحمام عارِياً فصادفه أصحابُهُ فسألُوه: ما هٰذا الحالُ أيُّها الشيخُ؟ فحدَّثهم بما فعل، وقال لهم: لا شكَّ بأنَّ العطار غشَّنِي لأنَّ حشيشَهُ غير مُسْكِرٍ.

☆☆☆

(٢٨١)

جحا والدبُّ على الشجرة

بينما كان الشيخ يحتطِبُ في الجبلِ رأى دُبّاً عظيماً آتِياً نحوه فخافَ الشيخ خَوْفاً شديداً وصعِدَ إلى الشجرة، وكانت من شجر الكُمَّثرى البريّ، فجاء الدبُّ ونامَ تحتها.

فانتظر الشيخ طويلاً فلم يذهب الدُّبُّ، وخيّم الظلامُ وكانتِ الليلة مقمرةً، فأخذ الدبُّ يتأمَّلُ في الشجرة على ضوء القمر، وأخيراً صعد إليها وأخذ يأكل الكمّثرى متسلِّقاً غُصناً غُصناً، والشيخ يعلو كلَّما رأى الدبَّ يصعد، وأخيراً صعد الشيخ إلى قِمَّة الشجرة، وإلى الغصن الأخير، وكاد يذهب عقله حينما تأمّل في الحالة التي سيموتُ فيها إذا سقط من ذلك العلوِّ الشاهق، وأخذ يرتجِفُ كالورقةِ في مهبِّ الرّيح.

وبينما هو مشغولٌ بنفسِهِ غارقٌ في بحر الفكر، كان الدب يجني الثمر ويأكُلُ، متَّجهاً إلى ضوءِ القمر، واقترب الدبُّ منه حامِلاً في فمه كُمّثراةً كأنه يقدِّمُها إليه، فذُعِر[١] الشيخ، وصاح بملء فمه صيحة مدهشةً ملأت الفضاء قائلاً: لا أُريد أن آكل.

وأزعج الدبَّ هذا الصوتُ المرعب، فاضطرب وكُسِرَ به الغصن فسقط متدهوراً بين الأغصان، فلم يبلغ الأرض إلَّا مهشّماً ممزق الأعضاءِ لا حياة فيه.

وفي الصباح تأكّد الشيخ أنَّ الدبَّ قد مات، فنزل من على الشجرة، وسَلَخَ جلده العظيم ذا الشعر الكثيف وحمله على عاتقه[٢]، وذهب به إلى المدينة مفتخراً بين أصحابه بهذا الصيد العجيب.

☆☆☆

(٢٨٢)

خروف الشيخ ونعجة جاره

كان للشيخ خروف، وقد ربّاه وأطعمَهُ كلَّ طعام لذيذ، حتى سَمن وأصبح لا يقدر على الجري، وكان جيرانُهُ كلَّما رأوهُ يقولون للشيخ: يا ليتك تذبح لنا هذا

(١) ذعر: خاف. (٢) عاتقه: كتفه.

الخروف، لتعمل به وليمةً شائقةً، والشيخُ يقول لهم: يا أبنائي هذا الخروف هو سلوتي، أفترونه كثيراً عليّ، واللهِ، إن كلامَكم ليُؤلِمُني. وعندما علموا أنَّ الشيخ لا يسمحُ به حقيقةً، اتّفقوا على سرقتِهِ فأخذُوه وذبحُوه وأكلُوه.

ولمّا عَلِمَ الشيخ بما عملوا تظاهر بعدم المبالاة وٱستمرَّ يبحث خفيةً عن الشخص الذي قام بالسرقة حتى عرفه فأضمر الانتقام منه. وبعد عامين كان لذلك الجار نعجةٌ فٱختطفها الشيخُ على حين غفلةٍ وأكلها، وكان صاحب النعجة بخيلاً جداً، فلمّا ٱفتقدها ولم يجدها حزن عليها وأطلق لسانه بذكر سُمْنِها ودُهْنِها وصُوفِها الحرير الطويل وجلدها، حتى ظنَّ الكثيرون أنَّ النعجة لا مثيلَ لها، وأنها مِنْ خوارق العادةِ، فكان الشيخ يتألَّمُ من ذلك.

وفي ذاتِ ليلةٍ ٱجتمع الجيران عند الشيخ وبينهم ذلك الجار فذكر نعجته ووصف لون صوفها قائلاً: كان كالثلج بياضاً، والحريرِ نعومة، وكانت كالجملِ قدراً وكبراً.

فاعترضَهُ الشيخ وخالَفَهُ فيما يدَّعي، وأصرّ صاحب النعجة على كلامه، واحتدم الجدال، فلم يكن من الشيخ إلّا أن نادى ابنه قائلاً: اذهب إلى بيت المؤونة واحضر جلد هذه النعجة التي يصفُها هذا الرجل وضعهُ أمامنا لينظر الحاضرون هل شعرها أبيض كما يزعم أم أسود؟ وهل هي بقدر الهرّة أم الجمل فيظهر للحاضرين الحقُّ ونتخلَّص مِنْ حكاية ٱلنعجة التي يصِفُها هذا كأنَّها ناقةُ صالح.

وأتى الغلامُ بالجلِد، فأدرك صاحب ٱلنعجةِ أنَّ الشيخ قد ٱنتقم لنفسِهِ وٱستعاض عن خروفِهِ بالنعجة.



٢٨٣

متى مَكَثَ عندكُمْ مدةً يصير بالحالة المطلوبة تماماً

كان أحد الحكام البخلاءِ قَدْ قال للشيخ: أنت لك معرفةٌ بالصيدِ والقنصِ وتعرف الصيادين، فأحضر لي كَلْباً سَلُوقياً بأذنينِ كأذني الأرنب ورجلين كرجلِ الإبل ولونٍ كلون النملة.

فبعد مدّةٍ جاء الشيخ بكلب غنمٍ ضخمٍ كبير، فقال الحاكم: ما هذا؟

فأجابه الشيخ: ألم تُوصني على كلب صيد؟

فقال الحاكم: أنا طلبتُ كَلْباً كمعزى الجبل، خفيفاً سلوقياً.

فأجابه جحا فوراً: لا تفتكر يا سيدي فإنَّه متى مكث مدةً قليلةً في دائرتكم العامرة يصير بتلك الحال المطلوبة تماماً.

☆☆☆

٢٨٤

لقد أشكلت المسألة!

جاءه رجلٌ عندما كان قاضياً: قائلاً: إن الثور الأحمر، وأظنُّه ثوركم قد نطح بقرتنا في بطنها فقتلها.

فقال الشيخ: وما دخل صاحبه في الأمر، فهذه دعوى دمٌ لا يطالب بها حيوانٌ.

فقال الرجل: كلا لقد أخطأت بالإفادة، فإن بقرتنا بقرت بطن ثورِكُم.

فعندها قال الشيخ: لقد أشكلت المسألة فهاتِ هذا الكتاب ذا الجلد الأسود عن الرف لأنظر فيه...

☆☆☆

٢٨٥

أنا أعلم أنك جئت من بيت العرس

جاء الشيخ مساء يوم إلى داره تعباً وذهنه مضطربٌ، فرأى امرأته مقطَّبة الوجه بينما كان آتياً لينسى همومه، فقال لها: ماذا جرى؟ هل تكافئينني على اْجتهادي من الصباح إلى المساء لتدبير أمورِ معيشتنا بهذه المقابلة الجافة؟ ما معنى هذه المعاملة وما سبب تقطيب الوجه؟

فأجابته زوجته: اللَّه اللَّه لا بُدَّ لذلك من سببٍ فقد توفي طفل إحدى صديقاتي وذهبت إليها وعزَّيتها وعدت متألمة ممَّا رأيت فهل فهِمت السبب؟

فأجابها الشيخ: أجل أنا أعلم أنك جِئتِ من بيت العرس حديثاً، أليس كذلك؟

☆☆☆

٢٨٦

المؤاكلةُ بالشعر

نزل عليه أحد أصدقائه ضيفاً، وبعد أن تناولا الطعام، وشربا المرطباتِ، وسهرا إلى الساعة الرابعةِ بعد الغروبِ، وحان وقت النوم أنشد الضيف هذا البيت:

[المتدارك]

إِنَّ ٱلـعَـادَاتِ بِـبَـلْـدَتِـنَـا أَنْ نَـأْكُـلَ بِـٱلـنَّـوْمِ الـعِـنَـبَـا

فأجابه جحا ببداهة:

[الخبب]

لَا عَـادَةَ فِـي هٰـذَا أَبَـدا بَـلْ نُـخْـفِـيـهِ حَـقّـاً وَجَـبَـا

☆ ☆ ☆

٢٨٧

نِمْتُ قبل أن أجيء إلى هنا

نزل في إحدى القرى ضيفاً على إمام القرية، فسألهُ صاحب البيت: ألم تنم؟ أأنت عطشان؟ ولم يذكر شيئاً عن الطعام.

فأجابه الشيخ: نِمْتُ قبل أن أجيء إلى هنا في قرية بيكارباشي.



٢٨٨

أنشأتُها حسب مشورتكم فدعوني أبنيها بمعرفتي

كان يبني داراً، فجعل يُحضرُ أحباءه وجيرانه، ويستشيرهم وكلٌّ منهم يشير عليه أن يبني على صورةٍ ويُصِرُّ على رأيهِ قائلاً: إذا لم تعمرها كما أقول، فأنا أبنيها رغماً عنك.

وهكذا أجبروا الشيخ أن يتَّبع مشورة كلِّ مُشيرٍ، فكانت الدارُ أقرب إلى أُعجوبةٍ منها إلى دار، وبعد كمال إنشائها دَعَا أصدقاءهُ للاحتفال بافتتاحها، فحضروا فقال لهم: هل أعجبتكُمُ الدارُ؟ فقالوا كلُّهم: كلّا لم تعجبنا.

فأجابهم: أنا أنشأتُها حسب مشورتكم، فدعوني الآن في هذه المرة أبنيها حسب معرفتي.

☆☆☆

٢٨٩

ليس لي ست أصابع

كان يأكل بأصابعه الخمس، فرآه أحدهم فاعترضهُ قائلاً: لماذا تأكل بأصابعك الخمس أمام الناس؟

فأجابه جحا: لأنَّه لم يكن لي سِتُّ أصابع.

☆☆☆

٢٩٠

العمل لا يوافق النظر

كان في بلدةِ (آقَ شَهْرَ) حاكِمٌ شرهٌ بالمآكل، فقال يوماً لوجوه البلدة: أُريدُ أن أجمع كتاباً بأنواع المآكلِ فليكتُبْ كلٌّ منكم طبخة من الأطعمة، وشاع الخبر حتى بلغ الشيخ، ففي صباح اليوم التالي رأى الشيخ أحد أولئك الوجوه فقال له: لقد أعملت الفكر حتى الصباح، فاكتشفت طعاماً نادراً بسيطاً لطيفاً جداً.

فقال له الرجل: وما هو؟

فقال: هو أن تأتي بالثوم وتغمسَهُ بالعسل وتأكل.

ولما كان الرجل خالي الذهنِ ساذجاً صافي القلب، ذهب إلى الحاكم وقال له إن في بلدتنا شيخاً لطيفاً صاحب نكاتٍ ومعرفةٍ قد أفادني عن طعامٍ غريبٍ، ووصفه له، وكان الحاكم لا يقل عن ذلك فهماً، فقال: يا لِلْعجبِ! ثم ذَهب إلى دارِهِ وأرادَ أن يجرِّب هذا النوع الجديد عند العشاءِ فصنعه وأكل منه، وبالطبع كان هذا الطعام مُقيِّئاً فغضِب الحاكم، وفي الصباح جاء بالشيخ بواسطة ذلك الراوي إلى الديوان، وسألهُ قائلاً: أأنت الذي اكتشفت أكل الثوم بِالعسل؟

فأجابه الشيخ بكلِّ سكونٍ: أجل: إنَّ الداعي هو الذي أوجد ذلك.

فأمر الحاكمُ بإحضار بقية الطعام ليتناول منه الشيخ، وكان بطنُهُ فارغاً فكان

كلّما غمس الثوم بالعسل، وتناوله ومضغه يتأثرُ من طعمه الحريف وينقبض وجهه وينظر بعينين دامعتين إلى جانبيه.

فقال له الحاكم: ماذا تنظر؟ كل الطعام الذي اخترعته هنيئاً مريئاً، لأن الإنسان يلتذُّ بما تجودُ به قريحتُهُ ويكتشفُهُ.

فقال الشيخ: يا سيدي، أنا صادق في ادّعائي الاكتشاف، إلّا أنَّ اكتشافي كان عبارةً عن نظريةٍ ولم أجرِّبه قبل الآن، أما وقد جرّبته، فقد عرفت أنَّ العمل لا يُوافِقُ النظر، فأنا لم يرق لي ذلك.

☆☆☆

(٢٩١)

أنتظر أن تطفو حتى أقبض عليها

كان يملأ جرة ماءٍ من النهر، وفي أثناء ذلك سقطت الجرة من يده، فجلس ينظر إلى محل سقوطِها، فرآه أحدهم فقال له: ماذا تفعل يا شيخي، وإلى أي شيء تنظر؟

فأجابه: إنَّ الجرة قد دخلت في الماء، وأنتظر خروجها حتى أقبض عليها من فمها وأذنيها.

☆☆☆

(٢٩٢)

ما دام الأمر كذلك فرُشَّ السكر بالوسط

اشترك مع رفيق له في لبن (حليب) وفيما هما يقصدان تناوله أشار رفيقه إلى الجانب الذي يليه من اللبن وقال: أريد أن أرشَّ على حُصَّتي سُكَّراً، فقال له الشيخ: إذا كنت تُريدُ ذلك فرشّه على كل الأطراف ليحلو كلُّه ونتناوله معاً بلذة.

فأجابه الرجل: إنَّ السكر الذي معي قليل، ولست ملزماً أن أعطيك سكراً.

فغضب الشيخ، ومدّ يده في الحال إلى جرابه وأخرج زجاجة الزيت وصبّ منها فوق اللبن.

فقال له الرجل: ما هذا؟ هل يوضع الزيت فوق اللبن؟

فأجابه الشيخ: لماذا تتدخَّل في شغلي؟ أنا أُريدُ أن أضع زيتاً على حصتي،

وأنت لسْت وكيلاً عنّي، اِفعل ما شِئت بجانبك. فأجابه الرجل: هلْ يُوضعُ شيءٌ مائعٌ ولا يذهب إلى كل جانب؟ فقال الشيخ: ما دام الأمر كذلك فرشّ أنت السكّر بالوسط.

☆☆☆

٢٩٣

لا تقِسْ هذا على الناس فإنه إذا قال فعل

سافر الشيخ إلى بلدة، فقال له أحدُ أهلها: لقد أحببْتُك كثيراً يا سيّدي، فتفضّل، نتناول خبزاً ومِلْحاً، ونتسامرُ مليّاً. فلبّى الشيخ الدعوة بكلّ سرور، وذهب إلى داره، وبعد مدة قليلة وضعوا أمامه الخبز والملح فقط، وكان الشيخ جائعاً فلم يَجِد بُدّاً من الأكل.

وفي تلك البرهة دقَّ الباب فقير، وبعد دعاءٍ طويلٍ عريضٍ، طلب صدقة، فما كان من صاحب المنزل إلّا أن أطلَّ من نافذة داره، وقال للفقير: إذهبْ من هنا، وإلّا فإني آتي إليك وأكسرُ ظهرَك. فلم يبالِ الفقير بذلك بل دام يتضرَّع ويطلب.

فلما رآهُ الشيخ كذلك لم يصبِرْ أن أطلَّ برأسِهِ أيضاً من النافذة، وقال: يا هذا لا تقس السيد على بقيةِ الناس، فإنَّهُ رجل إذا قال فعل.



٢٩٤

على هذا الحساب نكون في هذه السنة بعمر واحد

سألوا الشيخ في أيام صِباهُ: أأنت أكبر سناً أم أخوك؟

فأجابهم: في العام الماضي قالت لي أُمّي إنَّ أخاك أكبر منك بسنةٍ واحدة، وعلى هذا الحساب، فنكونُ كلانا في هذه السنة بعمرٍ واحد.

☆☆☆

٢٩٥

لا شيء يدلُّ على الطعام

أنشأ صديق له داراً، ودعاهُ ليراها، فأخذ يتجوَّلُ معه في الدارِ ويُريهِ إيَّاها من

الصباح حتى المساءِ، مُطِيلاً في الكلام على محتوياتِها، وترتيبها، وبنائها، ولم يذكر عن ٱلطعام شيئاً، وأخذ الجوعُ مِنَ ٱلشيخ كلَّ مأخذٍ، حتى كاد أنْ يُغمى عليه، ثمَّ استأنف صاحبُ البيتِ ٱلكلام قائلاً: كأنّي بك لم تَطَّلِعْ تماماً على غرفةِ الطعام وترتيبها ونظافتِها، ومواقدِها، فإنّي قدِ ٱعتَنَيْتُ بها كثيراً. وأخذهُ إليها فأراهُ إيّاها، وبعد أن تأمل فيها الشيخ ملياً، أخذ يقيسُ طولها وعرضها، وأخرجَ من جيبهِ دفتراً وأخذ يرسمُ بعض الخطوط فيه، فسأله صاحب البيت: ماذا تصنع؟

فقال: آخذُ خارطةَ الغرفة.

فأجابه صاحب الدار: أرأيت يا سيدي كيف أعجبتك، وأُؤكِّدُ لك أنَّك ستجعلُ غرفة طعام دارك كهذه.

فأجابه الشيخ: وهَلْ من شبهةٍ بذلك، فقد أعجبتني كثيراً لأنَّها من الاقتصاد بمكانٍ حتى أن هيئتها تقضي بأن لا يكون فيها شيءٌ يدل على الطعام.

☆☆☆

٢٩٦

إذا صرفت بقري وعطَّلْتُ مزرعتي فأي رأس جبل أسكن فيه؟

أقام عليه أهلُ القرية دعوى، عند القاضي، فٱستحضَرُه، وقال له: إن هؤلاء القرويين لا يريدونك فاختر لك وُجهةً.

فأجاب الشيخ: أنا الذي لا أريد هؤلاء القرويين، فليذهبوا هم إلى جهنم، أو إلى أي مكانٍ أرادُوه، لأنَّ مجموعهم أينما حلَّ يؤلِّفُ مزرعةً بل قرية، أما أنا فواحِد برأسي فإذا صرفتُ بقري وعطّلْتُ مزرعتي، فأيُّ رأس جبل أسكنُ فيه؟

☆☆☆

٢٩٧

أنا طلبت حماراً فأرسلت مهراً يركبني

كان الشيخ سائراً في طريق طويلةٍ فأخذ يقولُ في نفسه: يا ربي ماذا عسى لو مننت عليّ بحماري، فأراهُ، وأركبُهُ، وأرفع رجلي عنِ الأرض، وإذا بفارسٍ يسوق فرسهُ سوقاً شديداً، ووراءها فلوٌ صغيرٌ عمُرُه ستةُ أشهر، فلما رأى الشيخَ ناداه،

وقال له: يا خالُ لماذا هذا الكسل، وأنت جالسٌ تحت الشجرة؟ قم واسعَ فقد تعب هذا الفلوُ فاَحمِلْهُ على عاتقِك وخذْهُ إلى هذه القرية القريبة هنا.

وما كاد الشيخ يُجيبُهُ قائلاً: أنا لا أقدر على الحركة و. . . حتى لمع سوط الفارس على ظهره كالبرق، وقال له بصوت جهوري: أيها الأبله مَن يترك كسلان مثلك يجلسُ تحت شجرة الصنوبر، أمام الماء بين الخضرة السندسية كالحلزون؟

فلم يرَ الشيخ بدّاً من حمل المهر، وهكذا جعله على عاتقِهِ[١]، وأخذ يمشي كالثمل[٢] من التعبِ والثقل، ويعدو أمام الفارس وكان كلَّما نظر إلى السوط في يد الفارس يلاعبُهُ بالهواءِ يزدادُ جَرْياً، إلى أنِ اَقتربَ مِنَ اَلقريةِ، وقد قطع تلك المسافة الطويلة بعشر دقائق.

وأخيراً وقع على وجهه هو والمهر من شدة التعب، فلم يُشْفِق عليه ذلك الفارس القاسي القلبِ، وإنَّما تركه قائلاً (يا لك من تركي سارق اللبن) ومضى.

وبقي الشيخ نحو نصف ساعة لا يقدر على الحركة، وعندما صحا سحب نفسه إلى ظل شجرة. ورفع رأسه إلى السماء وقال: يا رب لقد سقطت أسناني وتكسرت كلُّها، وأصبحتُ لا أقدِرُ على تفهيمِ الكلام، فأنا طلبتُ منك حماراً أركبهُ، فأرسلْتَ لي مهراً ليركبني.





إيَّاك أن تنسَي عقد الخيط بالإبرة فتبقى وحدها

أخذوا اَبنته عروساً إلى إحدى القرى، وبعد أن اجتازوا مسافةً طويلةً أسرع الشيخ عدَّةَ ساعاتٍ حتى لَحِقَ بهم، وقد تصبَّب عرقاً فتقدَّمَ إلى النساءِ وأبعدهُنَّ إلى جانب، واَنفرد بابنتِهِ فقال لها: يا بُنيَّتي عندما تريدين الخياطة إيَّاكِ أن تنسيْ أن تعقدي الخيط، لأنَّهُ إذا لم يكن معقوداً يخرج من الإبرة وتبقى الإبرة، بيدك وحدها.

☆☆☆

---

(١) عاتقه: كتفه.

(٢) الثمل: السكران.

٢٩٩

جحا يبيع الهواء

من جملة كرامات الشيخ بيعه الهواء إلى الفلاحين، ففي إحدى السنين ذهب إماماً إلى إحدى القرى، وعندما قارب رمضانُ الختام، فكَّر الفلاحون في عملِ وسيلةٍ لعدم إعطاءِ الشيخ عوائِدَهُ من الحنطةِ اعتذاراً بقلَّة المحصول.

فغضب الشيخ من ذلك، وفي زمن الحصاد بينما الحبُّ على البيادرِ قال لهم: ما دام الأمرُ كذلك فأنا لا أُعطيكم هواءً تذرون به بيادركُم، فأوجِدوا أنتم ما يكفيكم من الهواءِ لتذريةِ البيادر. ثُمَّ أتى بحصيرةٍ كبيرةٍ ووضعها على تلٍّ مُطِلٍّ على البيادر، وجلس يراقب أعمالهم.

واتَّفق[1] أن مضت عدَّة أيام انقطع فيها الهواء عن البيادر، وشاهد الفلاحون غيوماً ثقيلةً تملأُ الجوّ. فحاروا في أمرهم، فقال أحدهم: يا شيخ أنا أُعطيك عوائدك ضِعْفَي ما أخذتَهُ في العام الماضي، إذا أوجدت لِيَ الهواء.

فصعِدَ الشيخ إلى التل ونقب الحصير بإصبعه، ووجّه الثُّقْبَ إلى بيادر ذلك الرجل، وقال له اذهب إلى بيادرك، فلم يكد يبلُغها حتى وجد الهواء يهبُّ فأخذ يذري حبوبهُ حتى أكملَ الأكداس كلَّها، ووضع الحبوب في الجوالق وأخذها إلى مستودع داره.

فعندما رأى جيرانُهُ ذلك حضروا إلى مكان بيادرهم فلم يجدوا للهواءِ أثراً، فقال أحد الفلاحين لآخر: لا تتعبْ سدًى. اِذهب إلى الشيخ وعاهِدْهُ على أن تعطيهُ حقَّهُ وٱبْتَعِ منه الهواء.

فذهب ففتح له ثقباً بالحصير فقضى هذا شغله أيضاً.

ولما رأى الفلاحون ذلك هجموا على الشيخ وابتاعوا منه الهواء بعد أن وعدوُهُ بأنهم يُعطونه حقَّه، وزيادة، قال لهم: أيُّها الفلاحون، إيَّاكُم أن تغشُّوا شيخكم، وتقولوا في بالِكُم، إنَّا نرجع بقولنا بعد أن نُتمِّم أشغالنا، فإنَّ الحقَّ تعالى يذهب بيادرَكم هباءً ولا يُبقي في أيديكم شيئاً منها.

وبعدَ أن أخذ عليهم العهود والمواثيق، قام وثقب لِكُلِّ بيدرٍ من بيادرهم ثُقْباً في الحصير، وأقبلوا على تذرية بيادرهم، وأعطوهُ حقَّهُ مضاعفاً وسُرّ الشيخ سروراً عظيماً.

وبعد أن حمل حقَّهُ، خرج مع القرويّين إلى خارج القريةِ حيث أدَبُوا له مأدُبَة

(١) اتفق: صادف.

الوداع، ودعا لهم بخير، ثُمَّ قال لهم: إنَّ مَنْ لا يدفع الحقَّ لصاحبِهِ يأخذ له اللَّه حقَّهُ مضاعفاً.

ويقال: إن مقاطعة الهواء ما زالت جارية في تلك القرية حتى هذه الأيام:

[الخفيف]

رَحِمَ ٱللَّهُ رُوْحَ نَصْرِ ٱلدِّينِ فَهْوَ بِٱلحَقِّ ظَاهِرُ ٱلتَّمْكِيْنِ
فَتَرَى كَمْ لَهُ كَلاماً بَدِيْعاً ذَا رُمُوزٍ مِنْ مُحْكَمِ ٱلتَّلْقِيْنِ
لا تَظُنَّنَ مَا يَقُولُ جُزافاً إِنَّمَا قَوْلُهُ كَحَبْلٍ مَتِينِ

☆☆☆

٣٠٠

لا أدري بها كلها

جاء مدينة «آقَ شَهْرْ» باحِثٌ جدليٌّ متفلسفٌ وسأل قائلاً: مَنْ هو عالِم مدينتِكُم؟

فقالوا له: الشيخ نصر الدين.

ففتَّش عليهِ فوجدَهُ، وسألهُ قائلاً: يا حضرة الشيخِ، إنَّ لي أربعين سُؤَالاً، هلْ يُمْكِنك أن تجيبني عليها بسؤالٍ واحدٍ؟

فأجابهُ الشيخُ بدون مُبالاة: لننظرْ في أسئلتك.

وبعدَ أنْ سَرَدَ عليه الأربعين سؤالاً، ووعاها الشيخ بأذنيهِ أجابَه: «لا أدري بها كلِّها» فأسكته.

☆☆☆

٣٠١

إذا لم يحدَّد العكسُ فلا يتقرَّرُ الطرد

سألُوه يوماً: أين أنفك؟

فأراهم عقدة الحياة التي في رقبته.

فقالوا له: يا شيخ أنت أجبت بالضدِّ وأشرْتَ إلى الجهة المقابلة.

فأجابهم: أرأيْتُمْ أنه لو لم يحدَّد العكسُ هل يتقرَّرُ الطرْدُ؟

٣٠٢

لا معنى للعقاب بعد كسر الجرة

أعطى ابنتَهُ جرة ماءٍ لِتملأها، ثمَّ صفعها بكفِّهِ قائلاً: إيَّاكِ أنْ تكسري الجرَّة، فقال الذين رَأَوْها تبكي وهي طفلة: يا شيخُ أيجدرُ بك أن تضرب هذه البُنيّة بغير حقٍّ وهي لم تُذنب؟

فأجابهم: إنِّي أُريدُ أن أُريها عاقبة كسر الجرة حتى تنتبه، وإلا فلا معنى لِلْعقاب بعد كسر الجرة.

☆☆☆

٣٠٣

فيه رأس جمل

أعطته زوجتُهُ حريراً مَفْتُولاً ليبيعه في السوق، فأراد أهل الطمع أن يبتاعوه بثمنٍ بخسٍ[1]، فعمدوا إلى الحيلة.

وأدرك جحا غايتهم، فقال في نفسه ما داموا كذلك فإنه يجدرُ بي أن أُقابِلَهُم على عملهم بنوعه. ثم أخذ رأس جملٍ كان مرمياً في بعض المستنقعاتِ، وأحضرَهُ إلى البيتِ ولَفَّ الحريرَ عليه فصار كأنه مغزلٌ كبيرٌ وأتى به إلى السوق فلمَّا رآه التجارُ أعطاهُ به أحدُهم ثمناً تافِهاً، ففكَّر جُحا وقال في نفسه، هذا الثمن بنسبة الحرير يكون تماماً، وقال للمشتري: عُدَّ الثمن، فاشتبه المشتري بإعطاءِ كلِّ هذا الملف الحريريِّ بهذه القيمة، وسأله: هل هذا الحريرُ شغلُ أهلِ بيتِكم أم غيرهم؟ وأخشى أن يكون فيه شيء؟

فقال له جحا بكلِّ جدٍّ: فيه رأسُ جملٍ، فنقده المُشتري الثمن وأخذَهُ جحا فَرِحاً بتفريج ضيقه، وعندما فحص المشتري الحرير وحلَّهُ مِنَ الملفِّ رأى فيه رأساً كبيراً، فأتى إلى جحا، وقال له: أيَليق بك أَنْ تقول لي ليس في هذا الملفِّ شيءٌ؟ وتَغُشَّني؟!

فأجابه جحا ضاحكاً: لو كنت تدفعُ الثمن الحقيقيَّ لاَسْتفدت أكثرَ من محاولتك أخذ الحرير مني بالحيلة، بعد أنْ بذلت زوجتي نور عينيها بغزله، ولكنَّك عَبثت بي وأردْت أن تخدعني، فقابلت الحيلة بمثلِها، على أني لم أكذِبْ عليك، وقد قلت لك «فيه رأس جمل» واعترفتُ لك بالحيلة، وأنت اشترَيْتَهُ على حاله.

---

(١) بثمن بخس: بثمن زهيدٍ.

٣٠٤

ضع فوق الدينار ستة غروش ونصفاً

كان جالساً مع جماعة في مجلس أصدقاء له، فتقدَّم إليه رجل من معارفه، قائلاً: أرجو يا سيدي أنْ تصرف لي هذا الدينار.

وكان جحا محافظاً على وقاره مع الجماعة، فأجابه: أهذا وقت ذلك؟ وأراد الخلاص منه، فضايقه الرجل، وألحَّ عليه متعلِّلاً بِاحتياجه لدراهم الدينار، فأراد الشيخ عمل حيلةٍ، فقال له: هات الذهب لنراه.

فناوله إيَّاهُ فتأمَّل فيه ملياً ووزنه، ثم قال: لا يُمْكِن صرفُ هذا الدينارِ، يا ولدي لأنه ناقِصٌ.

فأجابه: يا سيدي الشيخ، أنت اصرفهُ لي واقطعِ المِقدارَ الناقص، فإني راضٍ.

فتملْملَ جحا بنفسِه، وقال له: إن هذا الدينار ناقص نقصاناً عظيماً، والخلاصةُ فإنِّي لا أصرفه.

فأخذ الرجل بيد جحا قائلاً له: اعطني بضعة غروشٍ، ثم أُعيدُها إليك، وتُعيدُ الدينارَ إليّ، وتكون أحسنتَ إليَّ كثيراً، وأخذ يستعطِفُه.

فتصبَّب جحا عرقاً، وخجِلَ لخلو جيبه ممَّا يطلب منه، ثمَّ أخذ يقلِّبُ الدينارَ بِالهواءِ على كفِّهِ مُدَّةً، وقال للرجل: ضعْ فوق هذا الدينارِ ستة غروش ونِصْفاً، فيكون ديناراً تماماً وأصرِفُهُ لك.



٣٠٥

الزواج بالنوم

رأى في منامه أنَّ بعض النساء من جاراته اجتمعن عليه وقلن له: لقد وجدنا لك زوجةً مناسبةً، فهبَّ جحا مذعوراً، وأخذ يُوقظ امرأتَهُ قائلاً لها: قومي يا قليلة الغيرةِ، فيا اللّه ما أكسلكِ، لأنَّك مع كونك نائمةً بجانبي لست شاعرةً بشيء فقد عمدتْ نساءُ الجيران أنْ يزوجنني رغماً عني، وتأتيك ضرَّةٌ فقومي، واطرُدي هذه النسوة، أو أنت تعملين شغلك، فلا تقولي: إنَّهُ لم يقلْ لي.



٣٠٦

ابحثي لها عن شاب

جاءتهُ إحدى جاراته، وقالت له: يا شيخي أنت تعلم أنَّ ٱبنتي معتوهةٌ، فأرجو أن تقرأ لها سورةً أو تكتب لها حجاباً لأنَّها أحياناً تضربني.

فقال لها الشيخ: أيَّتُها السيدة، إنَّ قراءة رجل مُسِنّ مثلي لا تُفيدُها، وإذا كنت تريدين إصلاحها فٱبحثي لها عن شابٍّ ابنِ خمسٍ وعشرين سنةً أو ثلاثين فهو يكون زوجاً وشيخاً معاً، ومتى جاءها أولادٌ فإنها تعقَل، وتصيرُ ضعيفة كالشمع، وعاقلة كالملائكة.

☆☆☆

٣٠٧

كيف كان ينام آباؤُنا وأجدادُنا تحته؟

كان للشيخ المسكين وزوجته لحاف واحد فقط يتدثران به في أيام الشتاء ويُضيفان إليه الجبّة. وبينما كانت السماء تثلجُ في إحدى الليالي قالت له ٱمرأته: كأني بك لا تكسبُ شيئاً حتى لا أراك تقدِرُ على عمل لحافٍ آخر، فلو كان عندنا لحافان لكنَّا نتغطى بهما وننام.

وأخذت تشكو الفقرَ والتعاسة، ثم قالت: وفي أحدِ الأيام كان والدي.. فقاطعها الشيخ قائلاً: أنظري فإنّي تعبٌ لم أنَمْ فلا تقلقيني بكلامك الفارغ. ولكن كانت المرأةُ قد ٱنطلقَ لسانُها فلم تقدِرْ على السكوت، فقال لها: يا ٱمرأتي أنا سآتي إليك بقطنٍ كثيرٍ فٱعملي ما شِئْتِ مِنَ ٱلألحفة. وقام وفتقَ ملحفة اللحاف، وأخذها على عاتِقِه، ونزل إلى فسحة الدار، وبدأ يملأها ثلجاً فرأته امرأتُهُ من النافذة فقالت: كأنك تريد أن تمرض نفسك أيضاً باللعب في الثلج في هذه الليلة الباردة وتجلب لي بلاءً على رأسي؟

فقال لها: أريد أنْ آتيك بالقطن النازل من السماء مجاناً.

فقالت: أو هل سمِعْتَ أن الثلج يدفىء الإنسان؟

فقال لها: إذا كان لا يدفئ فكيف كان ينام آباؤُنا وأجدادُنا تحته بكلِّ راحةٍ ويدفأون؟

☆☆☆

٣٠٨

ما معنى «أبجد»

نزل الشيخ ضيفاً في إحدى القرى، عند بعض أهلها، فكان طعامُهُ يخنة الكوسا، كلَّ يوم، فعاف الشيخ تناول هذا الطعام، وصبر إلى أن جلس للوعظ، يوماً في المسجد، فقال: أيها الناس هل تعرفون معاني أبجد؟ فأنا أريد أن أشرحها لكم (أبجد) أي شد أذن الفلاح شدّاً (هوز) لأنه لا يكرم ضيوف الوعظ (حطي) كلَّ يوم يقول حُطِّي للشيخ يخنة كوسا (كلمن) أنا لا أتحمل هذا الكلام (سعفص) هذه المَعاملة لا يُشيرُ بها كتابٌ ولا نصٌّ (قرشت) لا لحم في صحنِ شيخِكم بهذا الوقت (ضظغ) افعل هذا وروح للآخرة بزاد واولغ.

فتألم القروي عند سماعه وعظ الشيخ وتعريضِهِ به، وقال: عَفواً يا سيدي الشيخ فنحن ما كُنا لِنعرفَ فضيلةَ إكرامِ الضيف. واعتذرَ له، وأخذ يُطعمُهُ لحمَ الغنمِ والدجاج المحمّر وما ماثله.

☆☆☆

٣٠٩

دعيني أبكي

مرضت امرأتُهُ، فكان كلّما عاد من شغلِهِ، يومياً، يأتي إليها ويبكي فوق رأسها.

فقالت له إحدى جاراتِه: لا تبتئسْ فلا بأس عليها، إن شاء اللّهُ ستتعافى قريباً.

فقال: أيتها السيدة، إنِّي رجل ذو شغلٍ وأذهبُ صباحاً إلى القرية، أو لشغل آخر، فما دُمْتُ الآن لا شغل لي فدعيني أبكي، إذْ لا يُمكِنُني البكاء بعد ذلك وليس لها مَن يبكيها غيري.

☆☆☆

٣١٠

عاتكة بن نصر الدين

وُلد للشيخ غلام فقالت له النساء: ضَعْ لهُ اسماً.

فبعد أن أذّن في أُذُنيهِ قال له: «يا عاتكة بن نصر الدين».

فتقدَّمَتْ إليه أمرأةٌ مسنَّةٌ وقالت له: إنَّ أمركَ عجيبٌ، فلا تتركُ المُزاح دقيقة، لقد قلنا لك أن تضع لهذا المولود اسماً. فقال لها: لقد سمّيته.

فقالت المرأة: أتُسمي الذكر بأسم الأُنثى؟ ألمْ نَقُلْ لك: أنَّه غُلام؟ فقال لها: أنا أعلم أنه غير أنثى ولكن هل يؤثر أسمُ الأنثى في ذكورة الغلام؟ وإنْ أردتِ الحقيقة فإني جعلت ذلك تذكاراً لزوجتي حتى إذا ماتت، فكلما صِحْتُ لِلغلامِ، يا عاتكة تذكَّرتُ أسم زوجتي التي أحبها.

☆☆☆

(٣١١)

إذا كانت ٱلقراءة والكتابةُ بالقاووق فٱقرأْ أنت سطرين

وردَ على أحد العامة من أهل أذربيجانَ كتاب بالفارسيةِ، فصادف الشيخَ في طريقِهِ وقال: اقرأ لي هذا المكتوب وأفهمني معناه.

فأخذ الشيخ الكتاب بيده، ولما رآه فارسي العبارة قال له: ليقرأهُ لك غيري. وأراد أن يُعِيدَهُ إليه.

فأصرَّ العجمي على الشيخ، فلما رأى الشيخ ذلك قال للعجمي: إن أفكاري مضطربةٌ لكوني تشاجرْتُ مع أمرأتي لا سيَّما، وأنَّ هذه الكتابة لو كانت تركية، لما كنت أقدر على قراءتها بهذا الخط.

فغضِبَ الإيرانيُّ وقال: أيُّها الشيخُ إذا كنت لا تعرف الفارسية، ولا القراءة فلماذا تضعُ على رأسِك هذا القاووق، الذي يُحاكي الغربال، وتتعمَّمُ بهذه العِمامةِ، التي تُوازي[1] حجر الطاحونِ، وتجعل نفسك في ميدان الشيوخ؟

فغضِبَ الشيخ، ورمى بقاووقه وجبّته إلى الأرض، أمامه، وقال له: إذا كانت القراءةُ والكتابة منحصرة بالقاووق والجبّة، فٱلبسهما أنت وٱقرأْ لي أنت سطرين من هذا الكتاب لِأرى.

☆☆☆

(١) توازي: تساوي.

٣١٢

قلبوا البئر حتى يجفَّ

كان يوماً في مدينة «أفيون قره حصار» وكان قد حضر إليها رجل إيرانيٌّ فاْجتمعَ به ورافقه في تجوالِهِ وفي أثناءِ الصحبةِ، رأى الإيرانيُّ تلَّةً سوداء مرتفعة عنِ البلد، فأراها للشيخ وسأله: ما هذا؟

فأجابه الشيخ: هذا بئر البستان.

فقال الإيرانيُّ: كيف يكون البئر على وجه الأرض مرتفعاً؟ فأجابه الشيخ: لقد نظفوه وقلبوا باطنَهُ إلى ظاهره حتى جفّ.

☆☆☆

٣١٣

ترحيب بلدنا بعد الشراب

عندما حضر تيمورلنك إلى مدينة «آقَ شَهْرْ» أوجس[١] علماؤُها وأهلُها خِيفةً من ظلمِهِ، ولما دعاهم إليه كان الشيخ في جملتِهِم طبعاً، فأخذ تيمورلنك يُحادِثُ الوجوهَ إيناساً لهم، وأمر لهم بمرطبات، وشرب تيمور، وكان حاكم البلدة حاضراً، فمن شدَّةِ خوفه من تيمورلنك، قال له بعد أنْ أتمَّ الشراب: «مرحباً» بَدَلَ هنيئاً، ولكنَّهُ اْنتبه إلى خطأِه فحار في هذه الكلمة التي قالها بغير أوانها في أول جلسة جلسها مع تيمور. وأخذ تيمورلنك يُصَعِّدُ بصرَه فيه ويحدجُه[٢]، وخِيفة أن يتفوَّه بكلمة غير مناسبةٍ أو لأجل ستر جهله، نهض الشيخ ووجَّه الكلام إلى تيمور قائلاً: يا سيدي جرت العادة عندنا أن يكون الترحيب في بلدنا بعد شرب المرطبات.

☆☆☆

٣١٤

الأئمة لم يعتادوا كلمة هات بل كلمة خُذْ

كان الشيخ مع بعض أصدقائه يتنزهون في البرية، وبعد الطعام، قام كلٌّ منهم

(١) أوجس خيفة: شعر بالخوف مسبقاً.

(٢) يحدجه: ينظر إليه بغضب.

يغسلُ يده في الحوض الكبير فبالقضاءِ والقدرِ زلقتْ رجل إمام المحلة ووقع في الحوض رأساً على عقب، فتسابق الحاضرون لنشله قائلين: «هات يدك» فما كان يُعطِيهم يده. وعندما رآهم الشيخ كذلك صاح بهم: ابعدوا من هنا فأنتم لا تعرفون طريقة تخليصه فالرجل يكاد يختنِقُ بالماء، ولا يسمعُ كلامَكُم، لأنَّ صِنْفَ الأئمةِ لم يعتادوا كلمة هاتِ بل كلمة خُذْ، فانظروا كيف أني أنقِذُهُ سريعاً.

ثم تقدَّمَ إلى الإمام وقال له: يا بكر أفندي خُذ يدي، وحالاً قال له الإمام: اللَّهُ يرضى عليك يا أخي. وأمسك بعضدِهِ فخرج به إلى ساحل السلامة.

☆☆☆

٣١٥

غداً يخرج صوتها

كان ذات ليلة راكباً مع تلميذه عائدَيْن إلى دارِه، فرأيا لصوصاً يلعبون بِقُفْل الباب، فخشِيَ إذا عارضهم أن يقع في هلكة، فلم ينبس ببنت شفةٍ، بل انسحب جانباً، وكانوا قد تألَّبوا[1] على الباب يعالجونه.

فسأل حماد شيخه قائلاً: ماذا يصنع هؤلاء؟

فقال له: يضربون على الرباب.

فقال حماد: ولماذا لا يخرج صوتها؟

فقال: غداً يخرج صوتها.

☆☆☆

٣١٦

حساب مضبوط

كان ماراً أمام دكان بائع خضار، فطالبه بدَين، فقال الشيخ: لننظر في الدفتر ونعلم مِقدار الدَين لنتخلَّص من الطلب. فأخذ الخضري يقلِّب الدفتر، والشيخ ينظر إليه فرأى اسمه، وكانت بينه وبين الخضري معاملة بمئات من القروش، لم يبق للخضري منها سوى ٣١ غرشاً، ووجد في الصفحة المقابلة لصفحته أن على إمام المحلة ٢٦ غرشاً فقال للخضري: أنظرْ يا ابني، فإنّي مدينٌ لك بواحدٍ وثلاثين

(١) تألَّبوا: تجمهروا، اجتمعوا.

غرشاً، والإمام بستة وعشرين غرشاً وليس بيني وبينه كلفةٌ فأسقط ٢٦ غرشاً فيبقى خمسة قروش، فإذا أعطيتني إياها تكون أتممت الحسابين معاً.

ففكَّر الخضريُّ. وهان عليه أن ينظِّف حسابين طال عليهما الأمدُ، ففرح وناول الشيخ خمسة قروش، وهو يبتسِمُ سروراً، فأخذها الشيخ وذهب، ولكنَّ الخضريَّ عندما بقي وحده فكَّر في هذه الحيلة الحسابيةِ، فلم يَفْقَه كيف يخرج من ورطتها.

☆☆☆

٣١٧

إذا كنتم كباراً فنحن صغار

دخل الشيخ ذات يوم مجلس تيمورلنك، وتقدَّم ببعض مطالب، باسم ٱلبلدة بكلِّ جرأةٍ، ورجا بعض تكاليف شديدةٍ لا تُطاق، فغضب تيمورلنك حتىَ تطاير الشرر من عينيهِ، وقال للشيخ: بأيةِ صفةٍ تطلب هذه المطالب العظيمة؟ فمَنْ أنت، وأنا ملك الدنيا بأسرِها، وأكبر كبير مسعود فيها؟

فأجابه الشيخ: إذا كُنتُم كباراً فنحن صغار.

☆☆☆

٣١٨

بالجهد تهضم معدتي هذا

استحضر تيمورلنك ذات يوم حاكم مدينة «آقَ شَهْرْ» لمُصادرة أمواله، بحُجةِ أنَّهُ ٱختلس مِنَ الأموال الأميريةِ مبالغ طائلةً، فأبرز الرجل حساباتِهِ المكتوبة على أوراق صفيقة، كانت تستعمل في ذلك الزمان فيأتي بها من بلاد الإفرنج تدعى «على قورنا» فما كان من تيمورلنك إلا أن مزَّقها وأجبر الحاكم على بلعها وٱزدرادها، ثم صادره حتى جعله مُفْلِساً عارِياً، لا يملك دانقاً، وٱستحضر الشيخ وأمره أن يجعل الأموال الأميرية تحت نظارته، وذلك لما ٱتَّصف به من ٱلاستقامة، فتعلَّل الشيخُ وٱعتذر فلم يقبل منه.

وفي آخر الشهر طلب منه الدفاتر الحسابية فأحضرها، وكانت مرقومة على رقاقٍ من خبز، فلمَّا رآه تيمورلنك تبسَّم تبسّماً سأَماً[1] وقال: ما هذا أيُها الشيخ؟

---

(١) سأماً: ضجراً.

فأجابه: يا سيدي أليس أنك تأمرُني في نهاية الأمر ببلعها وأنا لست رجلاً عظيم الشهوةِ كسَلَفي بل إنني طاعِنٌ في السنِّ، وبِالجهدِ تهضمُ معدتي هذا الورق.

☆☆☆

٣١٩

لا تؤاخذْهُ فقد خاف من أصوات المدافع

كان تيمورلنك وأشراف بلدة «آقَ شَهْرْ» وأمراؤهُ وعساكره جالسين، ذات يوم، في مجلس يتحادثون، فقام أحد المُجاهدين العثمانيِّين، وأخذ يقول: لقد أطلقنا في حرب كذا، كذا وكذا مدفعاً، وحارَبْنا كذا وكذا وقعةً، ولحقنا الأعداء على الصورة الفلانية، وفتحنا البلغار هكذا، وكسرنا الصليبيين في نيكبولي هكذا، وأخذ يعدِّد المآثر العثمانية ومفاخرها وانتصاراتها.

فقام أحدُ أمراءِ تيمور، وقد تألَّم من هذه الأقوالِ، وقال: كان لدينا في حرب أنقرة كذا خيلاً، وكان لدينا كذا مدفعاً (مع أنه لم يكن في جيش تيمور مدافع) فكانت قذائفُها تُرعِدُ وتُبرِقُ، وقد صار العثمانيون يرتجفون منَّا، ولما وصل إلى هذه الكلمة، إذا بولد صغير، كان حاضراً في المجلس، قد أفْلَتَ رِيحاً قويةً، رنَّ صداها، فحار المتكلم في أمره وقال: ما هذا؟

فكانت فرصة للشيخ الذي كاد أن يغمى عليه من هذا الحديث المزعج، فقال: لا تؤاخِذْهُ يا سيدي، فإنَّ هذا الطفل خاف من ذكرِ أصواتِ المدافع.





هٰكذا يُرمى الشيخ

استصحبه تيمورلنك معه في أيام الربيع، ليحضر تعليم الجندِ رمي القوس والنشاب، وفي أثناء الحديث، قال الشيخ: إني قد مارسْتُ رمي القوسِ والنشاب قليلاً، فأمَرُه تيمور أن يرمِي هو أيضاً ما دام الأمرُ كذلك.

فاعتذر الشيخُ، فلمْ يقبلْ منه، بلْ أجبره على الرمي، فأخذ القوس ورمى الهدف فما أصابه، فقال هكذا يرمي رئيس السكبان، ثم رمى آخر فأخطأ، فقال

هٰكذا يرمي الحاكم عندنا، ثمَّ رمى الثالث فأصاب الهدف تماماً فقال مفتخراً: هكذا يرمي الشيخ نصر الدين! فنال من تيمورلنك الإنعام العظيم.

☆ ☆ ☆

٣٢١

لم يصبه أذًى خارجيٌّ وإنَّما أصابه أذًى داخليٌّ

طلب تيمورلنك أحد أبطال الأتراك العثمانيين، ليستخدِمه بمعيتِه في منصبٍ كبير، وكان من الصعب أن يرضى أحدٌ بِالقربِ منه، لأنه يكون في كل وقت تحت القضاء، عُرضةً للسخطِ بعد الرضاء، لذلك لم يجرؤ أحد على التقدم، ولم يُمكِنهم أن يقولوا: أنه لا يوجد رجلٌ يصلح لخدمتِه، فراجعوا جحا في أمرهم، لأنهم كانوا يسمونه (منقذ الأرواح)، وقالوا له: إنَّك مِمَّن يُحبُّه تيمورلنك محبةً حقيقيةً في هذه البلدة، وقد تعلَّمت أطواره ويُمْكنك القيام بهذه المهمة، فنرجو أن تتولى أنت ذلك المنصب وتكون في معيته مدة قصيرةً، بينما نرى من يمكن أن يقبلها.

وكان الشيخ صافي النيّة، رقيق القلب، وفي الوقت نفسه كان ذا حميةٍ وطنيةٍ عظيمة فقبل رجاءهم ووعدهم بقبول اقتراحهم. وعرضوا الأمر على تيمورلنك فرضِيَ به، إلا أنه أراد أن يقوم بتجربةٍ ظاهريةٍ يمتحنُ بها ثبات جأشهِ، وأمر بذلك. فأقاموا جحا واقفاً في الميدانِ بحضرةِ تيمورلنك فرمى أحدُ الرماة نشابةً جعلها تمرُّ من بين رجلي الشيخ الذي خاف طبعاً، وإنَّما لم ينبِسْ ببنتِ شفةٍ، وقرأ كلَّ ما يحفظُه من دعوات الاعتصام، ثم أمر آخر أن يرمِي قوسهُ، ويصيب كم جبّة الشيخ الشمالي تماماً ويثقبه ففعل، وأصبح جحا في حالٍ عجيبٍ مِنَ الخوف، ثم أمر أن يرميه ثالثة بنشابٍ يصيبُ قلنسوتهُ تماماً، ففعل وثقبَ الزر.

فعندها خاف جحا خوفاً عظيماً، ولكنَّهُ وقف جامداً كالعمود لا يتحرَّك، ولمَّا لم يصبهُ أذًى بشَّروه بِالنجاة، فثاب إليه رُشْدُهُ، ولم يُظْهر تعبه أو خوفه، وأخذ يضحك ضحكاً عالياً، وأعجب السلطان بجرأتِهِ، وأنعم عليه بعطايا وافرةٍ، وأمر أن يعطُوه جبَّةً وقاووقاً جديدين، فشكر له هذه النِّعم، وقال أخيراً: أرجو أن تَأمروا لي بسروالٍ أيضاً لِيكْمُل فوج الثياب تماماً.

فقال تيمور: لقد أبلغونا أنه لم يصب سِرْوالك بضررٍ، وقد عاينُوه فلم يروا شيئاً.

فقال جحا: أجل يا سيدي كلامُك حقٌّ، فإنَّ السروال لم يُصِبْهُ ضررٌ خارجيٌّ من رماتِكُم، ولكنه أُصيب بأضرارٍ عظيمةٍ مِنِّي في داخله فلم يبقَ فيه مكان يُمكن إمساكُه منه.

٣٢٢

أرجو أن تتنهَّدَ لِأجلي مرة

كان له جار في «آقَ شَهْرَ» من أبطال الفرسان، وكان عندما يحضُرُ إلى داره في المساء يتنهد تنهيداً عميقاً، في الدور الأسفل، ثم يتنهَّدُ الثانية في الدور الثاني، ثُمَّ يتنهَّد الثالثة في الغرفةِ التي يقيم فيها، فأنتبه جحا إلى تنهده المتواصل، فسأله عن سبب ذلك فقال له: اتبعني لتفهم ما تريد استيضاحهُ.

وأخذ بيد جحا إلى الاصطبل وكان هناك حصان عظيم المنظر قويُّ الشكيمة فقال: أنظر إلى هذا الجواد الفائق الوصف، فإنِّي في واقعة «نيكبولي» الكبرى تقدَّمت به أمام الفرسان، وقمنا بحركة التفافِ هزمنا بها الصليبيّين، وكنت أنا السبب، ثم عاد متنهِّداً فخوراً، وجحا معه، فصعِدَ الدور الأول، وأراهُ في فسحة الدار أنواعاً من الأسلحة، وقال له: إن هذه الأسلحة أتى بها أجدادي من تركستان، فهي تلك الأسلحة التي اَستعملوها في فتوحات الروم في ايلي، وادرنه، والصِّرْب، والبلغارِ، وملحمةِ قوصَره الكبرى، ومنها ما استعملتُهُ أنا في ملحمة نيكبولي عند لحاقي بالصَّربيِّين، ومنها أسلحةٌ غنمتها من الصليبيِّين أيضاً، فهي تذكارٌ أبديٌّ لأحفادي، وهي أغلى ما لديّ من الآثارِ، ذات القيمة.

ومن سرورِهِ صعد متنهداً أيضاً، وجحا مُصغٍ إليه، بكل اَهتمام حتى بلغ الدور الأعلى، فنادى الفارس زوجته، فغطت رأسها وحضَرَت فأمرها بتقبيل يدِ الشيخ فرأى جحا وجهاً كالبدر، فقال له جاره: إنَّ هذه المرأة هي مِنْ حظايا السلطان ييلديرم بيازيد، وهي من أقاربِ الأميرة ماريجة قريبة أمير الصرب، وعندما أتَيْتُ بها إلى السلطان رأتني فأعجبْتُها، وسَمِعَتْ بِرجولتي، فمالت إليَّ، وبكَتْ طويلاً من أجلي، وأخيراً علمت الأميرة ماريجة بذلك، فعقدوا لي عليها، وأما علمها وفضلُها ودرايتُها وترتيبُها، وما هي عليه من محاسن فعظيمٌ، ثم تنهَّد تنهُّداً من أعماق قلبه.

فعندما سمع جحا ذلك قال له: الحقُّ معك بكلِّ ما تقومُ به ولكنِّي أرجو أن تتنهَّد لأجلي مرة واحدة.

☆☆☆

٣٢٣

يا أمة محمدٍ هلمُّوا[1] إلى صلاة الجنازة

عندما استولى تيمورلنك على بلاد الروم «الأناضول»، وأخذ المغوليون مدينة «آقَ شَهْرْ» هاجر سكان البلاد، فراراً من مظالمهم، والتجأوا إلى القرى والصحارى، واعتصموا بالجبال، خوفاً ووجلاً[2] وكان الشيخ في جملتهم، فأركب امرأته وولده على حمار له، وقصد قريةً صعبة المُرتقى. وفيما هو وأهالي البلدة مجتمعون أمام بحيرة ماء، أخذوا يذكرون مظالم المغول، وطباعهم الوحشية، واشترك معهُمُ الشيخ في الحديث، فأخذ يُعدِّدُ ما سيصيب الظالمين من العقاب في الآخرة، ويؤيد كلامه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وبينماهم يتحاورون بذلك، كان يسمعهم خِفية درويش مهِيب الشكل، أسمر اللون، أقنى الأنف، طويل الوجه خفيف اللحية، أسود العينين، ذو نظر حاد، وهو لابسٌ تاجاً أسود، وقد سترت ذوائبه حاجبيه، وارتدى عباءة، وفي يده كشكول[3].. فتقدَّم بينهم كالمدفع وقال: كلّا، أيُّها الشيخ، فإن ما قرأته من الآيات والأحاديث لا ريب فيه ولكن سيف النقمة الإلهية والعدالة الربانية، لا يتسلط على مَنْ ذكرتَ، وإنما يسلِّطُه اللَّه على أمثالكم ممَّن نُزِعت حميَّتهم، واختلط عرقهم بالعروق المنحطة، فأصبحوا لا هِمَّة ولا غيرة لهم ولا اتفاق ولا اتحاد بينهم.

فلمَّا سمِعوا هذا الكلام بذلك الصوت المرعب، والتعريضِ المدهش حار القرويون، وقد أغمي على كثير منهم، وبقِيَ البعض كالخشب المسندة، لا يدرون أين يذهبون، ولا ماذا يصعنون.

ونظر الشيخ إلى ذلك الدرويش من رأسه إلى قدمه، فكاد عقلُهُ يطير من رأسه، وقال في نفسه: عَجَباً مَنْ هذا، ومن أين أتى؟ ومن حيرته، قال بجرأة للدرويش: من أي بلاد أنت؟ وما اَسمُك المُباركُ؟

فقال الدرويش بصوت مرعب: أنا داهيةُ ما وراءِ النهر واسمي تيمور..!

وما أتمَّ كلامه حتى بلغَتِ الحيرةُ مِنَ الشيخ مبلغاً عظيماً، وأضاع صوابه، فقال له: وهل لاسمك خان مان؟

فزأَرَ بغضب: أجل!

---

(١) هلموا: اقبلوا سراعاً.

(٢) وجلاً: خوفاً.

(٣) كشكول: دفتر، أو كتاب.

فالتفت الشيخ حينئذ إلى القرويّين، وقال لهم: يا أُمة محمدٍ على نيّةِ الرجلِ هلمُّوا إلى صلاة الجنازة.

☆☆☆

(٣٢٤)

كنت أقصد أنْ أُلفِّقَ بين الطول والعرض

جاء إلى «آقَ شَهْرْ»، رجل فارسيٌّ، وأخذ يصِفُ قصور الشاه التي في أصفهان، وأنَّ كلّاً منها يحوي مائةً وخمسين غرفةً، ومساحتُها كذا ألفِ ذراعٍ مربَّعٍ، ويُبالغُ بذلك.

فقال له الشيخ: وعندنا في عاصمتِنا بروسةَ كثيرٌ مِنَ القصور حتى أنَّ حمّام بروسة الطبيعيَّ، الذي أُنشِئَ حديثاً مساحتُهُ خمسة آلاف ذراع.. وإذا بفارسيٍّ آخر قد دخل المجلس، وكان آتياً من بروسة حديثاً، فاستمرَّ الشيخ في حديثه فقال: وعرضُهُ خمسون ذراعاً.. فقال الفارسيُّ: لكنَّك لم تجعل الطولَ يناسبُ العرض، فقال الشيخ: أنا كنت أقصد أن أُلفِّقَ بين الطول والعرض، ولكن جاء هذا الرجل في زمن غير مناسب.

☆☆☆

(٣٢٥)

أنا لم آخذِ السروال حتى أدفع ثمنه

ذهب الشيخ لأشغالٍ له في بروسة، وسام قطعة جوخ ليعملها سروالاً، بخمسةَ عشر قرشاً. وعندما طواها البائع، وأراد جحا دفع ثمنها، فكَّرَ في أنَّ سِروالَهُ جديدٌ لا بأس فيه، وإنَّما إذا أخذ جُبّة أولى له، فقال لبائع الجوخ: كنت أقصد أخذ سروال فعدلت. والآن أعطني عوضاً عنه جُبَّةً بخمسةَ عَشَرَ قرشاً.

فقال له الرجل: حسناً. وناوله جبّة فأخذها وسار.

فقال له الرجل: يا شيخَنا لم تعطِني الثمن.

فأجابه الشيخ: عجباً أو ما تركت لك بدلاً عنها السروال؟!

فقال الرجل: يا سيِّدي إنك لم تعطني ثمن السروال.

فأظهر الشيخ حيرةً عظيمةً، وقال: سبحانَ اللّهِ ما أعجب البروسيين، فأنا لم آخذِ السروال حتى أدفع ثمنه!

(٣٢٦)

يا ليتكم لم تعلموا بهذه فإنَّها لا تقرأ للتسلية

خلع الشيخ ثيابه ليستحمَّ في بحيرة «آقَ شَهْرْ» فسقط من جيبه مجموعةٌ مخطوطةٌ، فأسرع رفاقُهُ، واختطفوها، وقلبوا أوراقها بكلِّ اهتمامٍ، فوجدوها تشتمل على عبارات بحق غسل الميت، وتلقينِهِ، ودفنِهِ وما ماثلَ ذلك.

وبعدَ أنْ لبسِ الشيخ ثيابه، سألهم عن المجموعة، وقال: يا ليتكم لم تعلموا بهذه، فإنَّها لا تُقرأُ لتسلية القلب الحزين.

☆☆☆

(٣٢٧)

لو لم يقدم الزارع حنطةً، لمات السلطان جوعاً

سأله يوماً شيخ القرية، وكان ضيفاً عليه قائلاً: السلطان أكبرُ أمِ الزارعُ؟

فأجابه الشيخ: طبعاً الزارعُ أكبرُ، لأنه لو لم يُقدِّم حِنطةً، لمات السلطان جوعاً!

☆☆☆

(٣٢٨)

ما هو طريق الموت؟

سألوه يوماً: كيف طريق موت ابن آدم؟

فقال: عندما يقول العارفون، فليسمعِ السامعون بآذانِ قلبهم، وإذا كان القائل سامِعاً فليعِ أيضاً الكلام بأُذُن نفسِه.



(٣٢٩)

أين الحق؟

قالوا لجحا: أين مكان الحقِّ؟

فقال: هل من مكان يخلو من وجود الحقِّ؟ حتى يُعيَّن موقعُه.

٣٣٠

خلاصة الطبِّ

قال الشيخ يوماً: إنَّ خُلاصة الطبِّ أن تُدفِّئ رجليك، وتُبرِّد رأسك، وتعتنِيَ بطعامِك، ولا تفكر طويلاً فيما يهمُّك.

☆☆☆

٣٣١

ضيف اللَّه يذهب لبيت اللَّه

كان أحد القرويين قد قلَّ حياؤُهُ، وتجرد من فضائل الأخلاق، فلا يتعاطى شغلاً، إنما جعل التسول دأبَه، فلا يذهب من دارٍ أتى إليها، ما لم يأخذ شيئاً، وكان يطلب من بعضهم ثياباً، ومن البعض طعاماً، ولا يتألَّمُ إذا طردُوهُ، أو أشبعُوه ضرباً، وقد تسلَّطَ على الشيخ، وأزعجه مِراراً عديدة.

وفي أحد الأيام قصد ذلك القروي دار الشيخ وضرب الباب فسألته امرأة الشيخ: مَنْ أنت؟

فقال: لي شغل مع الأفندي.

فنزل الشيخ، ولما رأى ذلك الرجل، سأله: ماذا تُريدُ؟

فقال: أنا ضيف اللَّه.

فقال له جحا: الحقني إذاً، فلحِقَهُ إلى أنْ وصل إلى أمام باب الجامع الشريف، فعندها قال له جحا: لقد جِئْتَ إلينا غلطاً، فإن هذا هو بيت اللَّه، يا ضيف اللَّه..

☆☆☆

٣٣٢

هذه الملابس رزقه

ذهب الشيخ، وهو طالب علم، للوعظ في إحدى القرى، وكان كلّما وصل إلى قرية، اعتذر أهلُها قائلين: لقد شرّفْتَنا، ولكن عندَنا إمامٌ في رمضان، ولا يقبلونه. وهكذا طاف قرًى متعددةً، وأخيراً وصل إلى قرية، كان قد تسلَّطَ عليها

ثعلبٌ فلم يُبْقِ فيها دجاجاً ولا ديكاً رومياً، حتى أنه اختطف أحذية بعض الأهلين، وأضرَّ بهم ضَرَراً عظيماً فنصبوا له فخاً، وبكُلِّ حيلة ووسيلة، أمكنهُمُ القبضُ عليه حياً، وقدِ ٱجتمع أهلُ القرية يتذاكرون في كيفية قتله، فتقدَّم جحا إليهم، ولما سألهم، قالوا له: يا سيدنا الشيخ، إنَّ هذا الثعلب الملعون، قد تسلط علينا، ولم يُبْقِ في دواجِننا، ولم يذر[1]، وقد حمِدْنا اللَّهَ تعالى لوقوعه في الشرك الذي نصبناه له، ونحن نبحث في كيفية الانتقام منه. فقال لهم في الحال: تنحُوا[2] أنتم، ودعوا لِيَ المسألة.

فقال القرويون فيما بينهم إنه رجل ذو فروة، ولا بُدَّ من أنْ يكونَ أعلمَ منَّا، فتنحوا، ووجَّهوا أنظارهم إليه. وأسرع جحا فخلع جُبَّتَهُ، وزنّاره وألبسَهُما الثعلبَ وربطَ الجبّة في وسطِهِ ربطاً محكماً، وأطلقَهُ في البرية، فصاح القرويون: ماذا صنعْتَ؟ وقاموا يُريدُون القبض على الثعلب. فٱعترضَهُمْ جحا، ومنعَهم قائلاً: اصغوا إليَّ، فإنِّي قد فعلْتُ معه فعلةً، لا تخطُرُ في بال أحد، فهذه الملابسُ ستكونُ سبباً في قطع رزقه، فلا يُؤويهِ، ولا يُطعِمُهُ، ولا يُشفِقُ عليه إنسان.

☆☆☆

(٣٣٣)

كيف أصعدُ إليك وأمدك؟

ذهب يوماً من بلدته «سيوري حصار» إلى مدينة «آقَ شَهْرْ»، في صِباهُ، فسمِعَ المؤذِّن في المنارة، فظنَّهُ يستغِيثُ به فناداهُ من تحت: ماذا أصنعُ لك يا عمّ، فقد رَقيْتَ شجرة عالية لا غصن لها فكيف يمكنني أنْ أصعدَ وأُمِدَّك؟

☆☆☆

(٣٣٤)

قِفْ هنا وأنا أُريك كيف أغشُّك

سمع جحا غلاماً يدَّعي أنه لا يقدِرُ أحدٌ أن يخدعَهُ، أو يغشَّهُ، فقال له: قِفْ ها هنا وٱنتظِرْني، فبعد قليل أُريك كيف أغشُّك. وتركه وذهب.

فٱنتظرَ الغلامُ عدَّةَ ساعات، ولم يرَ أثراً لجحا فضجِرَ من وقوفه، وأخذ

---

(١) يذر: يترك.

(٢) تنحوا: ابتعدوا جانباً.

يتململ، فمرّ به أحد أصحابه، وقال له: لماذا أنت واقف هنا؟ فحدَّثَهُ بما كان. فضحك صاحبه وقال له: يا لكَ من أحمق، فها قد غَشَّكَ وٱنطلَتْ عليك الحيلة.

☆☆☆

(٣٣٥)

إنها قِرابُ فأْس

كان جحا في طفولتِهِ يلعب مَعَ الأولاد في مكان خربٍ من البلدة، فوجد رفاقُهُ فردة حذاء، فأخذوا يقلِّبونها، ليعلموا ما هي فلم يقدروا أنْ يشبهوها بشيء، فحملوها إلى جحا وأروه إيَّاها، فضحك، وقال: يا لكم من أغبياءٍ، ألا تعلمون أنَّ هذا قِرابُ فأس؟

☆☆☆

(٣٣٦)

أنقل دارك إلى المزرعة

شكا إليه رجل أَنَّ دارَهُ لا ترى الشمس.
فقال له جحا: ومزرعَتُك ألا ترى الشمس؟
فأجابه: أجل. تراها.
فقال: وعلى ذلك فٱنقلْ دارَك إلى المزرعة.

☆☆☆

(٣٣٧)

سأريكم كيف أعيد رِجل كل منكم إلى صاحبها

كان جمع من الأطفال جالسين على شاطىء نهر وقد أَدلَوْا أرجلهم في الماء، وهم يقولون، فيما بينهم أين أرجلنا؟ وأحدهم يقول: هذه رِجل حسين.

وأخذوا يتجادلون، ويضجون، فمرّ جحا بهم، وسمِعَ صارخهم، فقال لهم: انتظروا قليلاً فسأريكم كيف أُعيدُ رِجلَ كلٍّ واحدٍ منكم إلى صاحبها، فلا تضجُّوا، وأخذ عصاه فأدخلها في الماء وضرب أرجُلَهم بشدةٍ، فأسرعوا في الحال، وأخرجوا أرجلهم منَ الماء، وعلِمَ كلٌّ واحدٍ رِجله.

٣٣٨

ابتعتُهُ من سوق الحذائين

دُعِيَ جحا إلى عُرْسٍ، وعندما دخل الدار لم يستقبله أحدٌ، ولم يجِد هناك مَن يحفظ حذاءه، فقد اختلط الحابل بالنابل[1]، ولئلا يُسرق حذاؤه، أخرج منديلاً من جيبه، ولفَّهُ به لفاً محكماً وجعله في عبّه، ودخل غرفة الاجتماع، فجلس في المكان الذي دلّوه عليه، فرأى أحدُ الجالسين بجانبه أنَّ عُبَّه منتفخٌ، وقد ظهر طرفُ المنديل.

فقال له: هل هذا الذي في عُبّك يا سيدي كتابٌ نادر؟

فقال الشيخ: نعم.

فقال له الرجل: عن أي شيء يبحث هذا الكتاب؟

فقال: في علم الاقتصاد.

فقال الرجل: هل ابتعتهُ من سوق الكتبيين؟

فأجابه: كلَّا، وإنَّما ابتعتُهُ من سوق الحذائين!

☆☆☆

٣٣٩

واحدة بواحدة

وضع كرم في ميدان البيع بمدينة آقَ شَهْرْ، فظهر له بضعة طالبين، واقترب أحدُهم من الشيخ راجياً منه أن يبتاع له ذلك الكرم بثمن مناسب، فذهب جحا إلى صاحب الكرم وساومه، فاتَّفق معه على الثمن، وجاء المُشتري، وسأل جحا عمَّا تمَّ، فأجابه لقد انتهى كلُّ شيءٍ بعد مشقّةٍ عظيمة. وحصل الأمر فوق ما تؤمِّلُ، وأجريت ما أمرت به تماماً، إكراماً لك.

فما كان من الرجل إلا أن شكر جحا شكراً جزيلاً، وعاد جحا إلى الكلام فقال: وإن لي حاجةً يسيرةً لا أظنُّك تُخالفني في الرضا بها، والمساعدة عليها.

فقال الرجل: ما هي تلك الحاجة، فإنِّي مستعدٌ لكلِّ ما يسرّك؟

فقال جحا: لقد سعيت بكلِّ طاقتي حتى أقنعت بائع الكرم بهذا الثمن التافه،

---

(١) اختلط الحابل بالنابل: كناية عن اشتمال الفوضى في المكان.

ورأيتُ أن لا تفوتني الفرصة فاَشتريت الكرم لحسابي، فأرجو أن تجعل موافقتك لي على شرائه مقابل خدمتي لك في إقناع صاحبه، فتكون واحدةٌ بواحدة.

☆☆☆

٣٤٠

إذا كان إمامه تيمورلنك فنبيّه جنكيز

سأل يوماً أحد جماعة تيمورلنك: ما مذهبك؟

فأجابه الرجل بعد أن وضع يده على صدره متذلّلاً «الأمير تيمور كور كان».

فقال بعض الحاضرين: اسأله يا سيِّدي مَن نبيّه؟

فقال جحا: لماذا أسأله، فإذا كان إمامه المعتقد تيمور الأعرج فبالطبع يكون نبيّه جنكيز السَّفَّاكُ.

☆☆☆

٣٤١

يا ابن أخي مهرت أكثر منِّي

علم أعيان مدينة «آقَ شَهْرْ» بفضل الشيخ وكماله، فأقاموه معلم مدرسةٍ لأولادهم، حتى يكتسبوا من معارفه، وأرسلوا أولادهم إليه.

وفي ذات يوم عاد ابن أحد الأشراف إلى بيته، فاَختبره والده بالدروس التي يتلقَّاها، فأجاب أجوبةً حسنةً، أعجبت والدهُ، وسُرَّ لها سروراً عظيماً، ومن شدَّة سرورِهِ أرسل مع خادمِهِ صدر بقلاوة هدية للشيخ.

ووصل الصدر في وقت الدرس، والشيخ عازمٌ على أن يذهب لحضور جنازة، فقال للتلاميذ المتقدِّمين في المدرسة: إني سأضع هذا الصدر على الرفّ، وإيَّاكم أن تذوقوه لأن إرساله إليّ لم يَرُقْ لَدَيّ، ولست آمِناً من عداوة مرسله، فربَّما يكون قد وضع لي فيه شيئاً مُهْلكاً، فأخشى أن تتسمَّموا وتموتوا، وأكونُ مسؤولاً فأُوضَعَ في غيابة السجن[1].

ولمَّا اَعتقد أنَّ كلامه أثَّرَ في نفوسهم ذهب إلى الجنازة.. وكان ابن أخي

(١) غيابة السجن: في مكان معتم منه.

الشيخ عريفاً في المدرسة على الأولاد، فعلم أنَّ هذا الكلام دسِيسةٌ، يقصد منها عمُّه أنْ لا يأكل صدر البقلاوة. فٱغتنم فرصة غيابِهِ، وأنزل الصدر عن الرفِّ وجمع حوله الأولاد الذين يميل إليهم، ودعاهم أن يأكلُوا معه، فقال الأطفالُ: ألم تسمع قول الشيخ أنَّ هذه البقلاوة مسمومةٌ، فنحن لا نأكلُ، ولا نُريد أن نموت هذه الميتة الشنيعة، فقال لهم العريف: كلام الشيخ خدعةٌ لكم، أنا سآكلُ فلا تلوموني فيما بعد.

فقال الأولاد: نعمْ نأكل ولكن بماذا نعتذر للشيخ؟

فقال لهم: أنتم تعرفونني، وقد هيَّأتُ له كلاماً مُسْكِتاً، فهلمُّوا لِنأكل. وٱتَّفق الأولاد بعد أن أمنوا جانب جحا، وأكلوا صدر البقلاوة بتمامه، ولم يبقوا منه شيئاً ومسحُوه بألسنتهم مسحاً بين ضحك ولعب.

وبعدما ٱنْتَهَوا من ذلك جلس العريف في مكان جحا، وكسر مِبراتَه، وإذا به داخلٌ فعندما رأى مبراتَهُ قد كُسِرَت، غضب، وقال: مَن كسر هذه؟

فأشار جميع الأولاد إلى ابن أخيه.

فسأله جحا: لماذا كسرت المِبراة؟ فسأكْسِرُ عظمك.

فأخذ الولد المحتال يبكي، ويصخب، وقال وهو يشهق: انكسر قلمي فأردت بريَه، فانكسرت المبراةُ، فغضبتُ لما أصابني، وقلتُ بأيِّ وجهٍ أُقابِلُ عمِّي؟ وبماذا أُجيبه؟ وهو إذا حضر سيضربُني، ويكسِّرُ عظمي، ففضَّلتُ ٱلموت على هذا العذابِ، وفكَّرتُ في وسيلةٍ أموت بها، وقد أردتُ أن لا أُلوِّث بئر المدرسةِ، وأخيراً خَطَرَ في بالي أن آكل من صدر البقلاوة الذي على الرَّفِّ، فتشهَّدت وطلبتُ السماح من رفقائي، ومن والدي وأختي، وتلك البائسة أمِّي، وأغمضتُ عيني، وٱزدردت قطعةً من البقلاوة وٱنتظرت الموت إلَّا أنني مع الأسف ولسوء حظِّي لم أمت!

فلما سمع جحا أقوال ابن أخيه، كاد يتميَّز غيظاً لذهاب البقلاوة، وٱنكسار المِبراة ولكنَّهُ تجلَّد، وقال:

- إنِّي أجدُ لكلِّ سُؤالٍ جواباً، ولكلِّ لفظٍ مقابلاً، ولكنَّك يا ٱبن أخي مهرت أكثر منِّي، فٱلظاهرُ أنَّ سلالتنا ٱكتسبت حقاً بهذه الحيل.

☆☆☆

٣٤٢

ستُجازى بعد أربعين يوماً

تسلط أحد العوام على جحا، وأخذ يُؤذيه حتى أنَّه في أحد الأيام، كسر عصا جحا المصنوعة من خشب اللوز، وكان يحمِلُها منذ سبعةٍ وعشرين عاماً، فأنكسر خاطِرُ جحا، وتألَّم على فقد عصاه، فدعا عليه قائلاً: أسأل اللَّهَ أن يكسر رِجلك كما كسرت عصاي، وسيُرى أثرُ ذلك قريباً، ولا أدري أبعد ٤٠ يوماً أم ٤٠ أسبوعاً أم ٤٠ عاماً فاللَّه سبحانه وتعالى، يجازيك وهو المنتقم.

فضحِك الرجل من عملِ جحا، وقوله، وتركه، وما سار قليلاً حتى زلقت رِجلُهُ وانكبَّ على وجهه، وكُسِرت ساقهُ فخاف خوفاً عظيماً، وزحف قاصِداً جحا، والدّموع تتساقط من عينيه، وقال له: أرجو أن تعفوَ عنِّي فقد قلت لي: إني أُجازى بعد ٤٠ سنةً على الكثير أو ٤٠ يوماً وأراني جُوزيت عاجلاً فما هذا؟

فأجابه جحا: إنَّ هذا الجزاء الذي نلتهُ، هو لأنَّك آذيت غيري منذُ ٤٠ يوماً وأما ما فعلته معي فستجازى عليه بعد ٤٠ يوماً وتكسِرُ ساقك اليُمنى، وتأتي زاحفاً إليَّ.



٣٤٣

هل كلُّ الحقِّ عليَّ ولا ذنب على اللص؟

سُرِق حمارُ الشيخ فأجتمع إليه أصحابُهُ فطلب منهم أن يساعدوه على معرفة السارق. وبعد أن أصغى الحاضرون إليه، وسمِعُوا تفاصيلَ الحادثة بحروفها، قال أحدُهم: يجب أن تضع قُفْلاً على باب الاسطبلِ، وإلا فإنَّ عمل سكرةٍ خشبيةٍ لا يفيد إذ بأقلِّ حركة يُمْكن كسرها، وأنت خبيرٌ بلزوم بناء جدران البيت عاليةً، فهل كنت مائتاً، ولم تدرك أنَّ الذي سرق الحمار أخرجه من الباب لا أنه وضعه في عبِّهِ وسار.. فأين كنت حينئذ؟

وقال آخر: وأعلَمْ أنِّي في الليل أقفلُ باب داري من خلف وأضع المفتاح تحت رأسي فبالطبع لا يجسرُ[1] اللصوص أن يكسروا القفل، ويذهبوا ببقري كيفما شاؤوا.

وأخذوا يتداولون مثل هذه العبارات التي أبرمتِ[2] الشيخ وكانت كلُّها تعنيفاً

(١) يجسر: يتجرأ. (٢) أبرمت: أضجرت.

له، ولَوْماً على تفريطه، فنفد صبره وقال: أيُها السادةُ، إنكم تقولون الحقَّ، وكلُّ ذلك عائد إلى الماضي، ولا يُفيد الآن إلّا أنّي أرجو منكمُ الإنصاف فهلْ كلُّ الحقّ عليَّ؟ وهل اللصُّ لا ذنب عليه أبداً؟!

☆☆☆

٣٤٤

في آخر الزمان

قصد بعضهم أن يمزح مع الشيخ قبيل الغروب في أحد أيام رمضان، فكلَّفهُ أن يرى له الساعة، وكان الشيخ غائصاً في بحار الأفكار فاْستاء من سؤالِهِ، وقصد مماحكتَهُ، فكان بينهما ما يأتي:

قال الرجل: كم الساعةُ يا سيدي الشيخ؟

فقال جحا: لي ساعة واحدة.

الرجل: لا أقصدُ ذلك بلْ كم بلغت اْلساعة؟

جحا: واللَّهِ، إنَّ ثمنها مع زنجيرها، وأجرة الدلّالِ قد بلغ ١٨٠ غرشاً.

الرجل: سبحانَ اللّه، كأنّي لم أقْدِرْ أن أُفهمك، فكم بقيَ للغروب يا سيدي؟

جحا: هل تُريد أن تفطِرَ عندنا؟ لقد جِئْتَ في وقتِك، وفكري مشغولٌ بذلك فاْسمعْ لأعدَّ لك أنواع الطعام: خبز شعير عال، بصل أخضر، شمَّام، خيار، وربَّما كان هناك شيءٌ من البرغلِ المفلفل.

الرجل: كلا يا شيخي، كأنَّك تقصِدُ المزاح، فنحن الآن بأي زمان؟

جحا: نحن الآن في منتصفِ الصيفِ، تماماً في فصل الزمن الحار.

الرجل: اللّه اللّه، كأني صرتُ أُضحُوكةً للشيخ نصر الدين، وهذا ما كنت أخشاه، يا رجلُ أقول لك: الزمان ما هو الآن؟

جحا: يا ولدي هل من أحد لا يعرف أننا الآن في آخر الزمان؟

☆☆☆

٣٤٥

صوص ص ص ص..

كان في أحد أيام صِباهُ ماراً أمام دار أحد البخلاء، فرأى سِرْباً من الأوزّ واقفاً

بِحذاءِ الجدارِ، فهجم على أكبرها، وأخذها، ووضعَها تحت جُبَّته، وأسرع بها خائِفاً من صاحبِها البخيل. وبعد أن سار مسافةً طويلةً عجب من الأوزَّة، لأنه لم يسمعْ لها صوتاً، فأراد أن يعرف سبب صمتها، فدخل زقاقاً خالياً، ورفع جبّته قليلاً.. ونظر إلى وجه الأوزة، فرفعت رأسها وصاحت حسب عادتها «صوص ص ص ص ص ص».. (ومعنى كلمة صوص بالتركية أُسكُت) فقال لها: مرحى بك يقولون: إنَّ الأوز جاهل، وفي الحقيقة إنك أعقل من سيدِكِ، وقد رفعتُ جبّتي لِأُوصيك بالسكوت!

☆☆☆

٣٤٦

الحمير ثمانية أم تسعة؟

من عادة أهالي الأناضول على الأكثر أن يتناوبوا الأشغال، فمثلاً لو ٱقتضى لجماعة منهم أن يطحنوا حبوبهم، يذهب واحدٌ منهم بطحناتِ رفاقهِ، فبدلاً من أن يذهب عشرةٌ أو خمسة عشر شخصاً، وينتظروا عدَّة أيام لتجيءَ نوبة طحنهم، يسلِّمون أعمال الحنطة مع ٱلحيوانات إلى مَنْ تكونُ نوبتُهُ فيأخذُها ويطحنها ويعود.. ويذهب غيره في السفرة التالية، وهلُمَّ جرّاً، لأنَّ الطاحون تبعدُ بِضْعَ ساعات عنِ القرية.

وجاءت نوبة جحا فٱجتمعت حوله ثمانية حميرٍ لأصحابه، عليها ثمانيةُ أحمال حنطةٍ، وركب حماره، وسار بها. وخطر له في أثناء ٱلطريق أن يعدَّها، فعدّها، فكانت ثمانيةً فضاع صوابُهُ خوفاً على حماره لأنَّهُ كان تاسعها. وصاح بالحمير كلِّها فوقفَتْ ونزل عن حماره ففتَّش وراء ٱلشجرةِ، وفي المُنعطفاتِ، ورجع وعدَّها فوجدها تسعة فقال: سبحان اللّه.

وركب فعرضت لهُ الشبهة أيضاً، فعدَّها فإذا بها ثمانية، فحار في أمره، وفكَّر طويلاً، ونزل فعدَّها فوجدها تسعة، فكاد يجنُّ، وقد فكَّر في حكايات الجنِّ وٱلشياطين وألاعيبهم، فطاشَ[1] فكره وأخذ يتلو كثيراً من الدعوات. ثم ركب حماره، وعاد الشيطانُ فوسوسَ له أن يعدَّها، فعدَّها وإذا بها ثمانية، فنزل وأخذ يصرخ بكلِّ قوَّته ويتلو الآياتِ ويستعيذُ باللّهِ. ومن شدَّةِ خوفِهِ بدأ يسمعُ أصواتاً غريبة فجعل يرتجفُ كٱلورقةِ في مهبِّ الريح.

---

(١) طاش فكره: ذهب عقله حتى جهل ما يحاول.

وحاولَ أن ينزل الأحمال فلم يستطع، فٱنزوى تعباً. منتظِراً أن يمرَّ أحد الناس فيأنس بِهِ، ويطردَ عنه وسواسَه؛ وإذا برجلٍ قد أقبل ورأى الشيخ على هذه الحالة؛ ومن لا يعرفُ الشيخ وأحواله، فسأله عمَّا حدث له، فأخبره بقصته، قائلاً كأنَّني لم يكفِني حالي مع ٱلناسِ حتى أنَّ الغيلان والجِنَّ تُريد أن تعبث بي.

فقال له الرجل: لا تفتكر بذلك، فما هو إلا وهمٌ طرأ عليك، وهل رأيت شيئاً؟

فقال: كلا. لم أسمع سوى أصواتٍ مزعجةٍ.

فأخذ يسلِّيه. وبعد أن تناولا شيئاً من الطعام اعتدل حال الشيخ وعاوده نشاطُهُ فأخذَ يقفِزُ ويلعَبُ، وودَّعَ الرجل، وركِبَ حماره وساقَ ٱلحمير أمامه، ثم قال في نفسه: لأعدَّ الحمير الآن. وعدَّها فوجدها ثمانية.. فنادى الرجل، وكان لا يزال قريباً منه بحيث يسمع صوته، فجاءه الرجل، فقال له بصوتٍ يخنقُهُ البُكاء: أنظر فإنَّها ما زالت ثمانيةً، فما هذه الحال التي وقعت فيها؟

ولكنَّ الرجل لم يلبث أن قال له: هل عددت الحمار الذي أنت راكبه؟ فكلُّ ما حصل لك هو أنك لم تعدَّ حمارك.

فضرب جحا بيده على جبينه ضربة شديدةً ونزل عن الحمارِ، وأخذَ بيديّ الرجل يقبّلُهما، وحار الرجل لاضطراب جحا، فيما وقع له، ولم يُمكنه أن يمنع الشيخ من تقبيل يديه قائلاً: اللَّهُ يرضى عليك فقد أرشدْتَني وأعدت إليَّ حياتي وعقلي، لأني أكادُ أجنُّ ممَّا جرى فكم من حادثةٍ تلقي الإنسان في مهد الحيرة وما كلُّ المصائب ٱلبشرية إلا من ٱحتجاب[1] الحقيقة عن العقل بحجاب ٱلغفلة، ومتى فتح سلطان الحقيقة أبوابها، تتجلى، ولو كشف الغطاء لِتُعانق الأعداء، وذهبت من بينهمُ العداوةُ والشَّحناءُ، وكانوا في نعيم الحياة راتعين[2].





جحا والعميان

كان جماعة مِنَ ٱلعميان جالسين في قهوة، فمرَّ بهم الشيخ، وأخرج كيس دراهم وحرَّكه ليسمعوا صوتَ الرنين، ثُمَّ قال لهم: خُذُوا هذه الدراهم وتقاسموا بينكم. ولم يُعْطهم شيئاً، وجلس بعيداً عنهم ينظر إليهم.

(١) احتجاب: اختباء، اختفاء.
(٢) راتعين: يرتاحون منعمين.

فما كان من العميان إلّا أن قامُوا بعضاً على بعض، وكلٌّ منهم يقولُ لغيره: أَعطني حقِّي، هات حُصَّتي.. وتشاجروا شجاراً عنيفاً وتضاربوا بالعصي، وصاروا يقومون ويقعدون هنا وهناك، والشيخ بعيداً عنهم يكادُ يغمى عليه من شِدَّةِ الضحك.

☆☆☆

٣٤٨

إن كنت أذهب من هنا فلعنة اللّه عليّ

ذهب في ربيع إحدى السنين مع رفاق له إلى قرية، ذات بساتين ورياضٍ غنَّاء، حوَت أنواع النبات والفواكه والأزهار، وناهيك بزمن الربيع وخضرته، فأمضوا وقتهم بسرور وصفاءٍ، وأكلوا ما معهم من الأطعمة.

وعندما حان زمنِ العودة عزَّ عليهم أن يُفارقُوا هذه الرياض فعزمُوا على البقاء بضعة أيام، وأخذ كلٌّ منهم يتعهَّدُ بتقديم شيءٍ ممَّا يحتاجون إليه في مدة مُكْثهم[١]، فقال أحدهم: عليّ البقلاوة والفطير، وقال ثانٍ: عليَّ الخروف المحشوُّ، وقال ثالث: عليّ ورق الدوالي المحشوُّ والمطبوخُ بالزيت، وقال رابع: عليَّ المقبّلاتُ والفواكهُ من الجبن والبرتقال والتفاح والكُمَّثرى وأمثالها.

ثُمَّ نظروا إلى جحا، وقالوا له: وأنت أي شيءٍ عليك؟

فقال: عليّ لعنةُ اللّهِ والملائكة والرسل إذا دامت هذه الضيافة ثلاثة أشهرٍ إنْ كنتُ أبرح دقيقةً واحدة من هنا.

☆☆☆

٣٤٩

أخاف أن تدركه رقة فيسجد

سافر جحا، ذات يوم إلى إحدى المدن، ونزل في أحد خاناتها ففي اليوم التالي قال لقيِّم[٢] الخان: يا أخي، إنّي أسمع، طوال الليلِ، قرقعةً في سقف الغرفة التي نِمتُ فيها فيا ليتك تأتي بنجارٍ ماهرٍ، وتكشِفُ على أخشابها ليرى ما فيها.

(١) مكثهم: إقامتهم.
(٢) قيِّم الخان: المدير المسؤول عن الخان.

فقال له القيِّمُ: يا سيدي، هذا البناء قوي لا يتهدَّمُ، وليس ما تسمعه من قرقعة السقف إلا تسبيحاً بحمد اللّه، الذي يسبِّحُ بحمده كلُّ ما في الوجود.

فأجابه الشيخ قائلاً: صدقت، وإنَّما خوفي العظيمُ من تسبيحِهِ وتهليلِهِ، لأنِّي أخاف أن تُذركه رِقَّةٌ فيسجدُ سجدةً طويلةً على غير انتظار.

☆☆☆

(٣٥٠)

تخلص الشيخ من أسئلة مطوّلة بلطف

ذهب الشيخ عندما كان طالب علم، إلى بعض القرى للوعظ، فكان أهلُها يرحِّبون به، ويسألونه عن صحته حسب العادة، ولكن أهالي القرية بدأوه بالسؤال عن أقاربه، وأصدقائه، وأشغاله، وجيرانه، وغيرهم، ممَّا يطولُ شرحُه، فضاق ذرعُهُ بأسئلتهم فأنزوى في جهة، وفكَّر ماذا يصنع للتخلص منهم مع المحافظة على ودِّهم، وولائهم للفوز بإحسانهم، فأخذ ورقةً وكتب فيها بالقلم العريض أجوبة، تحيط بالأسئلة، التي رأى أنهم سيسألونه عنها.

وفي المساء أجتمع أهل القرية، وتقدَّم بعضُهم للسلام عليه، فعندما رأى ذلك قام إلى مكان مناسب، وأخرج الصحيفة وتلاها على الحاضرين بين الضحك واللعب، فسُرَّ القرويون، وأنقذ نفسه من مجاوبة كُلِّ واحد على حدة.

☆☆☆

(٣٥١)

نادتني جارتنا
لأن حمارتها ولدت فلواً بلا ذنب

خرج الشيخ من بيته، بعد أن قال لامرأته: يا عزيزتي، اطبخي لنا برغلاً مفلفلاً لنتناوله مساءً بلذة وسرور. وعاد في المساء تعباً فخلع ثيابه، وأستراح قليلاً، ونهض إلى المائدة لأنَّ معدته كانت أفرغ من فؤاد أم موسى، فرأى أنَّ أمرأتهُ هيَّأت له برغلاً ولبناً وبصلاً أخضر أيضاً، فقال لها: مرحى لك أيَّتُها المرأة المحبوبة. وجلس وملأ ملعقةً وازدردها بأشتهاءٍ، وأخذ في أثناء الطعام يمزح، ويضحك مع امرأته، وفيما هو كذلك جاء ولد يتيم من أبناء جيرانه، وقد نكَس

رأسهُ إلى الأرض في طورٍ محزن، وقال: يا عمِّي الشيخ اركضْ، فإن والدتي تريدك، إذ ليس لنا سواك. فقام مُسْرعاً لما فُطِر[1] عليه من الرأفة والشفقة، ولم يغب قليلاً حتى عاد إلى البيت، وقد أرخى حاجبيهِ تأثُّراً، وذهب سرورُهُ فدعتْهُ امرأتهُ لِتكميل العشاء، فلم يشأ، فسألته: ماذا جرى؟ فقال لها: تمنَّيتُ، بعد عدة سنين، أن أتناول وإيَّاكِ شيئاً من البرغل براحةٍ فلم أُوفَّقْ، فقد نادتني جارتُنا لأنَّ حمارتها ولّدت فلواً عجيب الشكل بلا ذَنَب!

☆☆☆

٣٥٢

الحمد للّه إذ لم أكن لابساً حذائي الجديد

بينما كان الشيخ يحرث، دخلت في رِجله شوكةٌ عظيمةٌ آلمتهُ كثيراً، فغسل رِجله بالماء البارِدِ ولفَّها، وقال: الحمد للّه إذ لم أكُنْ لابساً حذائي الجديد الذي اشتريته أمس.

☆☆☆

٣٥٣

لو كنت في البيت لصرتُ هريسةً

بينما كان راكباً حماره يقصدُ بيته، حصلت زلزلةٌ شديدةٌ، فأسرعَ. ونزلَ عن الحمار، وسجد قائلاً: الحمدُ للّه.

فسأله رفاقه: لماذا سجدت؟

فقال: إن بيتي أو بكلمة أخرى كوخي الحقير، لا بُدَّ أن يكون قد سقط بهذه الزلزالة، فماذا كان يصيرُ بي، لو كنت فيه، ألا أكونُ صِرْتُ هريسةً تحته؟

☆☆☆

٣٥٤

جحا والغني

أعطاه أحد الأغنياء خمسمائة غرشٍ، وقال له: أرجو أن تدعُو إليّ عقيب كُلِّ

(١) فُطِرَ: خلق.

صلاةٍ من الصلواتِ الخمس: فأخذ الشيخ أربعمائة وخمسين غرشاً منها وأعاد إليه خمسين غرشاً قائلاً: يا سيدي، إنَّ الليل قصيرٌ كما أنَّ لسان السفيه طويلٌ فعفواً، لأنِّي لا أقومُ لصلاة الصبح بل أُصلِّي الصبح قضاءً، فلا حقَّ لي بأجر صلاة الصبح تماماً وأستحي من ٱللَّهِ تعالى أن آخذها!

☆☆☆

(٣٥٥)

ما دام هذا الطعام وهذا الكلب عندكم لا يتعافى ابنكم

نزل الشيخ، عند بعض الفلاحين، فأكرمه ذلك الفلاح مع شدَّةِ فقره، وقبلهُ بسرور، وقدَّم له من حواضر البيت لبناً وقشطة وعسلاً، فأكل الشيخ من ذلك الطعام النفيس شيئاً كثيراً، وما كاد يُصلِّي العشاء حتى ٱنسحب إلى زاوية الكوخِ، ونام نوماً عميقاً، وكان بجانبه طفلٌ، عمرُهُ خمسُ أو ستُّ سنوات.

وبما أنَّ الشيخ لم يقض حاجتهُ قبل النوم، ولم ينتظرْ هضم الطعام أحسّ في الليل بلزوم قضاء الحاجة، وتضايق كثيراً فتقدَّم، وفتح باب الكوخ فرأى كلباً أسود الجثة رابضاً، وعيناهُ تقدحانِ شرراً في الليل، وأسنانُهُ تلمعُ كالثلج. فما فتح الشيخ الباب حتى أخذ الكلب يزمجر، وأراد الهجوم عليه، فأغلق الشيخ الباب، وانتظر قليلاً، وهو يتململ. ثم قام بكل حذر، وفتح الباب قليلاً، وإذا الكلب على حاله، فأغلق الباب وٱنتظر مليّاً وسعل وأحدث ضجة على أمل أن يستيقظ الفلاح، الذي كان نائماً كٱلميت من شدة التعبِ والعناء[1]. فلم يرَ حركة. فخجِلَ أن يُوقظه. وأخيراً تقدَّم إلى فراش الطفل وبالَ وغاط وانسحب إلى فراشه.

وٱستيقظ أصحاب الدار صباحاً، فأرادوا رفع الفراش، فرأوْا أقذاراً ملأتْ فراش الطفل من رأسه إلى قدميه. فحار الفلاح وامرأتُهُ بهذه الحال، وكيف أنَّ غلاماً صغيراً يفعل هذا الفعل وظنّا أنَّ في الولد علةً أو مرضاً، فناديا بالويل قائلينِ: كيف نُنقذ ولدنا من هذه الورطة؟

فلم يقدر الشيخ على الثباتِ بلْ قال لهما: اسمعا لأقُصّ عليكما القصة وأُفهِمَكُما الحقيقة فما دُمْتُم تكرمون الضيوف هذا الإكرام، وتُطعمونهم ذلك

---

(١) العَناء: التعب.

الطعام، وما دام عندكم هذا الكلب الأسودُ الكبيرُ رابضاً بهيئته المُخيفة، فإن ابنكم لا يتعافى من هذه العلّة!

☆☆☆

(٣٥٦)

قولوا للأفندي إذا خرج من البيت أن لا يبقي رأسه في النافذة

كان أحد الوجوه يُظهِرُ للشيخ تعظيماً ظاهرياً، ويُبرِمُهُ[١] بمجاملاتِهِ المتكلّفة، فأراد الشيخ يوماً زيارته، وعندما وصل إلى دارِهِ، كان ينظرُ من النافذة إلى جهة، فلمّا رأى الشيخ انسحب إلى الداخل، فدقَّ الشيخُ، وقال: إذا لم يكُنْ لدى الأفندي مانعٌ، فإني جئتُ لزيارته.

فقالوا له من الداخل: واه واه إن الأفندي قد خرج منذ برهةٍ، وسيأسفُ كثيراً حينما يعلم بتشريفك في غيابه.

فلمّا سمع هذا الردَّ، قال بصوت عالٍ: حسن جداً، ولكن قولوا للأفندي إذا خرج من الدار مرةً أُخرى فلا يُبقي رأسهُ في النافذة لئلّا يظنَّهُ الناس في البيت، ويتّهمونه بسوءِ السلوك، ولعلّهم لا يسلمون عليه بعد ذلك.



(٣٥٧)

أين مقر تيمور في الآخرة؟

كانوا يتداولون الحديث في مجلسٍ عن أعوام يوم القيامة وأهوالها، والخوف ملء قلوبهم. وكان الشيخ جالساً بجانب تيمورلنك، الذي تأوَّهَ من فؤاده، وقال: يا حضرة الشيخ ماذا يكون نصيبُنا يوم القيامة؟ فهل يكون مقامُنا في صدر الجنة أم في الدرك الأسفل من النار؟

فأجابه الشيخ: لقد أسفتُ من اشتغال قلب جلالتكم بهذه المسألة فلا يكن عند عظمتِكُم ريبٌ بأنَّ حضرتكُمُ الجنكيزية وهولاكو الملوكية متى أتمّت أنفاس الحياة

---

(١) يبرمه: يضجره.

المعدودة تأخُذُ بسبيل جهنَّم، وتجلس على التحقيق في صدر النار مع أمثال جلالتكم من الملوك كفرعون والنمرود والاسكندر وجنكيز ومَن ماثلهم، بكل وقارٍ واحترام.

☆☆☆

٣٥٨

لعل عزرائيل يتركني ويأخذُك

قال الشيخ لاِمرأتِهِ، وهو في مرض الموت: أيَّتُها المرأةُ العزيزةُ البسي ثيابك الفاخرة، وتزيّني أحسن زينة، ومشِّطي رأسك وآغسلِي وجهِك، واعملي كلَّ أنواع التبرُّج والزينة، وتعالي أمامي.

فقالت له: يا سيدي كيف أدعُ خدمتك في مثل هذه الآونة وأذهب للتبرج والزينة، فلا يُمكِنني أن أفعل ذلك أبداً، فهل ظننتني ضعيفة النفس، قليلة الحُبِّ، جاحدةً[1] للمعروف، حتى تقول لي ذلك؟

فأجابها: كلَّا يا عزيزتي، فإن ما خطر لي غيرُ ما خطر لك، فإني أرى عزرائيل يحومُ حولي، ولعلَّهُ إذا رآكِ بتلك الثياب الفاخرة والهيئة الجميلة يتركني ويأخذك.

☆☆☆

٣٥٩

أسفاً على أيام الصبا

أراد أن يركب يوماً فرساً عالية، فقفز، فلم يستطعِ الركوب فقال: آه على زمن الصبا. والتفت حواليه فلم يرَ أحداً، فقال: أما الحقيقةَ فلم أكن في زمن الصبا أفضل مِمَّا أنا الآن!

☆☆☆

٣٦٠

الآن صِرتُ طيراً تماماً

صاد يوماً لقلقاً من البرية وأحضره إلى داره، فلما رأى رِجليه طويلتين عجب

---

(١) جاحدة، ناكرة، كافرة بالمعروف.

منهما، فأتى بسكين وقطعهما، وأجلسهُ على منضدةٍ عالية وقال له: الآن صِرْتَ طيراً تماماً.

☆ ☆ ☆

٣٦١

متى قطع الذنب فهناك الغبار

ذهب يوماً هو وتلميذُهُ حمادٌ لصيد الذئاب، فدخل تلميذُهُ وكْرَ الذئب ليقبِضَ على بعض جرائه، ووقف الشيخ يراقبُهُ.

وبينما هو كذلك إذا بالذئب، قد جاء ودخلَ الوكر، فأسرع الشيخ خوفاً على حماد منه فأمسك بذنبه وجعل يشدُّه منه، فثار الغبار في داخل الوكر، فصاح حمّادٌ ولم يكن يعلم ما حدث: ما هذا؟ لقد أعماني الغبار.

فأجابه الشيخ: متى ٱنقطع ذنب الذئب فهناك الغبار.



٣٦٢

التعلق بضوء القمر

أحسَّ يوماً بأقدام لصٍّ على السطح، فقال لاَمرأته: إنّي في الليلة الماضية أتيت إلى البيت، وطرقت الباب، فلم تسمعي، فقرأتُ هذا الدعاء (وقرأ لها أحد الأدعية المختصرة) ثم تعلّقت بضوءِ القمر، ودخلتُ الدار.

وكان اللص يسمع كلامه، فحفظ الدعاء، وأخذ بتلاوته. ثم لفَّ يديهِ على ضوء القمرِ واهماً، أنَّهُ يمكنُهُ النزول على هذه الصورة، وأرخى نفسه، فهوى على الأرض ورُضَّتْ أضلاعُه. ونهض جحا في الحال، فأسرع وقبض عليه، ونادى ٱمرأتَهُ قائلاً: أولِعي الشمعة، فقد أمسكْتُ ٱلسارق!

فأجابه اللصُّ وقُواه منهكةٌ: لا تستعجلْ عليَّ يا سيدي، وتلطَّف بي، فما دُمْت تعرف هذا الدعاء، وأنا بهذا العقل، فلن أقدِر على إنقاذ نفسي بسهولة من بين يديك.



٣٦٣

إذا قلت المصدر أتخلَّصُ من إطالة الشرح

سأله يوماً أستاذُه، وهو طالب علم عن كلمة «قال» ما هي؟ فأجابه الشيخ: هي مصدر.

فقال له المعلم: لماذا لا تُجيبُ جواباً صحيحاً؟

فقال: إذا قلت: إنها فعل ماضٍ، يطول بنا الشرح، إذ أن له معلوماً ومجهولاً ومثبتاً ومنفياً ومذكراً، ومؤنَّثاً ومفرداً ومجمعاً الخ الخ والمصدر بعيد عن كل ذلك، أتخلص فيه بكلمة.

☆☆☆

٣٦٤

اسألْني فأسألُها وأُجيبُك

ذهبت امرأتُهُ مع بعض النساء، لغسل الثياب، على شاطىء البحيرة، في «آقَ شَهْرْ» وإذا بأحد أعيان البلدة قد خرج للتنزه، وطفِقَ يُطِيل النظر إلى النسوة، فقالت له زوجة جحا: لماذا تنظر إلينا أيها السافل؟

فسأل الوجيه خادمه: مَن هذه المرأة؟ فأجابه: زوجة جحا.

وفي اليوم التالي أرسل الوجيهُ، واستحضر جحا، وقال له: المرأة الفلانية اللابسة كذا، وهيأتُها كذا، هل هي امرأتك؟

فقال: نعم.

فقال له: أرسلها إليّ!

فأجابَهُ جحا: ولماذا؟

فقال: أُريدُ أن أسألها عن شيء.

فأجابه: اسألني فأذهب إليها وأسألُها وأجيبُك.

☆☆☆

٣٦٥

أين ملحي وبهاري

صاد كثيراً من السماني (نوع من الطير)، ونظَّفها جيِّداً، وجعلها في قِدْرٍ

ووضع الغِطاء، وتركها على النار تغلي، وذهب يدعو أصدقاءه مُتَّخِذاً ذلك وسيلةً لإسكات من كان يعترضُ على الصيد والقنص.

وجاء أحدُهُم في غيابه، ومعه عددٌ منها أحياء، فرفع غِطاء القدرِ، وأخرج المطبوخاتِ، ووضعَ مكانها الأحياء، وذهب.

وعندما اجتمع الأصدقاءُ، قام الشيخ مُفْتخراً مُبْتهجاً، ورفع غِطَاء القِدْر، وإذا بالسمانيِّ رفرفت وطارت. فحار الشيخ في أمره، وقال: يا ربي نحن صِدْنا السمان، وطبخناها، فمننت عليها بالحياة الجديدة. لا بأس، ولكن أين ملحي وبهاري وفحمي ووقيدي وتعبي. فهذه مَن أسألُ عنها؟

☆☆☆

٣٦٦

دعيني أموت في الغربة

دخلت ابنته إلى بيت المؤونة (الكرار) فرأت أباها، قد اختبأ وراء زيرٍ كبيرٍ مُتمدِّداً فقالت له: ماذا تصنع هنا يا والدي؟

فأجابها: ماذا أصنع يا بنيتي؟ دعيني أموتُ في الغربةِ، وأتخلص من أُمِّكِ!

☆☆☆

٣٦٧

لولا صرف القدرة لكان ما تمنَّاه

سألوه يوماً: ماذا تقول في القدرة الإلهية؟

فأجابهم: منذ عرفت نفسي علِمْتُ أن ما قضاهُ اللّهُ واقع. ولولا نفوذُ القدرة الإلٰهية، لكان لي بعض ما أتمنّاه.

☆☆☆

٣٦٨

كيف كان جحا بالاحتضار(١)

كان يخافُ الموت كثيراً وعندما يسمع بحديثه تتراخى أعصابُهُ، ولذلك كان

(١) الاحتضار: لحظات الموت الأخيرة.

أصحابُهُ يحدِّثونَهُ كثيراً عنه، ليسمعوا منه نُكتةً، أو جواباً لطيفاً، ولكنَّهُ في مرضه لم يتضعضعْ، بل كان يمزحُ، ويضحك مع أهلِ بيته، حتى أنفاسِهِ الأخيرة، فعجب البعضُ من ذلك وسألُوه قائلين: كُنَّا نعلم أنَّك تخاف من ألموت، بل من ذكرِهِ، ونحن نراك الآن تكادُ تكون بالاحتضار، ولا تخافُ فما سببُ ذلك، والحكمةُ فيه؟

فأجابهم: يا أولادي كنت أخشى قبلاً من الوصول إلى ما وصلت إليه الآن، وأخشى من هذه النومة على هذا الفراش، أما وقد جرى ما جرى، وعزرائيل على الأبواب، فأنا الآن أتهيَّأ لآخرتي، إذ يجب علينا في مثل هذه الحال، أن نتَّخِذ وسيلةً لسلامةِ أيامنا حتى النفس الأخير.

☆☆☆



كرامةُ الشيخ بعد موته

بعد وفاة الشيخ بقرنٍ أو قرنين، كان أُلُوفٌ من الناس مجتمِعِين في الجامع الكبير، لصلاة الجمعة، وإذا بقيِّم قبرِهِ أتى من الباب الكبير لابساً لباساً موافقاً لملابس الشيخ، وقال بصوت جهوري: أيها الأخوان: سأقصُّ عليكم قصة غريبة، فقد توضأتُ على نيّة الحضور إلى الجامع، وأقفلتُ باب القبر، وإذا بي أرى المرحوم الشيخ نصر الدين بسيماهُ وهيئته، وصورتِهِ ولباسِهِ راكباً على صندوق قبرِهِ، كأنَّه راكبٌ فرساً، يتأمَّلُ فيما حواليه، والتفتُّ، وقال لي: اذهب إلى الجامع، وقلْ للجماعة أن يحضروا إليَّ، ومن لا يحضرُ فيكون هو الجاني على نفسه.

فعندما سمع الأهلون ذلك أسرعوا بتلبية الطلب، لاعتقادهم بصلاح الشيخ، وحسن ظنهم في قيِّم قبرِه، فذهبوا إلى القبر، وبالطبع لم يَرَوْا الشيخ، على أنهم كانوا، قد سمعوا من آبائهم وأجدادهم بكراماته الراسخة في أذهانهم فقالوا: يا اللّه منك أيها الشيخ، فكأنك لا تريد إلا أن تمزح معنا، لتفهِمَنا أن هِمَّتك هي معنا على الدوام، وقرأوا جميعُهُم الفاتحة، وأهدوها لروحه، ثم عادوا إلى الجامع، وإذا بهم يرون قبة الجامع الكبرى قد هُدِّمت، وسقطت بتمامها.

فكانت هذه الكرامةُ الجليلةُ سبباً لازدياد أعتقادِهِم في الشيخ ـ رحمه اللّه ـ.

☆☆☆

٣٧٠

أيُّ ابن ملعون أخبركم؟

ملأَ جيبهُ خوخاً ومشى، فرأى بعض أصدقائه، فقال لهم: مَنْ يعلمُ ما في جيبي أعطيتُهُ أكبر خوخةٍ منه؟

فقالوا له: خوخ.

فٱستغرب ٱلشيخُ وقال لهم: أي ابن ملعونٍ أخبركم!

☆☆☆

٣٧١

إلى المكان الذاهب إليه البغل

ركب بغلاً حروناً[١] صعبَ المِراس، فلم يُمكِنْهُ سوقُهُ إلى الجهةِ ٱلمطلوبة، فصادفَهُ بعضُ أصحابِهِ، فقال له: إلى أين أنت ذاهب أيها الشيخ؟

فأجابه: إلى المكان الذاهب إليه البغل!

* إلى هنا انتهينا من نوادر الشيخ نصر الدين جحا المترجمة عن التركية وسنُلحِقُها بذيل ممَّا سمِعْناه أو قرأناهُ، ولم نرَ له ذكراً في النسخة التي ترجمْنا عنها، واللّه المعين إلى سبيل الصواب.

---

(١) بغلاً حروناً: لا ينقاد، إذا اشتد به الجري وقف.

ذيل النوادر

جمع المؤلف والمترجم

(٣٧٢)

وجدتُ نعلاً فبقي ثلاثة نعال والحمار

كان الشيخ سائراً في الطريق ففكَّرَ في حمار يقتنيه بدل حماره المفقود. فلقي حدوة حمارٍ مُلقاة على الطريق، فأخذها ووضعها في عبِّه، وقال في نفسِه: وجدت نعلاً فبقي ثلاثة نعال، والحمار، واللَّه كريم.



(٣٧٣)

هات حمارين

قال له أحد الحكام: تمنَّ عليّ. فقال: أتمنى أن تُصدِر أمراً بتفويضي أن آخذ حماراً من كل رجلٍ يخاف أمرأتَهُ، فأصدر الحاكم أمراً عاماً بذلك.

وذهب جحا إلى بعض الضواحي، ثُمَّ عاد بعد مدة، فرآه الحاكم من النافذة، وقد ساق عدة حميرٍ أمامَهُ، والغبارُ قد سدّ الأفقَ فأحضرهُ، وسأله عن أخباره، فأجابه: إني أخذت حسب الأمر من كُلِّ مَن يخافُ امرأته حماراً. فأظهر الحاكم عجبه من حال الناس، كيف يخافون نساءهم، فقال له جحا: وقد رأيتُ في إحدى البلاد بنتاً لوجيه فيها، لها وجه كالبدر في تمّه، وقامةٌ كالرمح، وعينانِ كعيني الغزال، وعنقٌ كإبريقٍ من لجينٍ[١]، وأخذ يصفُ له محاسنَ الفتاة ويُسهبُ[٢].

فقال له الحاكم: اخفضْ صوتك، يا شيخُ لئلّا تسمعك زوجتي، لأنها على مقربة منّا وقد يحدثُ ما لا تُحمدُ عقباه.

---

(١) لُجين: بضم اللام: الذهب.

(٢) يسهب: يطيل الوصف.

فقال له الشيخ حينئذ: إذا كان لي أن آخذ من غيرك حماراً واحداً فهات أنت حمارين.

وممّا نقلناه من كتابنا: مضحك العبوس.

☆☆☆

٣٧٤

هل رأيتم جنازة حبشية كفنها معي؟

مات لأبيه جاريةٌ حبشيةٌ، فبعثهُ أبوه إلى السوق لِيشتري لها كفناً. فأبطأ عليه حتى أنفذ[١] غيرهُ، وجاء بكفنٍ وحُملت الجنازة، فجاء جحا، وهو يعدو في المقابر، ويقول: هل رأيتم جنازة حبشيةٍ كفنها معي؟

☆☆☆

٣٧٥

رأس خروف أم جمجمة؟

أعطاهُ أبوهُ درهماً لِيشتري به رأس خروف. فمضى وأشترى الرأس وأكل ما عليه من اللحم جميعاً، وجاء إلى أبيه بجمجمة فارغة، وقدَّمَها بين يديه، فقال له أبوه: يا خبيثُ ما هذا؟

فقال: رأسُ غنم.

قال: أين أذناهُ؟

قال: كان أصمَّ.

قال: أين عيناهُ؟

قال: كان أعمى.

قال: أين لسانُه؟

فقال: كان أخرسَ.

قال: أين جلد رأسِه؟

فقال: كان أقرع!

---

(١) أنفذ: أرسل وبعث.

٣٧٦

إنَّه سلوتي عافاكُمُ اللَّهُ

صلَّى بقوم يوماً، وفي كمِّهِ جروُ كلبٍ، فلما ركع سقط الجرو من كمِّه، وعوى، فتنحنح ٱلناس، فالتفت إليهم وقال: إنَّه سلوتي عافاكُمُ اللَّهُ!

☆☆☆

٣٧٧

كان فيها قطن فما سال منها شيء

حمل جرة إلى السوق ليبيعها، فقالوا: هي مثقوبة؟

فقال: كلا، فقد كان فيها قطن لوالدتي فما سال منها شيء.

☆☆☆

٣٧٨

لستم بأعلم من صاحبها

لبس فروة ثعلب مقلوباً شعرها إلى الخارج، فقيل له ما هذا؟ فقال: ما أنتم بأعلم من صاحبها الثعلب، ولولا أنَّ لبسها هٰكذا أصلحُ لما لبسها كما ترون.

☆☆☆

٣٧٩

أصلبوه فإنَّه أروحُ له من ظلمة القبر

مات عمُّه، فأعطوهُ ديناراً لِيشتري به تابوتاً فمضى إلى السوق وٱشترى بدانقينِ جذعاً وأخذ الباقي لنفسه، وجاء بالجذع إليهم فقالوا: ما نصنع بهذا؟

فقال: أصلبوه عليه، فإنَّه أروحُ له من ظلمةِ القبرِ، وسؤالِ منكر ونكير.

☆☆☆

٣٨٠

لا أعجبُ ممن أخذ الدراهم وإنما أعجب من الدابة

سافر مع أبيه وجماعة، وكان يحملُ رُمحاً فلمَّا نزلوا ركَّز الرمح، ونادى المنادي احفظوا متاعكم من اللصوص، وكان مع جحا صرَّةٌ فيها دراهِم، فقام وعلَّقَ الصرَّة في رأس الرمح، وناموا.

فجاء اللصوص وأخذوا الدراهم، وتركوا مكانها رَوْثَة دابَّةٍ، فلمَّا أصبح وجد الروثة ولم يجد الدراهم، فقال: ما أعجب مِمَّن أخذ الدراهم، كيف وصلت يده إليها، مع طول الرمح وإنَّما أعجبُ مِنَ الدابةِ كيف صَعِدَتْ فوق الرمح، وراثَتْ عليه!

☆☆☆

٣٨١

من ضغط القبر

مرّ جحا بجنازة، فقالوا له: صلِّ على هذا الغريبِ الفقير. فصلَّى، فلمَّا رفع يديهِ أفْلَتَ صَوْتاً، فالتفت إليهم وقال: إنْ كان على صاحبِكم دَينٌ، فاقضُوهُ فهذا من ضغط القبر.

☆☆☆

٣٨٢

اقلبوه

أمره أبوهُ أن يُصلِح جُبّاً، ويضع له قاراً[١]، ويصقلهُ، فوضع له القار مِنَ الخارج وصقلَه، فقال له أبوه: ويْحَكَ، إنَّما يقيَّر من الداخل. فقال: اقلبوه!

☆☆☆

---

(١) القار: القطران.

٣٨٣

أدخلي في بطني لأحمِلَك سنتينِ وخلصيني

جفا جحا أُمَّهُ، فقالت له: أهٰذا جزائي، وقد حملتُك في بطني تسعةَ أشهر؟

فقال لها: أُدخلي في بطني لِأَحملك سنتينِ، وخلِّصيني..

☆☆☆

٣٨٤

نسيت واحداً من عِيالي

دخل جحا على بعض الملوك يوماً، فقال له: كم عيالك؟ فقال: ثمانية.

فأمر له بثمانيةِ آلافِ درهمٍ. فأخذها، وخرج، ولمَّا بلغ الباب، رجع وقال: نسيت واحداً من عيالي؟

قال: مَن هو؟

فقال: هو أنا.

فضحك الملكُ، وأمر له بمثل ذلك.

☆☆☆

٣٨٥

إنَّما هي أمي

كان لهم جاريةٌ تسمَّى عُميرة، فضربتها أُمُّه، ذات يوم، فصرخت الجارية، فاجتمع الناس على الباب، فخرج إليهم وقال: عافاكُمُ اللّٰهِ، إنَّما هي أمي تجلِدُ عُميرة.

☆☆☆

٣٨٦

إذاً لا..

دخل جحا على أُمّه، وهي في النَّزعِ[1]، فقال لها: كيف حالُكِ يا أُمَّاهُ، جعلني اللَّهُ فداكِ؟

قالت: في الموت؟

قال: إذاً لا، فقد كنت أظنُّ أنَّ في الأجل فسحة..

☆☆☆

٣٨٧

نعم أقوم الليل

كانوا يتحادثون في قضية قيام الليل، فسألُوه: هلْ تقومُ الليل؟

قال: نعم، أقومُ وأبوِّلُ، ثم أرجعُ إلى فراشي.

☆☆☆

٣٨٨

هل كلُّ الليالي جمعة؟

قال لامرأته يوماً: إذا كانت ليلةُ الجمعة فاَقلبي المخدَّة حتى أعلم تلك الليلة.

فأخذت اَمرأتُهُ تقلب المخدَّة كُلَّ ليلتين، فلم يفطَنْ لذلك، وأخيراً صارت تقلِبُها في كلِّ ليلةٍ، فضاق ذرعُ الشيخ، وقال لها: هل كُلُّ الليالي جمعة؟ خلِّصيني من الجمعة، أو خلصي الجمعة منِّي.

(١) النزع: لحظات الموت الأخيرة.

فهرس المحتويات